ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

عصر فولتير

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر ڤولتير

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثاني من المجلد التاسع

٣٦

تونس

بيروت

فهرس الجزء الثانى من المجلد التاسع

عصر فولتير — (٣٦)

الكتاب الثانى

فرنسا — ١٧٢٣ — ١٧٥٦

الفصل السابع

الشعب والدولة

صفحة

الفصل الثامن

الأخلاق والعادات

الفصل التاسع

عبادة الجمال

الكتاب الثاني

(من المجلد التاسع)

فرنسا

١٧٢٣ - ١٧٥٦

الفصل التاسع

الشعب والدولة

كان عدد سكان فرنسا التي عاد إليها فولتير ١٧٢٧ ، نحو تسعة عشر مليوناً من الأنفس ، مقسمة إلى ثلاث طبقات : رجال الدين والنبلاء ، ثم الطبقة الثالثة التي تضم بقية الشعب . وإذا أردنا أن نفهم الثورة الفرنسية فلا بد لنا من أن ندرس كل طبقة منها دراسة دقيقة .

١ — النبلاء

أطلق السادة الإقطاعيون الإقليميون الذين استمدوا ألقابهم من الأرض التي امتلكوها (وهي ربع أرض فرنسا تقريباً) على أنفسهم اسم « نبلاء السيف » . وكانت مهمتهم الرئيسية أن ينظموا ويتولوا قيادة الدفاع عن سيادتهم وعن إقليمهم وعن وطنهم وعن مليكهم . وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر ترأس هؤلاء النبلاء نحو ثمانين ألف أسرة تضم نحو أربعمائة ألف من الأنفس[1] . وكانوا شيعا أو طبقات متحاسدة ، أعلاها طبقة ذرية الملك الذي يتربع في دست الحكم وأولاد اخوته وأخواته . ويلي هؤلاء في منزلة أدنى : طبقة أشراف فرنسا : وتضم الأمراء من أبناء الملوك السابقين . ثم سبعة أساقفة وخمسين دوقا . ويأتي بعد ذلك الأدواق الأقل شأناً ، ثم الحاصلون على لقب مركيز ، ثم لقب كونت ، ثم لقب فيكونت ، ولقب بارون وشيفالييه (نبيل من الدرجة الدنيا) . وكانت ثمة امتيازات رسميه تميز هذه السلسلة من المراتب بعضها عن بعض . ومن هنا كان نزاع حاد فاجع حول حق السير تحت المظلة في مواكب عيد القربان أو حق الجلوس في حضرة الملك .

ومن بين نبلاء السيف هؤلاء ، تعقبت أقلية منهم أصول ألقابها وممتلكاتها عبر عدة أجيال ، واختصت نفسها باسم « النبلاء ذوي المحتد الكريم »

ونظروا فيها بعين الازدراء إلى النبلاء الذين حصـــلوا على لقب النبالة عن طريق أسلاف حديثي العهد ، أو حصلوا عليه هم أنفسهم فى عهد لويس الثالث عشر أو لويس الرابع عشر . كما أن بعض هذه الألقاب كانت تمنح لقاء خدمات للدولة فى الحرب أو فى الإدارة أو فى التمويل ، كما أن بعضها كان يبيعه الملك المعظم المعوز الراحل ، مقابل سته آلاف جنيه ، وبهذه الطريقة ، كما قال فولتير ، « حصل عـدد كبير من المواطنين — رجال المصارف والجراحون والتجار والكتبة وخدم الأمراء - على براءة النبالة [٢] » وثمة مناصب حكومية معينة ، مثل منصب المستشار أو كبير القضاة ، كانت تضفى على شاغليها لقب النبالة تلقائيا . وفى عهد لويس الخامس عشر كان فى مقدور أى رجل عادى أن يحصـل على النبالة بشراء حق تعيينه وزيراً مقابل مائة وعشرين ألف جنيه . وفى عهد لويس السادس عشر ربما كان هناك نحو تسعمائة وزير وهمى أو صورى من هـذا الطراز . كما أنه كان فى الإمكان شراء اللقب بشراء ضيعة أحد النبلاء . ويحتمل أنه فى ١٧٨٩ ، كان نحو ٩٥ ٪ ، من مجموع النبلاء ينحدرون فى الأصل من الطبقة الوسطى [٣] .

ووصلت غالبية هؤلاء إلى درجة كبيرة من الأهمية ورفعة الشأن عن طريق دراسة القانون، ومن ثم حصلوا على مناصب القضاء والإدارة . ومن بينهم كان أعضاء البرلمانات الثلاثة عشر التى كانت بمثابة دور قضاء فى كبريات المدن فى فرنسا ، ولما كان يجوز للقاضى أو الحاكم ترك منصبه لابنه ، فقد تشكلت أرستقراطية وراثية — هم نبلاء الرداء (الروب) . وكان الرداء بالنسبة لرجل القضـاء ، كما هو بالنسبة لرجل الدين ، يمثل نصف السلطة أو السيادة . وكان أعضاء البرلمانات وهم يرفلون فى أرديتهم القرمزية ، وصباءاتهم الثقلية والأكمام ذات الأهداب والشعور المستعارة المضمخة والقبعات ذات الريش ، يجيئون فى مرتبة أدنى من الأساقفة ونبلاء الأرض . ولكن حيث أن بعض الحكام والقضاة أصبحوا ، عن طريق الرسوم القانونية التى كانوا يتقاضونها ، أكثر ثراء من معظم ملاك الأرض

ذوى الحسب والنسب، فقد تحطمت الحواجز بين نبلاء السلاح ونبلاء الرداء وما وافى عام ١٧٨٩ حتى كان ثمة اندماج كامل تقريبا بين الطبقتين . وبلغت الطبقة التى تكونت عندئذ من وفرة العدد والقوة مبلغا لم يستطع الملك معه أن يقف فى وجهها أو يقاومها ، وزعماء الثورة وحدهم هم الذين استطاعوا أن يقضوا على هذه الامتيازات الباهظة التكاليف .

وانتاب الفقر كثيراً من النبلاء القدامى بسبب الاهمال فى إدارة ممتلكاتهم أو تغيبهم عنها ، أو بسبب اتباعهم أساليب متخلفة فى زراعتها ، أو إنهاك التربة ، أو خفض قيمة العملة التى كانوا يتقاضون بها إيجار الأرض أو الرسوم الإقطاعية . ولما كان المفروض ألا يشتغل النبلاء بالتجارة أو الصناعة ، فإن نمو هذه وتلك خلق اقتصاداً قائماً على المال ، قد يمتلك المرء فى ظله أرضاً شاسعة ولكنه يظل فقيراً . وكان هناك فى بعض أقاليم فرنسا مئات من النبلاء يعانون من الفقر مثلما يعانى الفلاحون(٤) . ولكن أقلية كبيرة من النبلاء تمتعت بثروات ضخمة وبذروا تبذيراً . فكان الدخل السنوى لمركيز دى فييت ١٥٠ ألف جنيه ، ولدوق دى شفريز ٤٠٠ ألف جنيه ، ولدوق دى بويون ٥٠٠ ألف جنيه . وأعفى معظم النبلاء من الضرائب المباشرة ، إلا فى حالة الطوارىء ، حتى تصبح الحياة لديهم أكثر احتمالا ويسرا . وخشى الملوك أن يفرضوا عليهم الضريبة حتى لا يطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ، فقد تفرض الطبقات الثلاث فى مثل هذا الاجتماع بعض الرقابة على الملك ثمنا للموافقة على الاعتمادات أو الإعانات . قال توكفيل « كان عدم المساواة فى الضرائب يعمل على التفرقة بين الطبقات فى كل عام حيث أعفى الأغنياء وأثقل كاهل الفقراء (٥) » . وفى عام ١٧٤٩ فرضت على النبلاء ضريبة دخل قدرها ٥٪ ولكنهم كانوا يفاخرون بالتهرب منها .

وقبل القرن السابع عشر كان نبلاء الأرض يقومون بمهام الاقتصاد والإدارة والحرب ، وأيا كانت طريقة إحراز الممتلكات . فإن هؤلاء السادة نظموا تقسيم الأرض وفلاحتها ، إما عن طريق الرقيق أو عن طريق عقود الإيجار ، وسهروا على القانون ، وقاموا بإجراءات المحاكمة وأصدروا

الأحكام ، ونفذوا العقوبات ، وتعهدوا المدارس والمستشفيات المحلية ، ووزعوا الصدقات. وفى مئات من مناطق السيادة والنفوذ مارس السيد الإقطاعى هذه الوظائف والمهام ، بالقدر الذى سمحت به الأنانية الطبيعية فى الإنسان . وقد اعترف الفلاحون بانتفاعهم منه، ومن ثم فإنهم أطاعوه واحترموه وفى بعض الأحيان أحبوه .

وأدى عاملان أساسيان إلى تبديل هذه العلاقة الإقطاعية : تعيين الحكام أو المحافظين على عهد الكاردينال ريشيليو وما بعده ، وتحويل لويس الرابع عشر لكبار السادة الإقطاعيين إلى رجال حاشية . وكان هؤلاء المحافظون موظفين بيروقراطيين من الطبقة الوسطى ، يبعث بهم الملك ليحكموا الأقسام الاثنين والثلاثين التى انقسمت إليها فرنسا من الناحية الإدارية . وكانوا عادة ذوى كفاية ومقدرة ونيات حسنة ، ولو لم يكونوا جميعاً من أمثال ترجو . وقاموا بتحسين الأحوال الصحية والإضاءة وتزيين المدن ، وأعادوا تنظيم الشئون المالية ، وبنوا السدود والخزانات على الأنهار من أجل الرى ، أو أقاموا الحواجز اتقاء لخطر الفيضانات ، وزودوا فرنسا فى هذا القرن بشبكة هائلة من الطرق لم يكن لها مثيل فى سائر أنحاء العالم . وشرعوا فى أن يغرسوا على جوانبها الأشجار التى تظللها اليوم وتزينها [٦] . وسرعان ما زحزح تفوقهم فى الدأب على العمل والمقدرة والكفاية السادة الإقطاعيين المحليين عن حكم الأقاليم ، ورغبة فى التعجيل بهذه الزحزحة التى تركز الحكم فى أيدى هؤلاء المحافظين ، عمد لويس الرابع عشر إلى دعوة السادة الإقطاعيين للانتظام فى بلاطه الملكى ، وهناك عينهم فى وظائف بسيطة ذات ألقاب رفيعة وأوسمة مخدرة . وفقدوا الاتصال بالشئون المحلية على حين ظلوا يحصلون من مزارعهم على الموارد اللازمة للانفاق على قصورهم وبطانتهم فى باريس أو فرساى : وتشبثوا بحقوقهم الإقطاعية بعد أن تخلوا عن واجباتهم الإقطاعية . إن ضياع المهام الإدارية التى كانوا يقومون بها فى مجال الاقتصاد والحكومة جعلهم عرضة للاتهام بأنهم كانوا طفيليات غير ضرورية عالة على فرنسا .

٢ ـ رجال الدين

كانت الكنيسة الكاثوليكية قوة أساسية ذات وجود بارز فى كل ركن فى الحكومة . وقدر رجال الدين الكاثوليك فى فرنسا بنحو ٢٦٠ ألفا فى ١٦٦٧ (٧) ، و ٤٢٠ ألفا فى ١٧١٥ (٨) . و ١٩٤ ألفا فى ١٧٦٢ (٩) . وهذه الأرقام كلها من قبيل التخمين ، ولكن قد نفترض انخفاض هذا العدد بنسبة ٣٠٪ فى القرن الثامن عشر ، على الرغم من تزايد عدد السكان ، وحسب لاكروا أن فرنسا كان فيها عام ١٧٦٣ ، ١٨ رئيس أساقفة ، ١٠٩ أساقفة ، و ٤٠ ألف قسيس ، و ٥٠ ألف مساعد قسيس ، و ٢٧ ألف رئيس دير ، و ١٢ ألف كاهن ، و ٢٠ ألف كاتب (من رجال الدين) ، ومائة ألف راهب وراهبة وعضو أخوية دينية (١٠) ، ومن بين ٧٤٠ ديراً كان هناك ٦٢٥ ديراً يتولى شئونها مساعدو رؤساء أديار ، لمصلحة رؤساء أديار متغيبين عنها وكانوا يتمتعون باللقب وبنصف أو ثلثى دخل الدير ، دون أن يكون مطلوبا منهم أن يحيوا حياة كنسية .

وكان رجال الدين الأعلى مرتبة يشكلون من الوجهة العملية فرعا من النبلاء ، وكان الملك يعين كل الأساقفة ، عادة ، بناء على ترشيح السادة الإقطاعيين المحليين ، على شرط موافقة البابا . ورغبة من الأسرات ذوات الألقاب فى عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث ، كفلت لصغار أبنائها المناصب الأسقفية ومناصب رؤساء الأديار ، حتى أنه فى ١٧٨٩ لم يكن من بين المائة والثلاثين أسقفاً فى فرنسا إلا واحداً فقط من الأفراد العاديين غير ذوى الألقاب (١١) . وأدخل أبناء الأسرات العريقة هؤلاء معهم إلى الكنيسة عاداتهم التى درجوا عليها فى التمتع بترف الدنيا وزخرفها . ومن ذلك أن الأمير الكاردينال إدوارد دى روهان كان فى القداس يرتدى ثوبا كهنوتيا له حواش من المخرمات المعقودة ، قدرت قيمته بمائة ألف جنيه ، وكانت أدوات مطبخه من الفضة الخالصة (١٢) . وفسر رئيس الأساقفة ديللون دى ناربون للويس السادس عشر ، السبب فى أنه أى رئيس الأساقفة ، استمر

«ممارسة الصيد بعد أن حرمه على رجال الدين فى أسقفيته ، بقوله «مولاى إن رذائل رجالى من عند أنفسهم ،ولكنى ورثت رذائلى أنا عن أسلافى [١٣] لقد انقضى العصر الزاهر لرجال الكنيسة — من أمثال بوسويه وفينلون وبوردللو — وأفسح المرح الابيقورى الصاخب فى عهد الوصاية المجال أمام رجال مثل ديبواوتنسان للترقى فى مناصب الكنيسة على الرغم من انغماسهم فى ملذات الصيد بنوعيه ، اقتناص الحيوان واصطياد النساء . وقضى كثير من الأساقفة معظم حياتهم فى فرساى أو باريس ، مشاركين البلاط الملكى بهجته ومسراته ومباذله ، فاحتفظوا بقدم فى الآخرة وقدم الدنيا ، ولم ينسوا نصيبهم من متاعها .

وكان للأساقفة ورؤساء الأديار حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم ، حتى إلى حد تقديم ثور لخدمةأبقار فلاحيهم [١٤] . وكانت ممتلكاتهم الشاسعة، التى كانت تضم أحياناً مدن بأسرها ، تدار كما تدار الممتلكات الإقطاعية . وكان جزء كبير من مدينة فرن ومعظم الأرض المحيطة بها ملكا للأديار [١٥]، وفى بعض الكوميونات (وحدات التقسيم الإدارى) ، عين الأسقف كل القضاة والموظفين ، وهكذا عين رئيس أساقفة كمبراى الذى كان السيد الأعلى على منطقة تضم ٧٥ ألفاً من السكان كل رجال الإدارة فى كاتوكمبرسيس، ونصفهم فى كمبراى [١٦] . وعمر نظام الرقيق لأطول فترة فى ضياع الأديار [١٧] وكان للكهنة فى سان كلود فى جبال جورا اثنا عشر ألفا من الرقيق ، وقاوموا بشدة الانتقاص من الخدمات الإقطاعية [١٨] . وارتبطت حصانات الكنيسة وامتيازاتها بالنظام الاجتماعى القائم، كما جعلت لهيئة الكنيسة أقوى تأثير محافظ على القديم يناهض أى تغيير فى فرنسا .

وجمعت الكنيسة سنويا ، مع شىء من الاعتدال ومراعاة الظروف ، العشور عن نتاج كل مالك أرض وماشية ، ولكن هذا نادراً ماكان العشر فى الواقع ، بل كان فى الكثير الغالب جزءا من اثنى عشر ، وأحياناً جزءاً من عشرين [١٩] . وبهذه العشور ، بالإضافة إلى الهبات والوصية والتوريث ، وبدخل العقارات الثابتة ، احتفظت الكنيسة بكهنة أبرشياتها فقراء معوزين

على حين عاش الأساقفة مترفين منعمين . وأغاثت الكنيسة المحتاجين المعدمين وعلمت الصغار ولقنتهم مبادئها . وفى المقام التالى بعد الملك وجيشه ، كانت الكنيسة أقوى وأغنى سلطة فى فرنسا . وكانت تمتلك ، طبقا لمختلف التقديرات ، ما بين ٦ ٪ و ٢٠ ٪ من الأرض [٢٠] ، وثلث الثروة [٢١] . وكان دخل أسقف سنس السنوى ٧٠ ألف جنيه ، وأسقف بوفيه ٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة روان ١٠٠ ألف ، ورئيس أساقفة ناربون ١٩٠ ألفاً ، ورئيس أساقفة باريس ٢٠٠ ألف . أما رئيس أساقفة ستراسبورج فقد أربى دخله السنوى على المليون من الجنيهات [٢٢] . وكان رأس مال كنيسة بريمونتريه بالقرب من لاؤون ٤٥ مليونا من الجنيهات . أما الإخوة الدومنيكان البالغ عددهم ٢٣٦ فى تولوز فقد بلغت مقتنياتهم من الأملاك الفرنسية والمزارع فى المستعمرات ومن الرقيق الأسود ما قدرت قيمته بعدة ملايين من الجنيهات أما رهبان سانت مور فقد بلغت قيمة ممتلكاتهم ٢٤ مليونا من الجنيهات تدر ثمانية ملايين فى العام .

ولم تدفع الكنيسة أية ضرائب عن شيء من ممتلكاتها أو دخلها ، ولكن كبار رجال الدين كانوا يقررون بصفة دورية فى المجامع الوطنية إعانة اختيارية للدولة . وفى ١٧٧٣ بلغت هذه الإعانة ستة عشر مليونا من الجنيهات لمدة خمس سنوات . وقد اعتبرها فولتير نسبة عادلة من دخل الكنيسة[٢٣] . وفى ١٧٤٩ اقترح ماشول دى ارنوفيل المراقب العام المالى أن يستبدل بهذه المنحة الاختيارية ضريبة مباشرة سنوية قدرها ٥٪ من مجموع الدخل تفرض على الكنيسة وعلى عامة الناس وخشى رجال الدين أن تكون هذه خطوة أولى نحو سلب أموال الكنيسة بغية انقاذ الدولة ، فقاوموا الفكرة فى « غضب شديد واصرار [٢٤] » . كذلك اقترح ماشول تحريم التوريث بالوصية للكنيسة دون موافقة الدولة ، وإلغاء المؤسسات الدينية التى قامت منذ ١٦٣٦ دون ترخيص من الملك ، ومطالبة شاغلى الرتب الكنسية ذوات الدخل بتقديم تقرير عن عن مواردهم إلى الحكومة . وأبت جمعية انعقدت من رجال الدين الامتثال لهذه القرارات ، وقالوا : « لن نوافق إطلاقا على أن يصبح ما كان حتى الآن ثمرة حبنا وإجلالنا ضريبة على طاعتنا » ، وأمر لويس الخامس عشر

بفض الاجتماع ، كما أصدر المجلس الملكى أوامره إلى المحافظين بجمع ضريبة أولية مقدارها سبعة ملايين ونصف مليون جنيه على أملاك الكنيسة .

وحاول فولتير تشجيع ماشول والملك فأصدر كتيبا عنوانه « صوت الحكمة وصوت الشعب » حرض فيه الحكومة على أن تفرض سيطرتها على الكنيسة ، وأن تحول دون أن تكون الكنيسة دولة داخل الدولة ، وأن تعهد إلى فلاسفة فرنسا بالدفاع عن الملك والوزارة ضد كل قوى الخرافة[٢٥] . ولكن لويس الخامس عشر لم ير سببا يدعوه إلى الاعتقاد بأن الفلسفة فى مقدورها أن تكسب الجولة فى الحرب مع الدين . وأدرك أن نصف سيادته وسلطانه يتركز على مسحه بالزيت المقدس وتتويجه بأيدى رجال الكنيسة ، ليصبح بعد ذلك — فى نظر الجماهير التى ليس فى مقدورها أن تدنو منه إلى حد تستطيع معه إحصاء عدد محظياته — نائب الله الذى يتحدث بمقتضى التفويض الإلهى . ان الإرهاب الروحى الذى يبثه رجال الدين فى النفوس وتعززه قوى التقاليد والعادات والاحتفالات الدينية والملابس الكهنوتية والهيبة ، نقول إن هذا الارهاب قام مقام ألف من القوانين ومائة ألف من رجال الشرطة فى المحافظة على النظام الاجتماعى ، والابقاء على طاعة الجماهير وامتثالها للحكومة والملك . وهل فى مقدور أية حكومة ، دون دعم من الرجاء والخوف الخارقين للطبيعة ، أن تسيطر على ما فطر عليه الناس من نزعة التمرد على القانون أو عدم الخضوع له ؟ وعقد الملك عزمه على الاستسلام للأساقفة ، ونقل ماشول إلى منصب آخر ، وصادر كتاب فولتير ، ووافق على منحة اختيارية بدلا من الضريبة على أملاك الكنيسة .

إن قوة الكنيسة كانت تعتمد أساسا على نجاح كاهن الأبرشية ، وإذا كان الناس يخشون رجال الدين الذين يضعون التيجان على رؤوسهم (الأساقفة مثلا) ، فانهم أحبوا الراعى المحلى الذى شاركهم فقرهم وعوزهم ، وأحيانا كدحهم وكدهم فى فلح الأرض . انهم تذمروا من جمع العشور ، ولكنهم كانوا على يقين من أن رؤساء الراعى هم الذين أرغموه على جمعها ،

وأن ثلثي هذه العشور ذهب إلى الأسقف أو إلى أحد ذوى المناصب الكنسية الغائبين عنها ، على أن كنيسة الأبرشية . ضمناها ما كانت تعانى من خلل وحاجة إلى ترميم ، مما تئن منه التقوى نفسها . إن هذه الكنيسة الحبيبة كانت دار بلديتهم ، يعقدون فيها اجتماعاتهم القروية تحت رئاسة الكاهن . وفى سجل الأبرشية ، وهو شاهد بقائهم صابرين متجلدين عبر الأجيال ، كانت تدون مواليدهم وزيجاتهم ووفياتهم . وكان صوت أجراس هذه الكنيسة أنبل موسيقى ترن فى آذانهم ، والاحتفالات هى المسرحية التى تشد انتباههم وتبعث فيهم النشاط ، وقصص القديسين ذخائر الأدب عندهم ، كانت أعياد تقويم الكنيسة هى العطلات المحببة إلى نفوسهم . ولم ينظر الناس إلى عظات راعى الأبرشية ونصائحه وتحذيراته أو إلى تعليمه وتربيته لأبنائهم ، على أنها تلقين مبادىء أسطورية لتدعيم لسطان الكنيسة ، بل نظروا إليها على أنها عون لا غنى عنه للنظام الأبوى والانضباط الخلقى ، وعلى أنه إيحاء بنظام إلهى يتجلى فيه معنى الخلود الذى خفف من أسلوب حياتهم الممل الجاف فى هذه الدنيا . فكانت العقيدة ثمينة أثيرة لديهم إلى حد الاستثارة إلى الفتك بمن يحاول انتزاعها منهم . ورحب الوالدان الفلاحان بالدين جزءا من الواجبات اليومية فى البيت ، ونقلا إلى أولادهما الأساطير الدينية ، وواظب الجميع على صلوات المساء والولدان على رأسهم . وكان اعى الأبرشية يحب الناس كما أحبوه ، فانضم إليهم فى الثورة .

وتناقص عدد الرهبان والراهبات واخوة الطوائف الدينية ، ولكن نمت فيهم روح الفضيلة(٢٦) كما نمت ثروتهم . ونادرا ما كانوا الآن يتسولون أو يعيشون على الصدقات لأنهم وجدوا من الحكمة ومن الخير لهم أن ينتزعوا الوصية بالتوريث من الذين يدنو أجلهم ثمناً بدلا من أن يستجدوا بعض البنسات فى القرية ، وفاضت بعض ثرواتهم على أعمال البر والاحسان ، فأنفق كثير من الأديار على المستشفيات والملاجىء ، ووزعت الطعام على الفقراء يوميا(٢٧) . وفى ١٧٨٩ ألحت جماعات كثيرة على حكومة الثورة ألا تقضى على الأديار المحلية لأنها كانت المنظمات البارة المحسنة الوحيدة فى

نطاق أراضيها . (٢٨) وأدت أديار الراهبات مهام كثيرة تؤدى الآن بطرق أخرى ، فكانت توفر مأوى للأرامل ، وللنساء اللائى افترقن عن أزواجهن ، وللسيدات المراهقات مثل مدام دى ديفان التى رغبت فى أن تنأى بنفسها عن صخب الدنيا . ولم تنكر الأديار متاع الحياة الدنيا وزينتها إنكاراً تاماً . فقد استخدمها الأثرياء مأوى لما زاد عن الحد من بناتهم ، وإلا فإن زواجهن إذا لم يلجأن إلى الأديار يتطلب مهوراً تنقص من ميراث الأبناء ، ولم يكن هؤلاء العذارى المنبوذات ميالات دائماً إلى التقشف . وكان للأم أوريني (رئيسة دير للراهبات) عربة تجرها أربعة جياد ، وكانت تستقبل فى جناحها الفاخر أفراداً من الجنسين . وكانت الراهبات فى ألكس يرتدين التنورات ذوات الأطواق الموسعة والأردية الحريرية المبطنة بالفرو ، وكن فى أديار أخرى يتناولن العشاء ويرقصن مع ضباط من المعسكرات المجاورة (٢٩) وواضح أن هذه كانت ضروباً من التسلية البريئة غير الآثمة ، فإن كثيراً من الأقاصيص التى رويت عن الفساد الخلقى فى الأديار فى القرن الثامن عشر كانت مبالغات شنيعة مثيرة استخدمت فى حرب الدعاية بين المذاهب المتنابذة ، وكانت الحالات التى لزم فيها البنات الدير على غير إرادتهن نادرة (٣٠) .

وكان اليسوعيون قد ضعف سلطانهم ومكانتهم . إنهم ظلوا حتى ١٧٩٢ يسيطرون على التعليم ، وكانوا يزودون الملك والملكة بكهنة اعتراف ذوى تأثير قوى ، ولكنهم عانوا من فصاحة بسكال ، ومن تشكك أوصياء العرش غير الأتقياء ، وكانوا يخسرون معركتهم الطويلة المريرة مع الجانسنيين فإن هؤلاء الكاثوليك المتعصبين لعقيدتهم عمروا بعد الاضطهادات الملكية والمراسيم البابوية ، وكان عددهم كبير فى مجال الأعمال والمهن والاشتغال بالقانون ، وكانوا يقتربون من الهيمنة على برلمان باريس وغيره من البرلمانات . وبعد موت زعيمهم اللاهوتى المتقشف فرانسوا دى باريس (١٧٢٧) حج الجانسنيون المتحمسون المغشى عليهم إلى جدته فى مقبرة سان ميدارد ، وهناك جلدوا أنفسهم بالسياط ، حتى أصاب بعضهم نوبات من

التشنج ، ومن سموا « بالمتشنجين » وتوجعوا وبكوا وابتهلوا إلى الله أن يمن عليهم بالشفاء ، وادعى كثير منهم أنهم برئوا بمعجزة . وبعد ثلاثة أعوام من هذه الأحداث أغلقت السلطات هذه المقابر ، وكما قال فولتير : حرم على الله بأمر من الملك أن يأتى بمعجزات هناك ، وانقطعت التشنجات ، ولكن الباريسيين السريعى التأثر مالوا إلى تصديق المعجزات ، وفى ١٧٣٣ ذكر أحد الصحفيين فى مبالغة ظاهرة أن مدينة باريس الطيبة جانسنية قلبا وقالباً [٣١] . وتحدياً للمرسوم الملكى الصادر فى ١٧٢٠ رفض صغار رجال الدين الامتثال للأمر البابوى الصادر فى ١٧١٣ الذى استنكر فيه البابا انوسنت الثالث عشر مائة مسألة ومسألة زعموا أن الجانسنيين آثاروها . وقضى رئيس أساقفة باريس بأن السر المقدس الأخير لا يجوز أن يقدم لأى فرد لم يكن قد اعترف لقسيس كان قد ارتضى الأمر البابوى . واسهم هذا النزاع فى إضعاف مركز الكنيسة المنقسمة أمام هجمات الفلاسفة .

وكان الهيجونوت وغيرهم من البروتستانت الفرنسيين لايزالون يعتبرون خارجين على القانون ، ولكن مجموعات صغيرة منهم كانت تجتمع سرا . واعتبر القانون أن زوجة البروتستانتى عاهرة وأن أبناءها غير شرعيين ، ليس لهم أن يرثوا أية أملاك . وفى عهد لويس الخامس عشر شنت عدة حملات للاضطهاد والتعذيب . وفى ١٧١٧ قبض على أربعة وسبعين فرنسيا يقيمون الشعائر البروتستانتية ، وأرسلوا للتجديف فى القواديس أو المراكب الشراعية وزج بزوجاتهم فى السجن ، وقضى مرسوم صدر فى ١٧٢٤ بعقوبة الإعدام على الوعاظ البروتستانت ، وبمصادرة أملاك كل من يشهد اجتماعات البروتستانت ، مع إرسال الرجال للتجديف فى السفن الشراعية . وحلق شعور النساء واعتقالهن مدى الحياة [٣٢] وفى عهد الكاردينال فليرى حدث شىء من التراخى فى تنفيذ هذا المرسوم . ولكن بعث من جديد بعد موته ، بناء على طلب الأساقفة الكاثوليك فى جنوب فرنسا [٣٣] . وفى ١٧٤٩ أمر برلمان بوردو بالتفريق بين ٤٦ زوجا وزوجة ، تم زوجهم وفق الطقوس البروتستانتية .

وكان من الجائز انتزاع الأطفال الذين يشتبه فى أن آباهم من البروتستانت ؛ لتربيتهم وتنشئتهم فى بيوت كاثوليكية . وإنا نسمع عن رجل ثرى من الهيجونوت أنفق ٢٠٠ ألف جنيه رشوة للموظفين الرسميين حتى يسمحوا له بالاحتفاظ بأبنائه . (٣٤) وفيما بين عامى ١٧٤٤ و ١٧٥٣ سجن نحو ٦٠٠ بروتستانتى ، وحكم على ٨٠٠ آخرين بعقوبات مختلفة (٣٥) . وفى ١٧٥٢ شنق فى مونبلييه الواعظ البروتستانتى بينز — البالغ من العمر ستة وعشرين عاما . وفى نفس العام ، أمر لويس الخامس عشر ، تحت تأثير مدام دى بمبادور ، بوضع حد لهذه الاضطهادات . (٣٦) وبعد ذلك استطاع البروتستانت فى باريس أو قريبا منها ، أن يتفادوا العقوبات ، على شرط حضور الصلوات الكاثوليكية مرة فى العام . (٣٧) .

وعلى الرغم من تعصب زعماء الكنيسة وانشغالهم بأمور الدنيا ورغبتهم فى السلطة والنفوذ ، فقد كان بين رجال الدين الفرنسيين مئات ممن امتازوا بالعلم الغزير والحياة التقية النقية . وبالإضافة إلى أولئك الأساقفة الذين بددوا فى باريس العشور التى جمعوها من الفلاحين ، كان هناك أساقفة آخرون اتسموا بالطهر والتقى قدر ما سمحت به المهام الادارية . فكان الكاردينال لويس أنطوان دى نواى رئيس أساقفة باريس رجلا ذكيا نبيلا . وكان الناس يحبون جان بابتست ماسيون أسقف كليرمونت على الرغم من عظاته الزاخرة بألوان العلم والمعرفة ، والتى كان فولتير يحب أن يستمع إليها وقت تناول الطعام ، لجمال أسلوبها على الأقل . أما جبرائيل دى كايلوس أسقف أوكسير فقد وهب كل ثروته للفقراء ، وباع طبقه الفضى ليطعم الجياع ؛ ثم اعتذر لمن التمسوا رفده بعد ذلك بقوله « يا أبنائى ، لم يبق لدى شىء أعطيكم إياه » (٣٨) . ولم يبرح الأسقف فونسوادى بلزونس مكانه وسط الطاعون الرهيب الذى اجتاح مرسيليا ١٧٢٠ ، حين هلك ثلث سكان المدينة ، وفر منها معظم الأطباء ورجال الحكم والقضاء . وفى هذا كتب ليمرنتى : « انظروا إلى بلزونس : وأنه أنفق كل ما يملك . لقد هلك كل الذين كانوا فى خدمته بسبب العدوى ، فسار على قدميه فقيرا بائسا فى الصباح إلى مواطن

التعاسة والشقاء ؛ كما كان يرى مساء وسط الأماكن التى اكتظ بها ولوثها أولئك الذين يعانون سكرات الموت ، ليطفئ ظمأهم ، ويواسيهم وكأنه صديق لهم ... وفى ساحة الموت هذه يأخذ بيد الأنفس التى لا معين لها . إن هذا المثل للذى ضربه هذا الأسقف الذى يبدو أنه محصن ضد أى أذى كان كفيلا بأن يدفع ..... كهنة الأبرشيات والقساوسة والطوائف الدينية إلى محاكاته فى شجاعته وبسالته ، فلا يتخلى أحد عن موقعه ، ولا يبالى أحد بما يلقى من عناء وتعب ولو ضحى بحياته . وهكذا أودى الوباء بستة وعشرين راهبا ، وبثمانية عشر من بين ستة وعشرين يسوعيا . واستدعى الكبوشيون أخوتهم من الأقاليم الأخرى ، فسارع هؤلاء إلى الاستشهاد فى خفة المسيحيين الأولين وابتهاجهم بمثل هذا العمل . وقضى الطاعون على ثلاثة وأربعين من بين خمسة وخمسين منهم . أما سلوك الرهبان الأوراتوريين (طائفة كاثولوكية) فكان أروع من هذا . فقد بذلوا غاية جهدهم [٣٩] .

ولنذكر ، ونحن نسجل الصراع المرير بين الدين والفلسفة ، ونشارك الفلاسفة مقتهم للرقابة الخانقة والخرافة الشائنة ، أنه كان هناك بين رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم الورع والتقى كما كان هناك الغنى والثراء ، بقدر سواء . كما كان هناك الاخلاص مع الفقر بين كهنة القرى ، أما الناس فقد تغلغل فيهم حب راسخ يتعذر المساس به أو النيل منه ، لعقيدة هيأت للزهو الهوى شيئا من الانضباط المنقذ من الضلال ، كما هيأت للأيام العصيبة الشاقة رؤيا وجد الناس فيها شيئا من السلوى والعزاء .

٣ ـ الطبقة الثالثة

١ ـ الفلاحون :

تساءل « الاقتصاد السياسى » الذى وصمه كارليل بأنه « العلم الكئيب » هل الفقراء فقراء ، لأنهم جهلة ، أم أنهم جهلة لأنهم فقراء . ويمكن أن نجيب عن هذا السؤال ، بالموازنة بين الاستقلال البهيج الذى يفاخر به الفلاح الفرنسى اليوم ، وحالته فى النصف الأول من القرن الثامن عشر .

وفى ١٧٢٣ كانت حال الفلاح آخذة فى التحسن بالمقارنة بالمستوى المنحط الذى هبطت به إليه حروب لويس الرابع عشر وابتزازاته . فإنه خضع للرسوم الاقطاعية ولعشور الكنيسة ، إلى جانب إنه امتلك نسبة متزايدة من أرض فرنسا ، كانت تتراوح بين ٢٠٪ فى نورماندى وبريتانى و ٥٠ ٪ فى لنجدوك وليموزين[٤٠] . ولكن متوسط حصة هؤلاء الملاك الصغار كان ضئيلا — من ثلاثة إلى خمسة أفدنة — إلى حد اضطروا معه إلى الاشتغال بأجر فى المزارع الأخرى ليعولوا أسراتهم . فإن معظم الأرض كانت ملكا للنبلاء أو رجال الدين أو الملك ، وكانوا يفلحها مستأجرون أو مزارعون نظير جزء من المحصول ، أو عمال مياومة تحت إشراف قهرمان أو وكيل مسئول . وكان المالك يتقاضى من المستأجر مالا وغلة وخدمات اما المزارعون فكانوا يعطون المالك نصف المحصول فى مقابل الأرض والآلات الزراعة والبذور .

وعلى الرغم من تزايد ملكية الفلاح ظلت هناك بقايا إقطاعية كثيرة ، فإن أقلية ضئيلة من الملاك قد لا تجاوز ٢ ٪ هى التى وضعت يدها على أراض معفاة من الرسوم الاقطاعية . وكل الفلاحين باستثناء مالكى هذه الأرض المعفاة ، كان مطلوبا منهم أن يعملوا للسيد الإقطاعى المحلى لعدة أيام فى السنة تكفى لحرث أرضه وبذرها ، وحصاد محصولها وتخزينه . وكانوا يدفعون له رسوما مقابل صيد السمك فى البحيرات أو الجداول المائية ومقابل رعى ماشيتهم فى الحقول ، مما يقع فى زمام أرضه . (فى فرانش كومتيه ، وأوفرن ، وبريتانى ، حتى قيام الثورة كانوا يدفعون له مبلغا من المال مقابل الاذن لهم بالزواج [٤١] . وكان لزاما عليهم أن يستخدموا طاحونه ومخبزه ومعصرة النبيذ أو الزيت التابعة له ، وليس غيرها . وأن يدفعوا له مالا فى كل مرة يستخدمون فيها شيئاً من هذه . كما نفذوه مالا عن كل مستوقد أقاموه وكل بئر حفروه وكل جسر عبروه فى نطاق أرضه (إن بعض أمثال هذه الضرائب موجود بيننا الآن فى أشكال متغيرة ، وتدفع للدولة) . وكانت القوانين تحرم على السيد ورفاقه الاضرار بمزروعات الفلاح

أو حيواناته عند الصيد ، ولكن هذه القوانين إأغفلت إغفالا إشديداً ، وكان محظورا على الفلاح أن يطلق النـار على حمائم السيد ، وهى تأكل محصوله(٤٢) وبناء على تقدير يتسم بالتحفظ بلغت الرسوم الاقطاعية جملتها نحو ١٤ ٪ من إنتاج الفلاح أو دخله ، وهناك تقديرات ترفع من هذه النسبة (٤٣) .

وفى بعض الأماكن بقى الرق بمعناه الحقيقى ، وقدر مؤرخ اقتصادى مشهور أن عدد الرقيق فى فرنسا فى القرن الثامن عشر لم يجاوز المليون (٤٤) ، ونقص عددهم ، ولكن فى ١٧٨٩ كان لا يزال فى فرنسا نحو ٣٠٠ ألف من الأرقاء (٤٥) ومثل هؤلاء الفلاحين كانوا مرتبطين بالأرض ولم يكونوا يستطيعون قانونا أن يهجروا أرضهم أو يبيعوها أو ينقلوها أو يغيروا محال اقامتهم دون موافقة سيدهم . فإذا ماتوا دون أبناء كانوا يعيشون معهم ، وعلى استعداد للنهوض بشئون المزرعة ، آلت المزرعة بكل معداتها إلى السيد .

وكان على الفلاح ، بعد دفع الرسوم الإقطاعية وعشور الكنيسة ، أن يجد مالا أو يبيع شيئاً من نتاجه أو ممتلكاته ليواجه الضرائب التى تفرضها عليه الدولة . ودفع الفلاح وحده ضريبة الأراضى ، وبالاضافة إلى ذلك دفع ضريبة الملح ، و ٥ ٪ من الدخل ضريبة الرأس عن كل فرد فى البيت . وبهذا كان يدفع فى الجملة ثلث دخله للمالك والكنيسة والدولة .(٤٦)وكان من سلطة جباة الضرائب أن يدخلوا أو يقتحموا كوخه . ليفتشوا عن المدخرات المخبأة ، ويستولوا على الأثاث تسديداً لمبلغ الضريبة المفروضة على الأسرة . وكما كان الفلاح ملزما بالعمل ودفع الرسوم لسيده ، فإنه بعد ١٧٣٣ كان ملزما بأن يعمل للدولة بدون أجر من ١٢ إلى ١٥ يوما فى السنة ، فى إقامة الجسور وبناء الطرق أو اصلاحها (أعمال السخرة) . وكان يعاقب بالسجن إذا قاوم أو توانى .

ومذ تصاعدت الضرائب بازدياد الدخل والتحسينات ، فإنه لم يكن ثمة ما يحفز الفلاحين على الابتكار والعمل والمغامرة . وظلت أساليب الزراعة

بدائية فى فرنسا ، إذا قورنت بالأساليب فى انجلترا المعاصرة . وكانت فرنسا تتبع نظام اراحة الأرض الذى يقضى بترك كل قطعة دون زراعة سنة فى كل ثلاث سنين ، على حين أدخلت انجلترا نظام الدورة الزراعية . وكانت الزراعة المكثفة غير معروفة تقريباً ، والمحاريت الحديدية نادرة الوجود . وكانت الحيوانات قليلة العدد فى المزرعة ، كما كان السماد قليلا . وكان متوسط الأرض المملوكة ضئيلا إلى حد لا يسمح باستخدام الآلات بشكل مجز .

وروع السائحون الإنجليز فى ذلك العصر لفقر الفلاح الفرنسى . ففى ١٧١٨ كتبت السيدة مارى مونتاجو : « فى كل محطة كنا نقف فيها لتبديل خيول البريد كان أهل البلدة جميعاً يخرجون إلينا يسألوننا إحسانا ، فى وجوه أضناها البؤس والجوع وملابس رثة ممزقة ، وما كانوا بعد ذلك فى حاجة إلى دليل أبلغ من ذلك لإقناعنا بتعاسة أحوالهم (٤٧) . ولم يرسم المراقبون الفرنسيون صورة أكثر إشراقاً من هذه إلا فى وقت متأخر من هذا القرن . وقال سان سيمون : « فى ١٨٢٥ كان الناس فى نورماندى يعيشون على حشائش الحقول . ان أول ملك فى أوربا عظيم لمجرد كونه ملك الشحاذين . وتحويله مملكته إلى مستشفى فسيح الأرجاء يقيم فيه أناس يعانون سكرات الموت . انتزع منهم كل شىء دون أن يدوا شيئاً من التذمر (٤٨) » . وفى ١٧٤٠ حسب المركيز رينيه لويس دى أرجنسون ، أن عدد الفرنسيين الذين ماتوا بسبب الفقر والعوز فى العامين الأخيرين أكبر من عدد من قتلوا فى حروب لويس الرابع عشر كلها (٤٩) » . وقال بسنارد : « كانت ملابس الفقراء من الفلاحين — وكانوا كلهم تقريباً فقراء — تدعو إلى الاشفاق والرثاء ، حيث لم يكن لدى الفرد منهم إلا ثوب واحد للصيف والشتاء معا . . . . أما الحذاء الوحيد (المرقع الواهى المثبت بالمسامير) الذى اقتناه عند زواجه ، فكان لزاما أن يستخدمه بقية أيام حياته ، أو على الأقل طيلة بقاء الحذاء (٥٠) » . وقدر فولتير أن مليونى فلاح فرنسى كانوا يستخدمون نعالا خشبية فى الشتاء ، وكانوا يسيرون حفاة الأقدام فى الصيف ، لأن

الضرائب الباهظة المفروضة على الجلود جعلت الأحذية ضربا من الترف[٥١] أما مسكن الفلاح فكان يبنى من الطين مع سقف من القش ، وكان عادة يتكون من غرفة واحدة ، منخفضة لا سقف لها فى بعض الأجزاء فى شمال فرنسا ، على أن الأكواخ كانت تبنى بطريقة أقوى حتى تحتمل البرد والرياح فى الشتاء » . وكان طعام الفلاح يتألف من الحساء والبيض ومنتجات الألبان وخبز الشعير أو الشوفان . أما اللحم وخبز القمح فكان أكلهما إسرافاً طاوئاً [٥٢] . ففى فرنسا ، كما هو الحال فى أى مكان آخر ، كان أولئك الذين يطعمون الأمة لا يملكون من الغذاء إلا أقله .

ووجد الفلاح بعض العزاء والسلوى من هذه الحياة الشاقة فى الخمر والدين . وكانت الحانات كثيرة وصنع الجعة فى الدار مشجعاً . وكانت الأخلاق خشنة جافة ، طابعها الوحشية . وكثيراً ما تفجرت أعمال العنف بين الأفراد والأسرات والقرى . ولكن سادت الأسرة عاطفة حب قوية ، ولو أنها صامتة ، وكان الأبناء كثيرين ، ولكن اختطفت يد المنون معظمهم قبل أن يبلغوا رشدهم . وكاد ألا يكون هناك زيادة فى سكان فرنسا فيما بين عامى ١٧١٥ و ١٧٤٠ . فقد أحدثت الحرب والمرض والقحط أثرها بانتظام وفق ما جاء فى نظرية مالتس .

٢ — البروليتاريا العمال الكادحون .

وكان خدم المنازل أدنى مكانة من الفلاحين فى السلم الاجتماعى ، وكانوا فقراء إلى حد لم يهيىء إلا لقليل منهم أن يتزوجوا . وكانت طبقة البروليتاريا فى المدن أعلى قليلا من الفلاحين ، وكانت تشكل الحرفيين فى الحوانيت والمصانع وحمالى البضائع ومتعهدى الخدمات وعمال البناء أو الترميم . وكان معظم الصناعة لا يزال منزليا أو محليا يقوم فى أكواخ ريفية أو فى الدور فى المدن الصغيرة . وكان التجار يقدمون المواد الخام ، ويجمعون الإنتاج ، ويستولون على كل الربح تقريباً . وكانت الصناعة فى المدن إلى حد كبير فى الطور النقابى (نظام نقابات العمال وطوائفهم فى العصور الوسطى) ، فكان هناك المعلمون والغلمان الذين يتدربون ، وعمال المياومة المهرة ،

يعملون جميعا وفقاً للقواعد القديمة التى حددت النقابة والحكومة بمقتضاها ساعات العمل وشروطه ، وطرز الإنتاج ونوعيته وسعره والمنطقة المحدودة المسموح فيها بالبيع . إن هذه التنظيمات والقواعد جعلت من التحسينات أمرا عسيرا ، واستبعدت حافز المنافسة الخارجية ، وأسهمت مع رسوم التجارة الداخلية فى تعويق التنمية الصناعية . وكانت النقابات قد أصبحت أرستقراطية عمالية ، وارتفعت الرسوم على القبول فى سلك المعلمين الصناعيين إلى ألفى جنيه ، واتجهت هذه المهنة إلى أن تكون وراثية . [٥٣] وكان العمل فى الحوانيت يبدأ مبكرا وينتهى متأخرا . وكان عامل المياومة حول فرساى يبدأ عمله فى الرابعة صباحا وينتهى منه فى الثامنة مساء . [٥٤] ولكن العمل كان أقل اجهادا منه فى المصانع اليوم ، كما أن أعياد الكنيسة هيأت أيام عطلة كثيرة .

وكانت الصناعة فى معظمها « صغيرة » تستخدم ثلاثا أو أربعا من « الأيدى العاملة » من خارج الأسرة . بل أن المدابغ ومصانع الزجاج والمصابغ كانت مؤسسات صغيرة . وكان عدد العمال فى بوردو لايتجاوز أربعة أمثال أصحاب العمل . واحتفظت الحكومة على أية حال ببعض مصانع كبيرة — مصانع الصابون ، ومصانع نسيج الجوبلان (المزدان بالرسوم) ومصانع الخزف الصينى فى سيفر . وأخذت عملية التعدين فى التوسع بعد أن حل الفحم محل الخشب فى الوقود . وثارت الاحتجاجات على دخان الفحم الذى يلوث الهواء ، ولكن الصناعة آنذاك ، كما هو الحال اليوم ، مضت تشق طريقها ، وتعرضت صحة الناس فى باريس ، وفى لندن على حد سواء ، للخطر نتيجة لتنفس هذا الهواء الملوث . وكانت هناك مصانع للصلب فى دوفينى ، ومصانع للورق فى أنجوموا . وتوسعت مصانع النسيج توسعا ملحوظا فى الشمال ، فاستخدم فان روبيه ١٥٠٠ عامل فى مصنع واحد فى آبفيل واستخدم فان دركروسن ثلاثة آلاف رجل فى ليل [٥٥] . وشجع ازدياد العمال هذا على تقسيم العمل والتخصص فيه ، وحفز على اختراع الآلات للعمليات المكررة على نسق واحد (الروتينية) وتضمنت دائرة

معارف ديدرو (١٧٥١ وما بعدها) أوصافا ورسوماً مدهشة لآلات متنوعة معقدة أدخلت بالفعل فى الصناعة فى فرنسا ، يندر أن تكون قد نالت استحساناً أو ترحيباً من البروليتاريا . وحين أقيم نول جاكار (لحياكة الأقمشة المصورة) فى ليون ، عمد عمال نسج الحرير إلى تهشيمه ، خشية أن يلقى بهم فى عرض الطريق بلا عمل (٥٦) .

ورغبة فى تشجيع الصناعات الجديدة فإن حكومة فرنسا – كما فعلت حكومة انجلترا فى عصر البزابث – منحت عدة احتكارات ، مثال ذلك أنها منحت أسرة فإن روبية احتكار انتاج الأقمشة الهولندية الرفيعة ، كما ساعدت مشروعات أخرى بمعونات وقروض دون فوائد . وفرضت الحكومة على كل الصناعة تنظيما صارما موروثا عن كولبير . وأثار هذا الأسلوب اعتراضا متزايدا من جانب أصحاب المصانع والتجار الذين دفعوا بأن الاقتصاد ينمو ويزدهر إذا تحرر من تدخل الحكومة ، وترديدا لهذا المطلب ، قال فنسنت دى جورناى (حوالى ١٧٥٥) عبارته التاريخية اتركه وحده « اتركه يعمل » التى عبرت فى الجيل التالى ، على لسان فرنسوا كنى وترجو ، عن المذهب الفيزيوقراطى الذى نادى بحرية العمل والتجارة .

واستاء الحرفيون أيضا من هذه القواعد والتعليمات التى وقفت حجر عثرة فى سبيل تنظيمهم من أجل ظروف عمل وأجور أفضل . ولكن أهم ما هاج حفيظتهم هو أن عمال الريف والمصانع كانوا ينتزعون السوق من أيدى النقابات . فما وافى عام ١٧٥٦ حتى كان أصحاب المصانع قد هبطوا بالحرفيين فى المدن الكبرى – حتى بالمعملين النقابيين – إلى مستوى الإجراء الذين يعتمدون فى عملهم على المقاولين أو الملتزمين . (٥٧) وفى نطاق النقابات أجرى المعلمون – تخفيضا فى أجور عمال المياومة الذين عمدوا إلى الاضراب على نحو دورى . وكان الفقر فى القرى شديدا مثلما هو فى المدن تقريبا . ووصل نقص المحاصيل بالطبقة الكادحة ، البروليتاريا ، فى المدن إلى حد المجاعة والشغب كل بضع سنين ، كما حدث فى ترلوز ١٧٤٧ ، وفى باريس

١٧٥١ ، وفى تولوز ١٧٥٢ [٥٨] وكان القسيس الملحد جان مزلييه قد اقترح بالفعل ، حوالى ١٧٤٩ استبدال شيوعية قائمة على الحرية بالنظام القائم[٥٩].

وفى أواسط القرن كانت باريس وروان وليل وليون وبوردو ومرسيليا تعج بالبروليتاريا . وتفوقت ليون بوصفها مركزا صناعيا لبعض الوقت على باريس . وقد وصفها الشاعر الانجليزى توماس جراى فى ١٧٣٩ بأنها « ثانية مدن المملكة من حيث الاتساع والمكانة . وشوارعها بالغة الضيق والقذارة ، ودورها بالغة الإرتفاع والاتساع (تتكون الدار من خمسة طوابق فى كل طابق ٢٥ غرفة) ، مكتظة بالسكان » . [٦٠] وكانت باريس خلية هائجة ، يقطنها ٨٠٠ ألف منهم ١٠٠ ألف خادم ، و٢٠ ألف متسول، وفيها الأكواخ الكئيبة والقصور الفخمة،والأزقة والحارات المظلمة والشوارع القذرة وراء المتنزهات الأنيقة ، وفيها الفن إلى جانب الأملاق والفقر المدقع . وسارت فيها المركبات الكبيرة والمركبات العامة ذات الجواد الواحد والمحفات يصطدم بعضها ببعض مع تبادل السباب والشتائم ، واختناق شديد فى حركة المرور . وكانت بعض الشوارع قدر صفت منذ ١٦٩٠ . وفى عام ١٧٤٢ رصف تريساكيه الطرق بأحجار ملساء ، ولكن معظم الشوارع كانت قذرة تماما، مملوءة بالحصى الكبير الذى يصلح لإقامة المتاريس فى أثناء الثورات . وبدأت مصابيح الشوارع تحل محل الفوانيس فى ١٧٤٥ ولكنها لم تكن تضاء إلا إذا لم يكن القمر بدرا . وظهرت لافتات أسماء الشوارع فى ١٧٢٨ . ولكن لم توضع للبيوت أرقام قبل الثورة . وكان للأغنياء وحدهم صنابير ماء فى بيوتهم ، أما سائر الناس فكان يزودهم بالماء عشرون ألف سقاء يحمل الواحد منهم دلوين يصعد بهما أحيانا سبع مجموعات من درجات السلم . أما المراحيض فى المنازل والحمامات المزودة بالماء الجارى الساخن والبارد، فكانت امتيازا لكبار الأثرياء . وظلت آف الحوانيت ، المشهورة بشعاراتها الرائعة المثيرة ، على حالتها من الفوضى فى الموازين والمقاييس المتضاربة والمشتبه فيها ، إلى أن وضعت الثورة النظام المترى (العشرى) . وكان هناك أصحاب حوانيت أمناء فى « متاجر الثقة » ، ولكن الغالبية

اشتهرت بالتطفيف فى المقاييس والتلاعب فى الأسعار ورداءة أنواع السلع.[٦١] وكان بعض الحوانيت ينتحل عظمة زائفة خداعة لأن أصابها كانوا يستقلون العربات . وكان الفقراء من الناس يعتمدون فى شراء حاجياتهم أساسا على الباعة المتجولين الذين حملوا بضاعتهم جاهدين فى دلاء أو سلال على ظهورهم،والذين أسهموا فى موسيقى الشوارع بصيحاتهم ونداءاتهم التقليدية غير المفهومة التى يدعون بها الناس إلى الشراء ، من « البطاطس المطبوخة» إلى الموت للفئران » فقد نازعت الفيران الناس على تيسيرات السكنى فى المدينة ، وزاحم الرجال والنساء والأطفال الفيران فى مسابقة الحصول على الطعام . قال رجل فارسى كان فى زيارة مونتسكيو » : « البيوت مرتفعة إلى حد يظن معه أنه لا يقطنها إلا منجمون . ولك أن تتخيل مدينة بنيت فى الهواء ، فيها أقيمت ستة أو سبعة منازل الواحد منها فوق الآخر وهى مزدحمة بالسكان ، حتى إذا نزلوا جميعا إلى الشارع ، رأيت هناك حشدا رائعا . لقد بقيت هنا شهرا ، لم يقع نظرى فيه على شخص واحد يسير بخطى وئيدة . وليس فى العالم كله مثل الرجل الفرنسى وهو يجتاز الطريق ، إنه يعدو أو يطير . [٦٢] أضف إلى ذلك المتسولين والمتشردين والنشالين والمغنين فى الشوارع والنافخين فى الأرغن والدجالين بائعى الأدوية الزائفة . وجملة القول أنهم شعب تشيع فيه مائة من أخطاء البشر ، لا يوثق به إطلاقا ، متلهف على الكسب ، مسرف فى الدنس والتجديف بكل معنى الكلمة . ولكنه إذا أوتى اليسير من الطعام والنبيذ فهو ألطف شعوب العالم وأكرمها وأكثرها مرحا وابتهاجا .

٣ — البرجوازية :

وفيما بين الطبقتين الدنيا والعليا قامت الطبقة الوسطى . تضمر لها أولاهما البغض والكراهية،وتزدريها الثانية ، وكانت تضم الأطباء والأساتذة ورجال الادارة وأصحاب المصانع والتجار ورجال المال ، وهى طبقة شقت طريقها إلى الثروة والنفوذ والسلطة فى حذق ومهارة وصبر وجلد .

وقام أرباب المصانع بمغامرات اقتصادية وتطلبوا من أجلها عائدا وفاقا . وشكوا من أنهم يتعرضون لمائة من المضايقات التى تسببها لهم تعليمات الحكومة ورقابة النقابات على السوق والعمال المهرة ، واغتاظ التجار الذين يوزعون المنتجات من فرض ألف من المكوس والرسوم التى تعوق حركة البضائع ، ذلك أنه عند كل نهر أو قناة أو مفترق طرق كان هناك وكيل عن النبيل أو رجل النيسة مالك الأرض ، ليتقاضى رسما على الترخيص بمرور البضائع . وأوضح السيد المالك أن هذه المكوس إنما هى تعويض معقول له عما ينفق فى صيانة الطرق والجسور والمعابر وإصلاحها لتبقى صالحة للاستعمال . وألغى مرسوم ملكى صادر فى عام ١٧٧٤ ألفا ومائتين من هذه المكوس ، ولكن بقيت بعد ذلك منها مئات لعبت دورا فى كسب البورجوارية إلى جانب الثورة وتأييدها لها .

أما التجارة الفرنسية التى كانت معوقة فى الداخل فقد انتشرت واتسعت فيما وراء البحار . وسيطرت مرسيليا ، وكانت ميناء حرة ، على تجارة أوربا مع تركيا والشرق . ومدت شركة الهند التى أعيد تأسيسها ١٧٤٣ ؛ أسواقها ونفوذها السياسى فى البحر الكاريبى ووادى الميسيبى وأجزاء من الهند . ورفعت بوردو ، وهى ، المنفذ الرئيسى لتجارة الأطلنطى ، تجارتها البحرية من أربعين مليونا من الجنيهات فى عام ١٧٢٤ إلى ٢٥٠ مليونا فى ١٧٤٨ . وأبحر أكثر من ٣٠٠ سفينة سنويا من بوردو ونانت إلى أمريكا ، يحمل معظمها العبيد ليعملوا فى مزارع قصب السكر فى جزر الأنتيل ولويزيانا[٦٣] . وفاقت نسبة المبيعات من السكر المنتج من أمريكا الفرنسية مثيلتها من السكر الإنجليزى المنتج فى جمايكا وباربادوس فى الأسواق الأوربية ، [٦٤] وربما كان هذا من أسباب حرب السنين السبع ، وارتفعت جملة تجارة فرنسا الخارجية من ٢١٥ مليونا من الجنيهات فى ١٧١٥ إلى ٦٠٠ مليون فى ١٧٥٠ . [٦٥] وقدر فولتير أن عدد السفن التجارية التى استخدمتها فرنسا زاد من ٣٠٠ سفينة فى ١٧١٥ إلى ٨٠٠ فى ١٧٣٨ . [٦٦]

وكانت الأرباح المتزايدة من التجارة البحرية الدافع الأساسى لغـزو

المستعمرات . وكانت حماسة التجار والمبشرين الفرنسيين قد كسبت لفرنسا معظم كندا وحوض الميسيسبي وبعض الجزر فى البحر الكاريبي . وتحدت إنجلترا هذه الممتلكات الفرنسية على اعتبار أنها تضيق الخناق على مستعمراتها فى أمريكا وتعرضها للخطر . والحرب هى التى يمكن أن تحسم هذه القضية ، ودب الخلاف بين إنجلترا وفرنسا فى الهند بسبب منافسة مماثلة . وكان الفرنسيون فى ١٦٨٣ قد وطدوا مركزهم فى بوندشيرى على الساحل الشرقى جنوبى مدراس ، وفى ١٦٨٨ حصلوا من امبراطور المغول على حق السيطرة الكاملة على شاندرناجور شمالى كلكتا . وفى ظل القيادة النشيطة اليقظة لجوزيف دوبليكس ، استولى هذان الثغران على كثير من التجارة والثروة إلى حد أحست معه شركة الهند الشرقية الانجليزية ، التى كانت قد أقامت لها مراكز فى مدراس (١٦٣٩) وبمباى (١٦٦٨) وكلكتا (١٦٨٦) — أنها مضطرة إلى خوض الحرب مع الفرنسيين من أجل مملكة المغول التى تتمزق أوصالها .

ولما رأت إنجلترا وفرنسا أنهما على طرفى نقيض فى حرب الوراثة النمسوية (١٧٤٤) فان ماهى دى لابوردونيه — الذى كان قد ضرب رقما قياسيا فى الاقدام والمغامرة فى إدارة جزر موريشيوس وبوربون الفرنسية فى المحيط الهندى — عرض على حكومة فرساى خطة « للقضاء على التجارة وعلى المستعمرات الانجليزية فى الهند » . [٦٧] وهاجم مدراس بأسطول فرنسى ، بموافقة دوبليكس الحسود ، وسرعان ما أرغم المدينة على الاستسلام (١٧٤٦) وتحت مسئوليته الخاصة وقع مع السلطات الانجليزية اتفاقية تقضى بإعادة مدراس إليهم لقاء تعويض قدره ٤٢٠ ألف جنيه . ورفض دوبليه التصديق على الاتفاقية ، ولكن لابوردونيه أصر فى عناد ، وأبحر على سفينة هولندية إلى أوربا : وأسرته سفينة إنجليزية ، وأطلق سراحه تحت وعد شرف ، ودخل باريس فزج به فى الباستيل بتهمة التمرد والخيانة ، وطلب المحاكمة ، وبعد عامين قضاهما فى السجن حوكم وقضى له بالبراءة (١٧٥١) وتوفى ١٧٥٣ . وفى تلك الأثناء حاصر أسطول إنجليزى قوى بوندشيرى (أغسطس

١٧٤٨) فدافع عنها دوبليكس دفاعا مجيدا حتى رفع الحصار عنها (إكتوبر) . وبعد ذلك بسبعة أيام وصلت الأنباء إلى الهند بأن معاهدة إكس لا شابل أعادت مدراس إلى إنجلترا . ذلك أن الحكومة الفرنسية أدركت أنه مقضى عليها بالهزيمة فى الهند بسبب ضعف قواتها البحرية ، فرفضت أن تدعم مشروعات دوبليكس فى الغزو والفتح ، وأرسلت إليه قوات واعتمادات هزيلة ، وأخيرا استدعته إلى فرنسا (١٧٥٤) . وامتد به الأجل حتى رأى الإنجليز يوقعون بالفرنسيون هزيمة منكرة فى الطور الهندى من حرب السنين للسبع .

وكان « رجال المال » فى قمة الطبقة الثالثة وكانوا من مقرضى النقود على نطاق ضيق ، من الطراز العتيق المحافظ ، أو من أصحاب المصارف بكل معنى الكلمة ، الذين يتعاملون فى الودائع والقروض والاستثمارات ، أو من « ملتزمى الضرائب » الذين يعملون للدولة باعتبارهم « وكلاء الدخل » . وكانت القيود التى فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على تقاضى فوائد الأموال قد ضعف أثرها أو أصبحت غير ذات موضوع تقريباً ، فى تلك الأيام . ورأى جون لو أن نصف فرنسا متلهف على الاتجار فى الأسهم والسندات، وافتتحت باريس سوق الأوراق المالية (البورصة) فيها سنة ١٧٢٤ .

وكان بعض (رجال المال) أغنى من معظم النبلاء . فكان باريس مونتمارتل يمتلك مائة مليون جنيه ، ولينورمان دى تورنهيم عشرين مليونا ، وصمويل برنارد ٣٣ مليونا [٦٨] . وزوج برنارد بناته من أزواج أرستقراطيين حيث دفع لكل منهن مهراً قدره ٨٠٠ ألف جنيه [٦٩]. وكان سيداً مهذباً محبا لوطنه . وفى ١٧١٥ حدد بنفسه الضرائب المستحقة على ممتلكاته بمبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ، ومن ثم كشف عن ثروة كان يمكن أن يخفيها جزئياً [٧٠] . وعندما قضى نحبه (١٧٣٩) ، أماط فحص حساباته اللثام عن المدى الواسع لصدقاته الخفية [٧١] . أما الإخوة الأربعة الذين حملوا لقب « باريس » فقد طوروا مؤسستهم المصرفية إلى سلطة سياسية . وتعلم منهم فولتير كثيرا من براعته المالية ، فأذهل أوربا لكونه فيلسوفا و « مليونيرا » فى وقت معا .

وكان « الملتزمون العامون » أبغض رجال المال في فرنسا فى القرن الثامن عشر . وكان نظام « الملتزم العام » قد أدخل فى ١٦٩٧ لجمع الضرائب غير المباشرة ـ أساساً الضرائب على الإعانات والتسجيلات والطلبات والملح والتبغ ـ ولكى تنفق الحكومة هذه الإيرادات قبل جمعها ألزمت بها شخصاً يدفع لها المبلغ المتعاقد عليه ، مقابل حق جبايتها على مدى ست سنوات . وانعكس ازدياد الضرائب والثروة والتضخم فى ارتفاع ثمن هـذا العقد الرابح : ٨٠ مليونا ١٧٢٦ ، ٩٢ مليونا ١٧٤٤ ، ١٥٢ مليونا ١٧٧٤ . ولم تقع أية حكومة يوما فى حيرة جرياً وراء الطرق التى تنفق بها أموال شعبها وفوضت للمتعاقد مهمة جمع الضرائب بالتعاقد إلى أربعين « ملتزماً عاماً » أو أكثر ، دفع كل منهم مليوناً من الجنيهات أو أكثر ضماناً مقدماً ، ولعق أصابعه كلما مرت بها الإيرادات ، وهكذا ، فيما بين عامى ١٧٢٦ - ١٧٣٠ جاوزت أرباح الملتزمين العامين الأربعين ١٥٦ مليوناً من الجنيهات (٧٣) وابتاع كثير من أمثال هؤلاء الجباة الضياع والألقاب وشادوا القصور الفخمة وعاشوا حياة غاية فى البذخ والترف ، مما أثار حنق الأرستقراطية ورجال الكنيسة . وجمع بعضهم روائع الفن وأحاطوا أنفسهم بالفنانين والشعراء والخليلات ، وفتحوا أبواب بيوتهم مأوى أو منتدى للصفوة من أهل الفكر وكان « ألطف الفلاسفة » هلفشيوس ، واحـداً من أكرم « الملتزمين العامين » . وقضى روسو فترة طويلة فى ضيافة مدام دى ابيناى زوجة أحد الملتزمين . واستمتع رامو وفانلو بكرم الضيافة لدى الاسكندر دى لابوبلنيير الذى اشتهر من بين رجال المال بأنه يمثل ميسيناس (رجل الدولة الرومانى من رعاة الأدب صديق هوراس وفرجيل فى القرن الأول ق .م) وثار كبار أفراد البورجوازية المتلهفون على الاعتراف بمكانتهم الاجتماعية ، لأنفسهم من استهجان الكنيسة واحتقار النبلاء لهم ، بمناصرة الفلاسفة ضد الكنيسة ، ثم ضد النبلاء فيما بعد ، وربما كان رجال المال هم الذين أمدوا الثورة بالمال .

٤ ـــ الحكومة :

كانت الطبقات الوسطى آنذاك أكثر فعالية وقوة فى الدولة ، لأنها شغلت كل المناصب ، فيما عدا مناصب الوزارة التى كانت تتطلب عبير شجرة الأسرة أو عراقة الحسب والنسب ، وكان أفرادها يشكلون البيروقراطية وصقلت مواهبهم بالانتقاء الطبيعى فى ميدان الاقتصاد ، وأثبتوا أنهم أمهر وأقدر من النبلاء سليلى الأسرات الواهنين الخاملين الذين ليس لهم ما يحفزهم على الجد والعمل . وفى الحق أن نبلاء الرداء فى البرلمانات والحكام كانوا ينتسبون إلى البرجوازية من حيث الأصل والخلق . وتولت الطبقة الوسطى شئون الكوميونات والأربعين مقاطعة ، وإدارات الحرب والتموين والمواصلات والمناجم والطرق والشوارع والجسور والأنهار والقنوات والثغور . وكان قواد الجيش من النبلاء ، ولكنهم قاموا بحملات خططها لهم فى باريس رجال من الطبقة الوسطى ، بارعون فى تخطيط الحرب [٧٣] . إن نمط البرجوازية الفرنسية فى القرن التاسع عشر كان قد سبق تشكيله فى القرن الثامن عشر .

وكان المعترف به بصفة عامة أن الإدارة فى فرنسا كانت أحسن إدارة فى أوربا ، ولكن كانت تشوبها عيوب قتالة : كانت مركزية متغلغلة ، مفصلة إلى حد أنها عوقت الابتكار والمبادرة والحيوية المحلية ، وضيعت كثيراً من الوقت فى نقل الأوامر والتقارير . وبالمقارنة بانجلترا كانت فرنسا استبدادية مطلقة خانقة . فلم يكن مسموحاً بالاجتماعات العامة ، ولم يؤخذ بالاقتراع الشعبى إلا فى المسائل المحلية التافهة ، ولم يقف أى برلمان فى وجه الملك . وحسن لويس الخامس عشر الحكومة بإهمالها ، ولكنه فوض إلى وزرائه سلطات ملكية مثل إصدار أوامر القبض أو الرسائل المختومة ، وغالباً ما أسيء استخدام هذه السلطة . حقاً إن مثل هذه « الرسائل السرية » ، أفلحت أحياناً فى تسيير شئون الحكومة بسرعة عن طريق تجنب التفاصيل الفنية فى الإجراءات الإدارية « الروتين الحكومى » . وبإحدى هذه الرسائل أسس لويس الرابع عشر « الكوميدى فرانسيز » فى عام ١٦٨٠ . وأنقذت بعض الرسائل سمعة إحدى الأسرات ، بالزج بوغد لئيم فى السجن دون

بطاء ودون محاكمة علنية ربما كانت تكشف عن كوارث خاصة . كما أن بعض هذه الرسائل ؛ كما حدث عند اعتقال فولتير وسجنه للمرة الثانية ، حال بين أحد الحمقى الذين يمكن الصفح عنهم ، وبين إتمام حماقته . وفى حالات كثيرة صدرت الرسائل بناء على طلب والد يائس (مثل ميرابو الأكبر) من تقويم اعوجاج ابن جامح . وفى مثل هذه الحالات كان السجن خفيفا قصير الأمد . ولكن كانت هناك حالات كثيرة من القسوة الصارخة ، ومن أمثلتها احتجاز الشاعر ديفورج لمدة ست سنوات (١٧٥٠ – ١٧٥٦) فى حجرة من حديد لأنه استنكر تصرف الحكومة فى نفى شارل ادوارد ستيوارت حفيد جيمس الثانى من فرنسا (وكانوا يسمونه المطالب الصغير بالعرش). [٧٤] وإذا كان لنا أن نصدق رواية الكاتب الألمانى ولهلم جريم ، وهو دقيق بصفة عامة ، فإن الحكومة قدرت أعظم التقدير انتصارات موريس دى ساكس فى المعارك إلى حد أنها أرسلت إلى الشاعر شارل فافار أمرا سريا ليضم زوجته إلى قائمة خليلات دى ساكس . [٧٥] إن أية إساءة إلى أحد النبلاء من رجل عادى ، أو أى نقد شديد يوجه إلى الحكومة ، كان من شأنه أن يؤدى إلى صدور رسالة سرية مختومة تتضمن أمرا بالقبض والزج فى السجن دون محاكمة أو قضية مبينة . ومثل هذه الأوامر التعسفية أثارت استياءا متزايدا على مر السنين فى هذا القرن الثامن عشر .

وعوق القانون الفرنسى مع تقدم الإدارة الفرنسية ، وكان يختلف من مقاطعة إلى مقاطعة مما أعاد إلى الأذهان انفراد المقاطعات بعضها عن بعض باستقلالها الذاتى ، فى سالف الأيام . وكان فى مختلف أقاليم فرنسا ٣٥٠ هيئة قانونية متباينة . وكان كولبير قد قام بمحاولة غير موفقة فى تنظيم القانون الفرنسى وتحديده فى « قانون العقوبات » الذى صدر فى ١٦٧٠ ولكن قانونه خلط بشكل مضطرب بين تشريع العصور الوسطى والحديثة ، والتشريع الألمانى والرومانى ، والتشريع الكنسى والمدنى . وكان الملك يسن القوانين الجديدة وفقاً لمتطلبات الساعة ، وعادة بناء على إلحاح وزرائه مع التسرع فى التحقق من إنسياقها مع القوانين القائمة . وكان من العسير على المواطن أن يتبين أى القوانين سارى المفعول فى محل إقامته أو فى قضيته .

وتولت « الشرطة الراكبة » تنفيذ قانون العقوبات فى الأقاليم ، أما فى المدن الكبيرة فكان يتولاه « شرطة البلدية » ، التى نظمها ودربها أحسن تدريب وتنظيم فى باريس ، مارك رينيه دى فوابيه دى آرجنسون ، الذى لم ينجب أبناء لامعين فحسب ، بل إنه كذلك بوصفه قائد الشرطة من ١٦٩٧ إلى ١٧١٨ ، اكتسب لقب « اللعين » ، لأنه كان يبدو وكأنه شيطان ، إنه كان على أية حال مصدر رعب وفزع لمجرمى باريس ، لأنه كان يعرف أوكارهم وأساليبهم ، ومع ذلك كان (كما يؤكد لنا سان سيمون) « يتسم بالروح الإنسانية »(٧٦) – عطوفا على البؤساء .

وكان الشخص المقبوض عليه يسجن قبل محاكمته ، ويعامل معاملة لا تكاد تختلف عن معاملته وهو مذنب محكوم عليه بالعقوبة . وقد يقضى – مثل جين كالاس – شهورا فى السلاسل والأغلال والتعذيب العقلى ، معرضاً للمرض فى كل يوم بين الأقذار . وإذا حاول الهرب تصادر ممتلكاته ، وإذا اتهم بجريمة كبرى لا يسمح له بالإتصال بمحام . ولم يكن هناك حق التحقيق فى قانونية أمر الاعتقال (هابياس كوربس) ، أو حق المحاكمة عن طريق المحلفين . وكان الشهود يسألون سراً ، كل على حدة . وإذا اعتقد القاضى بأن المتهم مذنب ، ولكن ليس هناك أدلة كافية لإدانته ، كان له سلطة تعذيبه لينتزع منه اعترافاً . وقل حدوث مثل هذا التعذيب القضائى وخفت حدته على عهد لويس الخامس عشر ، ولكنه ظل جزءاً من الإجراءات القانونية فى فرنسا حتى ١٧٨٠ .

وتراوحت العقوبات من الغرامات إلى تمزيق الأوصال . وكانت الشهرة مفضلة فى عقاب عدم الأمانة فى العمل . وكان اللصوص وصغار المجرمين يجلدون بالسياط ، وهم يجرون مربوطين فى ذيل عربة فى الشوارع . وكان يمكن أن يكون الإعدام عقوبة الخدم إذا اقترفوا السرقة ، ولكن مخدوميهم نادراً ما تمسكوا بتنفيذ هذا القانون . وفى ١٧٤٨ أبطل بصفة رسمية الحكم بالتجديف فى السفن الشراعية الكبيرة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لمجموعة كبيرة متباينة من الجرائم منها السحر والشعوذة والتجديف على الله

وسفاح ذوى القربى واللواط والعلاقة الجنسية بين إنسان وحيوان . ولم يعودوا يلجأون إلى قطع العنق أو شد المجرم إلى خازوق لإحراقه . ولكن كان يمكن أن يزيدوا من روعة تنفيذ الحكم « بسحب المحكوم عليه وتمزيق أوصاله إلى أربعة أجزاء » أو تحطيم أطرافه بقضيب حديدى وهو مربوط إلى « دولاب » التعذيب . وروى « أن الناس ، وبخاصة فى باريس ، كانوا دائماً يتطلعون فى ابتهاج وسرور إلى تنفيذ حكم الإعدام (٧٧) » .

وكان النظام القضائى معقداً مثل القانون تقريباً . وكان فى الريف آلاف المحاكم الإقطاعية التى تطبق القانون المحلى ، ويرأسها قضاة يعينهم السادة الملاك ، وكان يمكن لهذه المحاكم أن تنظر فى القضايا الصغيرة فقط . وليس لها أن تفرض من العقوبات إلا الغرامة البسيطة ، وكانت أحكامها عرضة للاستئناف ، ولكن الفلاح وجد أن من العسير عليه ، ومما يكلفه نفقة باهظة أن يكسب قضية ضد السيد المالك . وعلاوة على محاكم السادة الملاك هذه كانت هناك محاكم محلية ، وكان فى كثير من المدن محاكم خاصة بالكوميونات وفوق كل هذه المحاكم الدنيا كانت هناك المحاكم الإقليمية التى تطبق القانون الملكى ، وللملك أن يعين محاكم خاصة لأغراض خاصة . وكانت الكنيسة تحاكم رجالها بمقتضى قانونها الكنسى الخاص بها فى محاكم كنسية . وكان المحامون يحتشدون فى مختلف المحاكم وفيما حولها ، مستفيدين من ولع الفرنسيين بالتقاضى . وكان فى المدن الكبرى الثلاث عشرة برلمانات تتألف من قضاة يعملون على هيئه محاكم عليا لهذه المدن وما حولها ، وعلى هذا الأساس كان برلمان باريس يخدم ثلث فرنسا تقريباً . وطالب كل برلمان بأن أى مرسوم ملكى أو حكومى لا يصبح قانوناً إلا إذا عرض على البرلمان ووافق عليه وسجله . ولم يسلم المجلس الملكى للدولة بهذا المطلب قط ، ولكنه فى الغالب سمح للبرلمان بحق الاعتراض . ودارت أشد حقب التاريخ الفرنسى كآبة حول هذه المطالب المتعارضة والمتنازع عليها بين الملك والبرلمانات .

وبين برلمان باريس والملك قام الوزراء والبلاط . وشكل كل الوزراء معاً « مجلس الدولة » وكان البلاط يتألف من الوزراء علاوة على النبلاء

أو رجال الدين أو أعيان العامة الذين كانوا قد قدموا إلى الملك ، بالإضافة إلى معاونى رجال البلاط وخدمهم . وكانت هناك مراسم صارمة (بروتوكول) تحدد وضع كل رجل فى البلاط ومسوغاته وأسبقيته وامتيازاته وواجباته ، كما أنه كانت هناك قواعد تشريفاب معقدة مدروسة مفصلة تيسر الاحتكاك بين عدة مئات من الأفراد المزهوين الذين تملأ الغيرة والحقد قلوبهم ، كما تثقل كواهلهم . كما أن المراسم والتشريفات الباذخة المسرفة لطفت من رتابة نظام الحاشية . وهيأت جو الغموض الذى لاغنى عنه للحكومة الملكية - وكانت ضروب التسلية الأثيرة لدى أفراد الحاشية هى الانهماك فى القيل والقال والأكل ، والميسر والصيد والقنص والزنى . قال سفير نابلى « إن تسعة أعشار الناس فى فرنسا يموتون جوعاً ، والعشر يموت من عسر الهضم[٧٨] وكانت مبالغ الخسارة والمكسب على موائد القمار جسيمة . ولكى يسدد رجال الحاشية ديونهم كانوا يبيعون نفوذهم لمن يدفع مبلغاً محترماً لأحد أفراد الحاشية ، وكان لكل زوج فى البلاط ، تقريباً ، عشيقة ، ولكل زوجة تقريباً عشيق . ولم ينكر أحد على الملك خليلاته ، وكل ما شكا منه النبلاء أن الملك صحب معه إلى فراشه مادام دى بمبادور وهى سيدة من عامة الشعب على حين أنهم ربما أحسوا أنه قد يشرفهم أن يفترع جلالته بناتهم البكارى.

وعلى الرغم من أن لويس الخامس عشر كان قد بلغ سن الرشد رسمياً فى ١٧٢٣ ، فإنه كان آنذاك فى سن الثالثة عشرة ، وعهد بالإدارة إلى لويس هنرى ، الدوق دى بوربون . وكان التفكير قد اتجه لشغل هذا المنصب إلى كونت دى تولوز ، وهو أحد أبناء لويس الرابع عشر الذين أضيفت عليهم صفة الشرعية ، ولكنه استبعد « لأنه لفرط أمانته لا يصلح لأن يكون وزيراً [٧٩] » وكان السيد الدوق دى تولوز « نفسه رجلا طيب الشعور ، بذل كل ما فى وسعه للتخفيف من فقر الشعب ، وفكر فى تحقيق هذا الغرض عن طريق وضع نظام يحدد الأسعار والأجور بصفة رسمية . ولكن قانون العرض والطلب خيب آماله . وتجاسر على فرض ضريبة دخل قدرها ٢٪ على كل الطبقات فاحتج رجال الدين وتآمروا على سقوطه[٨٠]

وأباح لعشيقته المركيزة دى برى من النفوذ والسلطان أكثر مما ينبغى ،وكانت ذكية ، ولكن ذكاءها كان دون جمالها ، فاحتالت على زواج لويس الخامس عشر من مارى لزكزنسكا ، أملا فى أن تستبقى الملكة الشابة تحت تأثيرها . ومهما يكن من أمر فإن مارى سرعان ما فقدت نفوذها وعطفت مدام دى برى على فولتير ، وأقصت رجال الدين ودفعت الدوق إلى مهاجمة الأسقف الذى يتولى تعليم الملك ، والذى كان قد أوصى الملك باختيار الدوق ليكون وزيره الأول . ولكن الملك كان يعجب بمعلمه ويثق فيه أكثر من أى رجل آخر فى الدولة .

وكان أندريه هركيل دى فليرى قد عين أسقفاً فى فريجيس ١٦٩٨ ثم مؤدباً للملك ١٧١٥ . وسرعان ما أصبح ذا تأثير شديد على عقل الصبى . وكان الأسقف فارع الطول وسيما مرناً لبقاً ، كسولا بعض الشىء لايتعجل الحظ والثراء أبداً ، ولو أنه وصل إلى ما يصبوا إليه . واعتقد ميشيليه وسانت بيف أن فليرى ، باعتباره معلما ، كان قد أضعف شخصية الملك الصغير بإطلاق العنان لرغباته وشهواته فى ابتهاج خال من الهموم والتفكير ، ورباه على مساندة اليسوعيين والعطف عليهم (٨١) . ولكن فولتير ، الذى لم يكن صديقاً لرجال الدين ، أعجب بفليرى ، وقدره أعظم تقدير ، معلماً ووزيراً ، على حد سواء وأخذ فليرى على عاتقه أن يشكل ذهن تلميذه ويدربه على العمل والتكتم والاستقامة والأمانة ، وعلى أن يصون نفسه وسط تعجل الحاشية وهياجها وصخبها ، طيلة الفترة التى لم يبلغ فيها الملك سن الرشد ، والتى نعم فيها بحسن تأثير الوصى وتقدير الشعب . ولم يمن فليرى قط بقيمة خدماته ، ولم يشك قط من الآخرين ، ولم يغمس يده فى مكائد الحاشية ودسائسها قط . وحاول سراً أن يتعرف على شئون المملكة فى الداخل ومصالحها فى الخارج . وصفوة القول إن سلوكه الواعى الحذر ومزاجه اللطيف جعلا كل فرنسا تود أن تراه على رأس الإدارة فيها (٨٢) .

ولما علم فليرى بأن تأثيره المستمر فى تقرير السياسة استفز الدوق دى بوربون ليوصى بطرده من البلاط ، لم يبذل أى محاولة للاحتفاظ بمركزه

بل انسحب فى هدوء إلى دير السلبيشيانر فى ISSY، إحدى ضواحى باريس (١٨ ديسمبر ١٧٢٥) . وأمر الملك الدوق أن يطلب إلى فلبرى أن يعود ، وعاد بالفعل ، وفى ١١ يونيه ، استجابة لما وضح من رغبة الحاشية ورجال الدين والجمهور ، (٨٣) أمر لويس الخامس عشر، بشكل مفاجىء ، بوربون « أن يأوى إلى شانتيللى ويبقى هناك لحين صدور أوامر أخرى » . وأبعدت مدام دى برى إلى قصرها فى نورماندى ، حيث تولاها الضجر والسأم إلى أبعد الحدود ، فتناولت السم وفارقت الحياة (١٧٢٧) .

وظل فلبرى يخطو إلى الأمام بفضل تراجعه ، ولم يحظ بأى منصب رسمى ، بل إنه على العكس ، حث الملك على أن يعلن أنه سيتولى الحكم بنفسه منذ الآن . ولكن لويس آثر الصيد أو لعب القمار ، وأصبح فلبرى الوزير الأول فى كل الشئون إلا اللقب (١١ يونيه ١٧٢٦) . وكان آنذاك فى الثالثة والسبعين من العمر ، وكم من نفس طموحه تطلعت إلى أن يعاجله الموت ، ولكنه حكم فرنسا سبعة عشر عاما .

ولم ينس فلبرى أنه قسيس ، فألغى ضريبة الـ ٢ ٪ فيما يتعلق برجال الكنيسة ، فكان جوابهم على هذا أنهم قدموا للدولة منحة اختيارية قدرها خمسة ملايين جنيه ، وطلب فلبرى إليهم أن يساندوه فى تنصيبه كاردينالا ، وكان فى حاجة إلى هذا اللقب ليكون له حق الصدارة والأسبقية على الأدواق فى مجلس الدولة ، فكان له ما أراد (٥ نوفمبر) ، ولم يحاول منذ تلك اللحظة أن يخفى الحقيقة ، تلك هى أنه كان يحكم فرنسا .

ولشد ما كانت دهشة الحاشية حين رأوه متواضعا وهو فى أوج السلطة مثلما كان متواضعاً وهو يمهد لها . وعاش فى بساطة تكاد تتسم بالتقتير ، قانعا بالحقيقة الواقعة دون امتيازات السلطة ومقتضياتها . وكتب فولتير « إن ارتفاع مكانته لم يغير من عاداته وسلوكه ، ودهش الجميع ليجدوا فى شخص رئيس وزارة ، أعظم رجال الحاشية جاذبية وفى نفس الوقت أعظمهم نزاهة وتجردا » (٨٤) وقال هنرى مارتن « كان أول وزير عاش بعيداً عن الترف والبذخ ومات فقيرا » . (٨٥) وكان أمينا غاية الأمانة ،

ولم يسئ استغلال منصبه قط . [٨٦] وكان إلى أبعد الحدود أكثر تسامحا ممن يحيطون به » [٨٧] وعامل فولتير معاملة ودية لطيفة وتغاضى عن ممارسة الطقوس البروتستانتية سرا . ولكنه لم يتسامح قط مع الجانسنيين .

ولم يعكف ، بطريقته المتروية المتأنية ، على تقرير السياسة فحسب ، بل على إدارة الحكومة كذلك . اختار معاونيه بعد حكم فاحص مدقق ، وساسهم فى حزم وكياسة . وفى عهده تابع هنرى فرنسوا دى أجوسو مهمته الطويلة المدى (١٧٢٨ - ١٧٥١) فى اصلاح القوانين وتنسيقها ، وأعاد فيلبيرت أورى النظام والاستقرار إلى مالية الدولة . وتجنب فلبرى الحرب حتى أكره عليها بسبب الأطماع الأسرية فى الأسرة الحاكمة ، ومن ثم هيأ لفرنسا فترات سلام وهدوء طويلة ، سمحت لها باستعادة الانتعاش الاقتصادى . وبدا أن نجاحه برر مقدماً الحجج التى رددها الفيزيوقراطيون « أن نحكم حكما يسيرا معناه أن تحكم حكما صالحا » (حرية التجارة والصناعة وعدم تدخل الحكومة فيهما) . ووعد بوقف التضخم ، وأوفى بوعده . واتسعت التجارة الداخلية والخارجية ، وزاد الدخل . وحيث أنفق الايرادات فى قصد أكيد بعيد عن التبذير ، وحد من نفقات مهرجانات الحاشية الملكية ، فإنه استطاع أن يلغى ضريبة الـ ٢ ٪ على الدخل بالنسبة لكل الطبقات ، وأن يخفف ضريبة الأملاك التى بهظت كاهل الفلاحين وأعاد إلى المدن الكبيرة والصغيرة الحق فى انتخاب موظفيها الرسميين واقتداء بالمثل الذى ضربه فلبرى فى الاستقامة تحسنت أخلاق رجال البلاط على كره منهم .

وفى مقابل هذه المفاخر والمزايا تطل بعض المآخذ الجسيمة برؤوسها إنه رخص للملتزمين العامين فى الاستمرار فى جمع الضرائب دون تدخل من جانب الوزارة . وتعزيزا منه للمشروع الضخم الذى وضعه المحافظون ، أقر نظام السخرة الذى فرض على الفلاحين العمل دون مقابل اللهم إلا الطعام. وأسس مدارس عسكرية لأبناء الأستقراطية ، ولكنه قبض يده بشكل مخل غير حكيم بإهماله إصلاح البحرية والتوسع فيها ، وسرعان ما باتت تجارة

فرنسا ومستعمراتها تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية . إنه وثق ثقة عمياء فى قدرته على المحافظة على السلام بينه وبين إنجلترا .

وطيلة حكم روبرت وولبول فى إنجلترا نجحت سياسة السلام التى انتهجها الكاردينال . فإن الرجلين ، ولو أنهما كانا على طرفى نقيض فى الخلق والطباع ، اتفقا على أن السلام أمر مرغوب فيه . على أنه فى ١٧٣٣ ، حضه مستشاروه فى الشئون الخارجية على القيام بمحاولة فاترة لاجلاس ستانسلاس لزكزنسكى ، وهو حمو الملك ، على عرش بولندة ، ولكن ستانسلاس اقترح اصلاح دستور بولندة وتشكيل حكومة قوية ، وآثرت كل من روسيا والنمسا أن تكون بولندة عاجزة مهيضة الجناح ، فرفضتا هذا الاقتراح . وفى حرب الوراثة البولندية ١٧٣٣ – ١٧٣٨) طردتا لزكزنسكى من وارسو ثم من دانزج . ولما كان فلبرى يعارض أى صراع خطير ، فإنه نصح ستلانسلاس بأن يلجأ إلى نانسى ولونفيل حاملا لقب « ملك اللورين » . ولم تقع الكارثة ، فإن لزكزنسكى والدول اتفقوا على أنه عند وفاته تعود إلى فرنسا اللورين التى كانت فرنسية إلى أبعد حد . وهذا ما حدث فى ١٧٦٦ .

وجاهد فلبرى الذى كان فى الثامنة والثمانين قدر طاقته المتضائلة ، أن ينأى بفرنسا عن حرب الوراثة النمسوية (١٧٤٠) ، ولكن امرأة فرضت سلطانها عليه . ذلك أن فليسيتيه دى نسل مركيزة فنتيميل ، التى كانت آنذاك تشارك الملك فراشه أصغت فى بهجة وفرح إلى شارل أوجست فوكيه، كونت دى بل أيل . حفيد المختلس البارع نيقولا فوكيه الذى كان لويس الرابع عشر قد أحسن صنعا بعزله . إن بل أيل هذا أبلغ المركيزة أن فلبرى رجل هرم أحمق ، وأنه فى مهاجمة فردريك الثانى ملك بروسيا للملكة الشابة ماريا تريزا ملكة النمسا ، فرصة ذهبية لتمزيق إمبراطوريتها ، وأن فرنسا ينبغى أن تنضم إلى فردريك ، وتقتسم الغنائم . وصبت العشيقة الفاتنة هذه الكلمات فى آذان الملك الولهان . وأقنعته بأن ينتزع زمام الأمور من بين يدى الكاردينال اللتين ترتعدان خوفا وجبنا ، ويستعيد مجد فرنسا .

وناشد فلبرى بأن الشرف والمصلحة تحولان دون المضى فى مشروع بل آيل . فإن إنجلترا لن تسمح بتدمير النمسا لتصبح فرنسا عظيمة إلى حد ينذر بالخطر . وأن على فرنسا أن تدخل فى حرب مع إنجلترا أيضا ، وأن فرنسا فى خير حال فى السلم ! وفى ٧ يونية ١٧٤١ أعلن لويس الحرب على النمسا . وفى ٢٥ نوفمبر استولى بل أيل على براج ، واتفقت معه كل فرنسا تقريبا على أن فلبرى عجوز أحمق .

وبعد عام فى الحرب تخلى فردريك المراوغ عن فرنسا وعقد سرا هدنة مع النمسا ، وإذ تحررت الجيوش النمسوية على هذا النحو ، تقدمت إلى بوهيميا ، وشرعت فى تطويق براج . ولم تكن إلا مسألة وقت ، ليضطر إلى التسليم بل آيل وجيشه المؤلف من عشرين ألف رجل ، أقض مضاجعهم وأزعجهم الأهالى الذين أضمروا لهم العداء . وفى ١١ يولية ١٧٤٢ أرسل فلبرى إلى القائد النمسوى كونت فون كونجزج نداء مذلا يناشده فيه شروطا معتدلة للحامية الفرنسية ، قال فيه « يعلم كثير من الناس كم كنت أرض القرارات التى اتخذناها ، وإنى أرغمت بطريقة ما على الموافقة عليها » (٨٨) فأرسل كونجزج الخطاب إلى ماريا تريزا التى نشرته على العالم . وأرسل جيش فرنسى لإنقاذ بل أيل ، ولكنه لم يصل إليه قط . وفى ديسمبر ترك بل أيل وراءه ستة آلاف من المرضى والجرحى ، وغادر بقواته الأصلية براج إلى الحدود عند ايجو ، ولكن عملية الفرار هذه حدثت فى قلب الشتاء عبر مائة ميل جبال ومستنقعات مغطاة بالجليد أو الثلوج ، ولم تنقطع غارات العدو عليهم طيلة انسحابهم . وهلك من الأربعة عشر ألف رجل الذين بدأوا هذه المسيرة اثنى عشر ألفا فى الطريق ، وامتدحت فرنسا هذا الإنقاذ الرائع بالارتداد المذهل . وتخلى فلبرى عن الوزارة ، وآوى إلى الدير فى اسى حيث فارق الحياة (٢٩ يناير ١٧٤٣) وهو فى سن التسعين .

وأعلن الملك أنه سيتولى رياسة الوزارة بنفسه منذ الآن

٥ - لويس الخامس عشر

عجبا : ماذا يكون شعور الإنسان عند ما يكون ملكا وهو فى سن الخامسة ؟ ان الصبى الذى قدر له أن يحكم فرنسا طيلة تسعة وخمسين عاما ، كان لا يكاد يسترعى الانتباه أو الملاحظة فى طفولته المبكرة ، كان ضعيفا هزيلا ، يتوقعون أن يعاجله الموت بين آونة وأخرى . وفجأة فى ١٧١٢ توفى والداه دوق ودوقة برجندى بالجدرى ، وأصبح الصبى وريث العرش . وبعد ثلاث سنوات كان هو الملك .

واتخذت كل الاحتياطات لجعله غير صالح للحكم . وقلقت مربيته مدام دى فنتادور أشد القلق على صحته ، وعملت على وقايته من قسوة الجو ، وغرس فيه كاهن اعتراف يسوعى احتراما رهيبا للكنيسة . وكان فليرى ، معلمه ومؤدبه ، كيسا متسامحا ، ويبدو أنه فكر فى أنه من الخير لفرنسا أن يكون مليكها كسولا بليدا . أما معلمه الخاص ماريشال دى فيلروا فقد دبر سماً عكسيا . حيث قاده إلى نافذة فى قصر التويلرى ليرى الجماهير التى احتشدت لتصفق وتهلل وتهتف له ، وهو يقول « انظر يا مولاى ، هذا الجمع وهؤلاء الناس كلهم لك تابعون لك . أنت مليكهم وسيدهم.[٨٩] واقترنت القدرة على كل شيء بالعجز وعدم الأهلية لأى شيء .

لقد أفسد لويس هالة القداسة التى أضفوها عليه ، وكان أنانيا فى سلطته بليدا عنيدا ، ومن ثم نشأ شابا ضجرا صموتا ، مع التجاوز عن تجنبه مراقبة حراسه وفيما بعد تجنبه مراسم حاشيته وخنوعها ليجد متنفسا فى الحفر على الخشب وشغل الأبرة وحلب البقـــرة واللعب مع الكلاب . [٩٠] إن عناصر القسوة التى تكمن فينا جميعا تمكنت عنده من أن تظهر إلى السطح من خلال جبنه . ويروى أنه كان فى صباه يجد لذة فى صيد الحيوانات بل قتلها . [٩١] وفى سنى نضجه هذب من هذه القسوة إلى مجرد الصيد ، وربما برزت فى سوء معاملته ، وسرعة نبذه للبنات اللائى شاركته فراشه بعد تدريبهن على ذلك فى « متنزه الظباء » على أن معاملته

لأصدقائه تميزت بقـــدر من الحساسية المقرونة بالحذر والخجل ومراعاة شعورهم وحقوقهم .

وكان له ذهن سليم ، كان من الممكن أن يتفوق لو أن الاخلاق ساندته ودعمته . وأدهش الجميع بقوة ذاكرته وسرعة بديهته . وكان بطبيعته يؤثر الألعاب على الدرس . ولـكنه استوعب بعض التعليم الصحيح فى اللاتينية والرياضيات والتاريخ وعلم النبات والفنون العسكرية . وشب فارع الطول نحيل القوام ، ولـكن عريض المنكبين ، مع بشرة جميلة وشعر ذهبي متجعد . وقال عنه ماريشال دى ريشيليوانه « أكثر الصبية وسامة وملاحة فى مملـكته »[٩٢] يحتفظ متحف فرساى بصورة رسمها له فانلو ، وهو فى الثالثة عشرة بالسيف والدرع ، مما يكاد يتلاءم مع الوجه الصبيانى. وقارنه رينيه لوس دى آرجنسون باله الحب عند اليونان « ايروس » (كيوبيد عند الرومان) . ووقعت النساء فى غرامه لأول نظرة . وحين مرض فى ١٧٢٢ صلت كل فرنسا من أجله ، وعندما أبل من مرضه بكت كل فرنسا فرحا وابتهاجا . إن هذا الشعب الذى كثيرا ما عانى وقاسى من ملوكه طرب وابتهج لما راوده من أمل فى أن الشاب سرعان ما يتزوج وينجب ابنا يحفظ العرش فى الأسرة الـكريمة العريقة .

والحق إنه كان قد خطب (١٧٢١) وهو فى سن الحادية عشرة ، ماريا آنا فـكتوريا ، وعمرها عامان ، ابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا . وكانت قد انتقلت إلى باريس ، وكانت الآن تنتظر أن تبلغ سن الزواج . ولـكن مدام دى برى رأت أنها قد تستطيع الاحتفاظ بنفوذها المتزايد بفسخ هذا القران المرتقب ، وتزويج لويس من مارى لزكزنسكى ابنة ملك بولندة المخلوع . وشرعت فى تنفيذ خطتها ، وأعيدت الأميرة إلى أسبانيا (١٧٢٥) وتلك إهانة لم يغتفرها البلاط الأسبانى قط . وكان ستلانسلاس فى مأواه فى ويزمبرج فى الألزاس حين تلقى طلب ملك فرنسا يد ابنته ، فدخل إلى الحجرة التى كانت ابنته وأمها تعملان فيها وقال « فلنسجد شكرا لله » . فتعجبت مارى فرحة مبتهجة وقالت « أبى العزيز ، هل دعيت ثانية لارتقاء

عرش بولندة ؟ « فأجاب ستانسلاس » بل إن الله من علينا بتعمة مذهلة أكثر . لقد أصبحت ملكة فرنسا » [٩٣] إن ماری لم تكن تحلم قط بارتقاء أعظم عرش فى أوربا . وكانت قد رأت صور لويس الخامس عشر ، شابا يكللة المجد والرفعة ، وسيما قوياً ، إلى أبعد حد . وأرسلت إليها الخزانة الفرنسية الأردية والثياب والملابس الداخلية والأحـذية والقفازات والمجوهرات ، ووعدتها بمائتين وخمسين ألف جنيه لدى وصولها إلى فرسای ، وبراتب سنوى قدره عشرون ألف كراون ذهبا مدى الحياة . وتلقت ماری هذا كله فى ذهول وهى لا تكاد تصدق ، واتجهت إلى الله بالشكر على حظها السعيد . وفى ١٥ أغسطس ١٧٢٥ عقد قرانها على الملك بتوكيل فى ستراسبورج ، وسارت فرحة إلى باريس عبر طرق تجتاحها العواطف لعدة أيام قاسية . وزفت إلى الملك فى فونتنبلو فى ٥ سبتمبر . وكان هو فى الخامسة عشرة . وكانت هى فى الثالثة والعشرين من العمر ، ولم تكن جميلة ، بل طيبة فقط .

أما لويس الذى لم يكن قد أبدى بعد ولعا بالنساء ، فإنه أفاق عندما مس عروسه المتواضعة ، وعانقها فى حرارة أدهشت حاشيته ، وكانت حياتهما لبعض الوقت مثالا للحب والسعادة ، وحظيت باحترام الناس وولائهم ، ولكنها لم تكن يوما ذات شعبية أو محبوبة . وكانت لطيفة ودودة رقيقة حساسة ، لا تعوزها الدعابة المرحة ، ومع ذلك افتقدت فرسای فيها الذهن المتوقد والحديث المرح المفعم بالحيوية . مما أصبح لزاما أن تتحلى به سيدات البلاط . وصعقت ماری لأخلاقيات الأرستقراطية الفرنسية ، ولكن نقدها لها لم يجاوز أنها ضربت مثلا للزوجة الأمينة المخلصة الحريصة على اسعاد زوجها وعلى انجاب وريث له . وعلى مدى اثنى عشر عاما وضعت عشرة أطفال ، وفى سنوات أخرى عانت كثيراً من الاجهاض . وكان أشباع شهوة الملك معضلة واجهت الملكة . انها توسلت إليه أن يتعفف ويستعصم ، على الأقل أيام الاحتفال بأعياد كبار القديسين ، وأصيبت فى غمرة جهودها وواجباتها « بناسور » خبيث ، والتمست « الحرارة » التى تضطرم بين جنبي

الملك منافذ أخرى . وكان عرفانها بحسن صنيع مدام دى برى والدوق دى بوربون محنة ابتليت بها وأصغت فى صبر ناقد حين هاجم الدوق بوربون فليرى فى حضرة الملك . وعندما تولى فليرى زمام السلطة أرسل بناتها إلى ديرناء بحجة الاقتصاد فى النفقات . ورجح نفوذه المتزايد من كفة أعدائها . ولما زاد فتور الملك نحوها آوت إلى حلقة محدودة من أصدقائها ، ولعبت الورق ونسجب البسط ، وحاولت الرسم ، ووجدت بعض السلوى والعزاء فى التقوى وأعمال البر . « وعاشت حياة الدير والرهبنة وسط انفعالات الحاشية وعبثها »[٩٤] .

وكان ينبغى للملك أن يلهو ويتسلى ، ولكن مدام دى برى كانت قد اختارت له زوجة غير مسلية . على أنه لم يتخذ خليلة إلا بعد سبعة أعوام من زواجه ، وعند ذاك اتخذ أربعا على التعاقب ، مع قدر محدود من الاخلاص ، لأنهن كن أخوات . ولم يكن رائعات الجمال ، ولكن كن جميعاً نشيطات مسليات مفعمات بالحيوية ، وكن جميعاً ما عدا واحدة ذوات خبرة بأساليب الفنج والدلال والعبث . وواضح أنه كان للويزا دى نسل كونتيسة دى ميللى الشرف فى أن تكون سباقة إلى إغراء الملك واغوائه (١٧٣٢) . انها ، مثل لويزا دى لآ فالبير ، أخلصت فى حبها لعشيقها الملكى ، ولم تكن تسعى للثراء أو السلطة ، وكل ما سعت إليه هو أن تسعده . فلما زاحمتها أختها فليسيتيه ، وكانت لتوها قد غادرت الدير ، على مخدع الملك ، فإن لويزا شاوكتها فى لويس (١٧٣٩) فى قران رباعى مهرطق — لأنه ظل يتردد على الملكة . وأزعج هذا التعقيد ضمير الملك ، وتجنب تناول القربان المقدس ، لفترة من الوقت ، بعد أن سمع قصصا رهيبة مفزعة عن أناس كانوا قد تناولوا القربان فى فم آثم خاطئ .[٩٥] إن هذه المرأة المغوية الخطرة (السيرانه : عند الإغريق كائن أسطورى له رأس امرأة وجسم طائر ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك) — كما تروى احدى أخواتها « كان لها شكل الغرناد (سمك بحرى) وعنق الغرنوق (طائر ذو عنق طويل) ورائحة القرد »[٩٦] . ومع ذلك احتالت

التحمل . وحفاظا على ماء الوجه وآداب المجتمع أوجد لها لويس زوجا ، وعينها مركيزة فنتميل . وفى ١٧٤٠ آوت مدام دى ميللى إلى أحد الأديار ، ولكنها غادرته بعد عام واحد لترعى منافستها المنتصرة التى كانت تعانى سكرات الموت أثناء الولادة (١٧٤١) . وبكى الملك وبكت مدام دى ميللى معه . ووجد بعض العزاء بين ذراعيها ، وعادت عشيقة له من جديد .

وثمة أخت ثالثة ، أدليد نسل ، البدينة الدميمة ، وكانت بارعة ذكية ، عملت على تسلية الملك بحركاتها الجسدية وسرعة بديهتها وأجوبتها السريعة . واستمتع الملك بها ، ووجد لها زوجا ، وظل على علاقته بها . أما الأخت الرابعة ، مدام دى فلافاكور ، فإنها صدت الملك وصادقت الملكة . ولكن الأخت الخامسة ، أقدرهن جميعاً ، هى مارى آن دى نسل دى لاتورنل ، أقنعت مدام دى ميللى بأن تقدمها للملك . ولم تغز مارى قلب الملك فحسب ، بل إنها أصرت كذلك على أن تكون المحظية الوحيدة ، وأقصيت ميللى فقيرة معدمة ، وهوت بين عشية وضحاها من أبهة الملكية إلى كآبة الدير . وهكذا أزاحت كل من الأخوات من بنات نسل أختا لها . وبعد ذلك بقليل كانت مارى تشق طريقها لتصل إلى مقعدها فى كنيسة نوتردام ، فكان فى هذا ازعاجا لجماعة من المصلين ، وتذمر أحدهم قائلا : « كل هذه الضجة من أجل بغى فاجرة : » فقالت هى « سيدى ، ما دمت عرفتنى جيدا فأرجو أن تمن على بالصلاة لله من أجلى . (٩٧) » ولا بد من أن الله سبحانه وجد من اليسير أن يغفر لها .

وكانت السيدة نسل الجديدة أجمل الأخوات . إن الصورة التى رسمها لها ناتييه — وجه وسيم ، صدر بارز منتفخ ، قوام رشيق ، فى ثوب من حرير مهفهف متموج يكشف عن قدمين صغيرتين رقيقتين — لتفسر شدة اندفاع الملك نحوها وميله إليها . وإلى هذا كله كانت تجمع ذكاء متقدا قدر بريق عينيها . وعلى النقيض من دى ميللى كانت مارى تتلهف على الثروة والسلطان . وقدرت أن نفقاتها تستحق أن يكون لها دوقية شاتورو

التى تدر ٨٥ ألف فرنك فى العام ، فحصلت عليها وعلى لقب دوقة (١٧٤٣) . ودخلت التاريخ لمدة عام .

وتحيز لها وساندها حزب قوى فى البلاط ، كان يأمل فى استخدام نفوذها فى كسب الملك إلى جانب سياسة عسكرية فعالة ، تعود فيها سلطة الحكومة من البيروقراطية البرجوازية إلى النبالة العسكرية (نبلاء السيف) وكان لويس فى بعض الأحيان ، شعورا منه بالواجب ، ينهمك فى العمل مع وزرائه ، ولكنه على الأغلب كان يفوض إليهم سلطاته وواجباته . ونادرا ما اجتمع بهم ، أو عارضهم ، وأحيانا وقع مراسيم اقترحها أو عرضها عليه أعوان متنافسون . وهرب من قواعد التشريفات فى البلاط إلى كلابه وجياده وإلى الصيد والقنص . فإذا لم يخرج يوما للصيد قال رجال الحاشية « أن الملك لا يفعل شيئا اليوم » . وعلى الرغم من أنه لم تعوزه الشجاعة ، فإنه لم يكن يميل إلى الحرب ، وكان يؤثر الفراش على الخندق .

وفى المخدع وفى حجرة الجلوس حرضت الدولة الشهوانية اللعوب — مستعيدة ذكرى أجنيس سوريل — الملك على القيام بدور فعال فى الحرب ضد إنجلترا والنمسا . وصورت له لويس الرابع عشر يقود جيشه إلى المجد والعظمة فى مونزونامور ، وتساءلت : لماذا لا يتألق لويس الخامس عشر الوسيم الشجاع فى درعه وسيفه على رأس جيشه ، مثلما كان يفعل جده العظيم . ونجحت الخطة ، وماتت الدوقة منتصرة . وأفاق الملك الكسول لحظة من سباته . وربما كان نتيجة لاستحثاثها وتحريضها ، إنه عندما حانت منية فليرى المسالم ، أعلن لويس أنه سيحكم ويملك معا . وفى ٢٦ أبريل ١٧٤٤ استأنفت فرنسا الحرب الفعلية ضد النمسا ، وفى ٢٢ مايو تجدد التحالف مع فردريك ملك بروسيا الذى بعث بشكره وامتنانه إلى مدام شاتوره . وتقدم لويس إلى الجبهة فى أبهته الملكية وتبعه بعد يوم واحد خليلاته وسائر سيدات البلاط ، تحيط بهن كل مظاهر البذخ والترف المألوفة ، وكسبت القوات الفرنسية الرئيسية التى يقودها الملك ، ولكن تخطط عملياتها

أدريان موريس دى نواى وموريس دى ساكس ، انتصارات يسيرة فى كورتراى ومنان وأبيرس وفورنيس . وبدا وكان لويس الرابع عشر والقرن العظيم ولدا من جديد .

ووسط المهرجانات والابتهاجات ترامت الأنباء بأن قوة فرنسية تخلى عن مساندتها إلى حد كاف حلفاءها البافاريون ، كانت قد هيأت الفرصة لجيش نمسوى مجرى أن يحتل أجزاء من الالزاس واللورين ، مما اضطر معه ستلانسلاس الذى لم يفارقه سوء الطالع ، إلى الهرب من لونفيل . وترك لويس فلاندرز وأسرع إلى متز أملا فى استثارة همم الجيش المنهزم بوجوده . ولكنه ، هناك ، نتيجة المشاغل المتنوعة وسوء الهضم وحرارة أواسط الصيف ، انتابه مرض شديد ، وازدادت الحالة سوءا بسرعة إلى حد أنه فى ١١ أغسطس ظن أن فى خطر من أن يهلك ، وكانت خليلته قد لحقت به ، وهى الآن تسهر على العناية به ورفض أسقف سواسون أن يناوله الأسرار المقدمة الأخيرة إلا إذا طردت الدوقة . واستسلم لويس ، وأقصاها إلى نحو ١٥٠ ميلا بعيدا عن الحاشية (١٤ أغسطس ١٧٤٤) وشيعها الأهالى بصيحات الاحتقار والاستنكار وهى تغادر المدينة .

وفى الوقت نفسه كانت مارى لزكزنسكى قد عجلت بالسفر عبر فرنسا لتكون إلى جانب زوجها وهو طريح الفراش . وعلى الطريق التقى ركبها بعربة شاتورو وبطانتها . وعانق الملك الملكة قائلا « لقد سببت لك مالا تستحقين من الحزن والأسى ، وأرجو أن تغتفرى لى هذا كله » . فكان جوابها « ألا تعرف أنك لست فى حاجة أبدا إلى الصفح من جانبى . إن الخطأ فى حق الله وحده » . وعندما بدأ الملك يسترد صحته كتبت الملكة إلى مدام دى موريا بأنها « أسعد مخلوقة على وجه الأرض » . واغتبطت فرنسا كلها أيما اغتباط بشفاء الملك وندمه على ما فات ، وعانق المواطنون بعضهم بعضا فى الشوارع ؛ وعانق بعضهم جواد الرسول الذى حمل هذه الأنباء السارة . واطلق بعضهم على الملك « لويس المحبوب جداً » ورددت الأمة هذه العبارة . وعندما سمع بها لويس تعجب قائلا « ماذا فعلت لأجعلهم يحبوننى إلى هذا الحد ؟ » [٩٨] إنه كان رمز الوالد لشعبه .

وأنقذ فردريك الألزاس لفرنسا بغزو بوهيميا ، فإن الجيش النمسوى المجرى ترك الألزاس لإنقاذ براج . وانضم لويس ، وهو لا يزال ضعيفا إلى جيشه المتقدم نحو ألمانيا ، ورآه يستولى على فريبورج – أم بريسجو . وفى نوفمبر عاد الملك إلى فرساى ، وأعاد مدام دى شاتورو إلى سابق حظوتها ومكانتها ، ونفى أسقف سواسون . ولكن فى ٨ ديسمبر ، وبعد أن عانت من الحمى والهذيان لعدة أيام ، قضت الخليلة نحبها . ودفنت فى ظلام الليل، تفاديا لامتهان الجمهور لرفاتها . واستاء الملك من رجال الدين فامتنع عن تناول الأسرار المقدسة فى عيد الميلاد ، وظل يترقب غراما جديدا .

ونسيت الأمة لبعض الوقت خطايا « المحبوب جدا » وسط انتصارات جيشه ، وكان قائد ألمانى بروتستانتى هو بطل فرنسا . ذلك أن موريس دى ساكس كان ابن أوغسطس القوى ناخب سكسونيا وملك بولندة . وكانت أمه هى الكونتس ماريا أورورا فون كونجز مارك التى اشتهرت بين محظيات الملك بالجمال والذكاء إلى حد أطلق معه فولتير عليها « أنها أشهر امرأة على مدى قرنين من الزمان » (٩٩) . وفى سن الثانية عشرة تزوج موريس من جرهانا فكتوريا ، كونتيس فون لوين ، وكانت سيئة الخلق مثل أبيه . وبدد ثروتها واستنكر دعارتها وفجورها وطلقها (١٧٢١) . وبعد أن أظهر شجاعته فى حملات كثيرة قصد إلى باريس لدراسة الرياضيات . وفى ١٧٢٠ حصل على منصب فى الجيش الفرنسى . وبعد أن نجا من كل محاولات زوجته السابقة لقتله بالسم ، عثر على خليلة مخلصة فى شخص أدريين لكوفرير التى برزت مكانتها فى الكوميدى فرانسيز آنذاك (١٧٢١) . وفى ١٧٢٥ غادر فرنسا ليؤسس له مملكة فى كورلند (جزء من لتفيا الحالية) . أما الممثلة العظيمة ، فإنها على الرغم من حزنها الشديد على فقد حبيبها ، منحته ، عونا له على تنفيذ مشروعه ، كل ما لديها من من فضة وحلى ومصوغات ، قيمتها أربعون ألف جنيه . وبهذا المبلغ ، بالاضافة إلى سبعة آلاف طالير (عملة فضية ألمانية قديمة) من والدته ، قصد إلى كورلند ، وانتخب لعرش الدوقية (١٧٢٦) . ولكن كاترين

الأولى قيصرة روسيا وأياه ساندا مجلس الديت البولندى فى مناهضة ارتقائه العرش ، وطردت القوات البولندية من كورلند ، الجندى الذى لم يكن ليقهر لولا هذه المقاومة ، ولما عاد إلى باريس (١٧٢٨) وجد أن الممثلة الكبيرة كانت تنتظره مخلصة له ، ولكنه كان قد ورث عن أبيه خلقه وتقلبه ، ورضى بها صاحبة الحظوة الأولى بين عشيقاته .

ومع هذا الانحلال الخلقى الجديد بالازدراء وتقلبه بين أحضان النساء الواحدة بعد الأخرى دون أن يبادلهن اخلاصهن ، أصبح موريس فى ميدان القتال عبقريا لا يجارى فى استراتيجية الحرب ، جريئاً فى تفكيره ، يقظا لأى خطر يتهددة ، وأية فرصة تسنح له . وقال عنه فردريك الأكبر منافسه الوحيد فى ذاك العصر إنه « قادر على تلقين الدروس لأى قائد فى أوربا »[١٠٠] وفى ربيع ١٧٤٥ عين قائدا عاما للجيش الفرنسى ، وصدرت إليه الأوامر بالتقدم نحو الجبهة . وكان على شفا الموت آنذاك فى باريس ، حيث أنهكه إفراطه فى الشراب وآلام داء الاستسقاء المبرحة ، وسأله فولتير كيف يذهب إلى ميدان القتال فى مثل هذه الحالة ، فأجابه موريس « ليس المهم أن أعيش ولكن المهم أن أبدأ » .[١٠١] وفى ١١ مايو التحم بجيشه البالغ ٥٢ ألف رجل مع قوات الإنجليز والهولنديين البالغ عددهم ٤٦ ألفا من الرجال الأشداء ، فى فونتنوى . وكان لويس والدوفين يتابعان سير المعركة الشهيرة على ربوة قريبة ، أما موريس الذى أقعده الاستسقاء عن ركوب الخيل ، فكان يديرها وهو على كرسى من الأغصان المجدولة . ويروى لنا فولتير ، فيما كان يمكن أن يتطور إلى أسطورة وطنية ،[١٠٢] أنه عندما أصبح مشاة الأعداء وجهاً لوجه على مرمى البنادق ، صاح لورد تشارلز هاى قائد الحرس الإنجليزى « أيها الفرنسيون أطلقوا النار » فأجابه كونت دى أنتروخ عن الفرنسيين » أيها الرجال ، نحن لن نبدأ باطلاق النار ، فهل تبدأون أنتم »[١٠٣] وأيا كان الأمر كياسة أو خدعة حربية ، فإن الثمن كان غاليا ، حيث قتل بالطلقات الأولى تسعة ضباط و ٤٣٤ من المشاة ، وجرح ٣٥ ضابطا و ٤٣٠ جنديا .[١٠٤] واضطرب المشاة الفرنسيون وتفرقوا وولوا الأدبار . وأرسل موريس إلى الملك يعرض عليه الانسحاب ، فأبى لويس ، حتى حين وصل

إلى مكانه الجنود العائدون ، وربما أخجلهم تصميمه . فما كان من موريس إلا أن امتطى صهوة جواد ، وأصدر أوامره إلى قواته من جديد وأعاد تنظيمها ، وأطلق القوات الملكية الخاصة على العدو . وقد رأى الفرنسيون مايكهم فى خطر الأسر أو الهلاك ، وحيث شجعهم وجود ماريشال دى ساكس المتهور تحيط به طلقات النار من كل مكان فى أية لحظة ، فإنهم جددوا القتال ، وأبدى النبلاء والعامة بطولة عظيمة مشربة بروح الانتقام فى ساحة المجد . وأخيرا هزم الإنجليز واختلت صفوفهم ، وأرسل موريس إلى الملك يبشره بالفوز فى هذا الالتحام المرير . وفقد الإنجليز والهولنديون ٧٥٠٠ رجل ، والفرنسيون ٧٢٠٠ . وحنى لويس رأسه خجلا حين حياه الجنود الباقون على قيد الحياة . والتفت إلى الدوفين ولى العهد قائلا « انظر يا بنى كم يكلف النصر ، احرص على أن تكون ضنينا بدماء رعاياك » (١٠٥) . وبينما عاد الملك ومرافقوه إلى فرساى ، تقدم موريس للاستيلاء على غنت وبروجز وأودينارد وأوستند وبروكسل . ودانت الفلاندرز كلها لفرنسا فترة من الزمن .

وضيع فردريك نتائج فونتنوى بتوقيعه صلحا منفردا مع النمسا (ديسمبر ١٧٤٥) وتركت فرنسا تقاتل وحدها على ست جبهات من الفلاندرز إلى إيطاليا . وبمقتضى معاهدة إكس لاشابل (١٧٤٨) تخلت عن الفلاندرز ، وكان عليها أن تقنع بالحصول على دوقيات بارما وبياشنزا وجوستللا لصهر لويس الجديد (زوج ابنته) الأمير دون فليب الأسبانى . وعاش موريس أوف سكوسونيا حتى عام ١٧٥٠ ، غنيا معززا مكرما ، ومثقلا بالأمراض. وكان يجد فسحة من الوقت ، بين الغوانى ، ليدون بعض نظرات فلسفية حالمة : « ماذا نرى اليوم فى الأمم ! نفر من الناس يعيشون فى فراغ وسرور وجدة على حساب الجماهير التى لا تعيش إلا على توفير ملذات جديدة دوما لهذه القلة من الناس . إن هذه المجموعة من الظالمين والمظلومين تشكل ما نسميه مجتمعا » (١٠٦) .

وتجاسر رجل آخر من القلة المرموقة المنعمة على أن يحلم بنظام أرحم وأكرم . ذلك أن رينيه لويس دى فوايه ، مركيز أرجنسون الذى تولى منصب وزير الخارجية لمدة ثلاث سنوات ١٧٤٤ – ١٧٤٧) ، كتب فى ١٧٣٩ « تأملات فى حكومة فرنسا » ، ولم يجرؤ على نشره إلا فى ١٧٦٥ ؛ وجاء فيه أن هؤلاء الذين يفلحون الأرض هم أعظم قطاع فى السكان قيمة ، وينبغى أن يتحرروا من كل الرسوم والالتزامات الإقطاعية ، والحق أنه يجدر بالحكومة ، أن تقرض صغار الفلاحين أموالا لتساعدهم على الانفاق على زراعاتهم (١٠٧) . والتجارة حيوية لازدهار الأمة ويجب تحريرها من المكوس والرسوم الداخلية ، بل من رسوم التصدير والاستيراد كلما أمكن ذلك . والنبلاء هم أقل العناصر قيمة فى الدولة ، أثبتوا عجزهم فى الإدارة ، وهم عالة على المجتمع » . وإذا قال أحد بأن هذه المبادئ تتفق مع الديموقراطية ، وتميل إلى القضاء على طبقة النبلاء فلن يكون مخطئا » . وإنه ليجدر بالتشريع أن يهدف إلى أكبر قدر ممكن من المساواة . وينبغى أن يحكم الكوميونات موظفون ينتخبون محليا ، على أن تبقى السلطة المطلقة الرئيسية فى يد الملك ، لأن الملكية المطلقة وحدها هى القادرة على حماية الناس من ظلم الأقوياء (١٠٨) . واستبق دى آرجنسون الفلاسفة فى التطلع إلى الاصلاح على يد ملك مستنير ، وقص على النبلاء ما لم يعترفوا به إلا فى ٤ أغسطس ١٧٨٩ حين تنازلوا عن امتيازاتهم الاقطاعية ، ومن ثم كان مرحلة فى طريق فرنسا إلى روسو وإلى الثورة .

وفى ١٧٤٧ استسلم لويس لتحريض نواى وموروباس وبمبادور وعزل دى آرجنسون . وفقد المركيز ثقته فى الملوك . وفى ١٧٥٣ تنبأ بما حدث فى عام ١٧٨٩ : « إن المساوئ والشرور الناجمة عن الحكومة الملكية الاستبدادية لتقنع كل فرنسا وكل أوربا بأنها أسوأ الحكومات . . . . وإن هذه الفكرة لتبرز وتنتشر وتزداد قوة ، وقد تؤدى إلى ثورة وطنية . . . وكل شىء يمهد الطريق إلى حرب أهلية . . وأذهان الناس مهيأة للتمرد

والعصيان ، ويبدو أن كل شيء يتجه إلى ثورة كبرى فى الدين والحكومة معاً [١٠٩] » .

أو كما قالت خليلة الملك الجديدة « من بعدى الطوفان » .

مدام دى بمبادور

هى من أشهر النساء فى التاريخ ، وأوتيت من الرشاقة والجمال ما أعمى أبصار معظم الرجال عن آثامها وخطاياها ، ومع ذلك وهبت من قوة الذهن ما مكنها لمدة عقد زاهر من السنين ، من أن تحكم فرنسا وتحمى فولتير وتنقذ موسوعة ديدرو ، مما أدى بالفلاسفة إلى القول بأنها تنتسب إليهم .. ومن العسير أن ننظر إليها فى الصورة التى رسمها لها بوشيه دون أن نفقد نزاهة المؤرخ فى الافتتان بالإنسان . فهل كانت دى بمبادور إحدى روائع الطبيعة ، أو إحدى روائع بوشيه فحسب ؟

وكانت قد بلغت الثامنة والثلاثين حين رسمها ، وكانت صحتها المزيلة تتدهور ، ولم يحط من قدرها بالحسية أو الشهوانية السطحية فى صوره العارية المشرقة . وبدلا من ذلك أبرز تقاطيع وجهها الرائعة ، ورشاقة قوامها ، والذوق فى ملابسها . والرقة الناعمة فى يديها ، « وتسريحة » شعرها الخفيف الأسمر عاليا فوق الجبين . وربما زاد من قيمة هذه المفاتن بخياله ومهارته ، ولكنه مع ذلك لم ينقل ضحكتها المرحة المستهترة ، ولا ريحها الوديعة ، بل لم ينقل ذكاءها الحاد الماكر ولا قوة شخصيتها الهادئة ، ولا صلابة إرادتها التى لا تلين ولا ترحم أحيانا .

وكانت جميلة منذ ولادتها تقريباً . ولكنها لم تحسن اختيار والديها ، فكان عليها أن تناضل طوال حياتها ضد إزدراء الاستقراطية للطبقة الوسطى التى نبتت فيها . وكان والدها سمانا (بقالا) ، وهو فرنسوا بواسون الذى لم يستطع يوما أن يتخلى من اسمه « السيد سمك » (بواسون بالفرنسية معناها سمك) . واتهم بالاختلاس فحكم عليه بالاعدام سنقاً ، ولكنه هرب إلى همبرج ، وتحايل للحصول على العفو عن جريمته ، وعاد إلى باريس

(١٧٤١) . أما والدتها فكانت ابنة « متعهد لتموين العجزة . » وشغلت بالارتماء فى أحضان الرجال ، بينما كان زوجها يستدر العطف فى همبرج . واستمتعت بعلاقة غرامية طويلة بملتزم ثرى ، هو شارل فرنسوا لينورمانت دى تورنهيم ، الذى تولى الانفاق على تعليم البنت الجميلة التى وضعتها مدام بواسون فى ١٧٢١ .

وأتيح لهذه الابنة ، جين أنطوانيت بواسون . أحسن ما يمكن أن يتاح من المعلمين ، جليوت ، الجهير العظيم ، للغناء ، وكربيون الأب لفن الإلقاء ، حتى باتت فى الوقت المناسب تنافس نجوم المسرح فى الغناء والرقص والتمثيل . وكان صوتها فى حد ذاته اغواء » . (١١٠) وتعلمت الرسم والحفر ، وعزفت على البيان القيثارى إلى حد تحمست له مدام دى ميللى فى استحسان عزفها . ولما كانت جين فى التاسعة من عمرها تنبأت لها سيدة عجوز (كافأتها فيما بعد على نبوءتها) بأنها ستصبح يوما ما « عشيقة الملك » (١١١) ولما بلغت الخامسة عشرة دعا جمالها وأعمالها البارعة أمها إلى القول بأنها « طبق شهى للملك » ، ولو أنه من المؤسف أنها لن تكون ملكة . (١١٢) ولكن « الطعام الشهى الملكى » كانت قد بدأت تسعل دما .

وفى سن العشرين أغراها مسيودى تورنهيم بأن تتزوج ابن أخيه شارل غليوم لينورمانت دى اتوال ، ابن أمين صندوق دارسك النقود . وهام الزوج بحب زوجته ، وقدمها إلى المنتديات مفاخرا مزهو بها . والتفت فى منتدى مدام دى تنسان بمونتسكيو وفونتنيل وديكلو وماريفو ، وأضافت فن الحديث إلى مفاتنها الأخرى . وسرعان ما استضافت هى نفسها ، مع فونتنيل ، مونتسكيو وفولتير فى بيتها . وكانت سعيدة . وأنجبت طفلين وأقسمت « أنه لن يحملها أحد فى العالم ، إلا الملك ، على أن تخون زوجها أو تكون غير مخلصة له » (١١٣) أية بصيرة نافذة هذه !

وفكرت الوالدة فى أن هذا الاستثناء من المستطاع تدبيره . ورأت أنه يمكن أن تقصد جين مستقلة مركبة فاخرة إلى غابات سينار حيث يذهب لويس للصيد . وكثيرا ما رأى الملك وجهها الذى لا يمكن نسيانه . وقدمت

الرشاوى إلى غلمان الملك ليطروا جمالها لديه . وفى ٢٨ فبراير ١٧٤٥ شهدت حفلة رقص تنكرية أقيمت فى أوتيل دى فيل بمناسبة زواج الدوفين ، وتحدثت إلى الملك ، وطلب منها أن تخلع القناع لحظة ، ففعلت ، ثم انصرفت وهى ترقص ، وفى أبريل رآها فى مسرحية هزلية تمثلها فرقة إيطالية فى فرساى . وبعد ذلك بعدة أيام أرسل إليها دعوة لتناول العشاء . ونصحتها أمها « بأن تسلى الملك وتدخل السرور على قلبه » وفعلت جين ، واستسلمت للملك . وعرض عليها جناحا فى فرساى فقبلت . وحث مسيو تورنهيم الزوج على أن يأخذ المسألة بروح فلسفية : « لا تعرض نفسك للسخرية بالاسترسال فى الغضب مثل أى برجوازى ، أو تخلق مشكلة »(١١٤) وعين الملك سيودى أتوال ملتزما عاما ، وكيف الرجل نفسه ليكون جامع ضرائب ، وابتهجت الأم بارتفاع مكانة ابنتها ، وقضت نحبها . وفى سبتمبر حصلت جين على ثروة عريضة ، وأصبحت المركيزة دى بمبادور ، وقدمت بهذه الصفة إلى الحاشية وإلى الملكة التى هدأت من روعها ولاطفتها فى ارتباك طفيف . إن الملكة غفرت لها باعتبارها شرا لا بد منه ، ودعتها للعشاء . أما الدوفين فإنه ، على أيه حال ، أطلق عليها « مدام هور » (السيدة البغى) واستاءت الحاشية لاقتحام سيدة برجوازية مخدع الملك واستيلائها على أمواله ، وما فاتهم أن يلحظوا انزلاقها من حين إلى حين إلى التفوه بألفاظ الطبقة الوسطى أو انتهاج أساليبها . وتمتعت باريس بالمقطوعات الساخرة والهجاء اللاذع « لخادمة الملك الشابة » . وعانت فى صمت وجلد بغض الناس لها ، حتى باتت قادرة على تثبيت انتصارها وفرض سلطانها .

وإذ رأت لويس وقد بلغ به السأم والضجر ذروته ، وهو الذى يملك كل شىء ، ولكن كل شىء كان قد فقد عنده كل نكهته وطلاوته ، فإنها تفننت وأظهرت عبقريتها فى تسليته والترفيه عنه . فألهته بحلبات الرقص والمسرحيات الهزلية والحفلات الموسيقية وروايات الأوبرا ، وحفلات العشاء والنزهات والصيد والقنص ، وفيما بين هذا وذاك أدخلت على قلبه البهجة والسرور بمرحها وحيويتها وحديثها البارع وذكائها . وأقامت فى فرساى

« مسرح البيت الصغير » ، وأقنعت الحاشية بالقيام بأدوار على المسرح ، كما كان الحال فى أيام لويس الرابع عشر ، ومثلت هى نفسها فى مسرحيات موليير الهزلية ، وقامت بدورها على خير وجه ، إلى حد أن الملك قال عنها « أشد النساء فتنة فى فرنسا » (١١٥) . وتنافس النبلاء على تمثيل الأدوار . وقام الدوفين الصارم نفسه بدور أمام « السيدة البغى » . وتفضل بأن يكون دمثا معها فى دنيا النفاق . وأصابت الملك بعض نوبات دينية ، فهدأت من روعه بالموسيقى الدينية التى عزفتها بشكل يأسر لبه ، حتى نسى خوفه من الجحيم . وأصبح يعتمد عليها كل الاعتماد لولعه بالحياة وتعلقه بها ، فأكل معها ، ولعب ورقص وقاد عربته واصطاد معها ، وقضى معها كل ليلة تقريبا . وما هى إلا بضع سنين حتى خارت قواها وتدهورت صحتها .

وشكا البلاط من أن مدام دى بمبادور صرفت الملك عن مهامه بوصفه حاكماً، وأنها كانت عبئاً ثقيلا على خزانة الدولة، فقد ازدانت بأغلى الثياب والجواهر ، وتألقت غرفة ملابسها بآنية الزينة المصنوعة من البللور والفضة والذهب . وازدانت حجراتها بالأثاث المطلى باللك أو الخشب الأطلسانى أو المطعم بالصدف والعاج والمعادن ، وأروع آنية الخزف المصنوعة فى درسدن وسيفر والصين واليابان ، وكانت تضاء بثريات فخمة من الفضة والزجاج ، تنعكس أنوارها على مرايا ضخمة على الجدران ، أما سقوفها فكانت مغطاة بالصور التى رسمها بوشية وفانلو لإلهات الحب التى تبهج الحواس وتثيرها . ولما أحست بأنها سجينة وسط هذا الترف والبذخ ، سحبت مبالغ طائلة من المال من الملك أو من الخزانة لتشيد أو تؤثث قصوراً وبررت تجهيزاتها المسرفة وحدائقها الشاسعة بأنها لازمة لاستضافة صاحب الجلالة . وكان لها الضيعة والقصر فى كريسى فى درى ، وشادت قصر « المنظر الجميل » الفخم على ضفاف السين بين سيفر ومودون . وأقامت صوامع أوأدياراً صغيرة فى غابات فرساى وفونتنبلو وكومبين واتخذت من « أوتيل دى بونشارتران » مقراً لإقامتها فى باريس ، ثم انتقلت إلى قصر كونت دى افرى فى شارع فوبورج سانت أونوريه ، ويبدو أن السيدة

الفاتنة أنفقت ما يبلغ فى جملته ٣٦,٣٢٧,٢٦٨ جنيها [١١٦] ، كان جزء منه فنا بقى فى حوزة فرنسا . وبلغت نفقاتها الخاصة ٣٣ ألف جنيه سنوياً [١١٧] . واتهمتها فرنسا بأنها كانت تكلفها أكثر مما تكلفها الحرب .

وجمعت دى بمبادور من السلطة والنفوذ قدر ما جمعت من الثروة وأصبحت المجرى الرئيسى الذى يفيض بالتعيينات والرواتب وأوامر العفو وغيرها من من النعم والعطايا من الملك . . وحصلت لذوى قرباها على المنح والهبات والألقاب والوظائف ذات العمل اليسير والدخل الكبير . ولم تهيىء لابنتها الصغيرة ألكسندرين التى كانت تسميها « فانفان » شيئاً يذكر ، ولكنها كانت تحلم بتزويجها لأحد أبناء لويس الخامس عشر من مدام دى فنتميل ، ولكن فانفان ماتت فى سن التاسعة ، وحطمت قلب أمها . أما أخوها آبل — الوسيم الدمث — فإنه بنفسه كسب عطف الملك الذى كان يدعوه « بالأخ الصغير » ، وكثيراً ما كان يدعوه إلى العشاء . ونصبته بمبادور مركيز دى ماريني وعينته مديراً عاماً للمبانى ، فقام بوظيفته فى جد وكفاية ، إلى حد رضى معه وسر به الجميع تقريبا . وعرضت بمبادور عليه أن ترقى به إلى مرتبة الدوق فرفض .

وانتشر أثرها على الفن الفرنسى بل الأوربى ، ويرجع هذا إلى حد ما إلى الملك ، ولكن أكبر الفضل فيه يرجع إلى شخصها هى . وأخفقت محاولاتها فى أن تكون هى بنفسها فنانة ، ولكنها أحبت الفن من كل قلبها ، وما لمست شيئاً إلا وصار جميلا . وازدهرت الفنون الصغيرة بشكل يبهر الألباب بفضل تشجيعها . وأقنعت لويس الخامس عشر بأن فرنسا تستطيع صنع الخزف اللازم لها ، بدلا من استيراده من الصين ودرسدن ، مما يكلفها ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً . وثابرت على ذلك حتى تعهدت الحكومة بتمويل مصانع الخزف فى سيفر ، واكتسب الأثاث وأدوات الأكل وساعات الحائط والمرواح والمركبات وأوانى الزهر والزجاجات والصناديق والنقوش على الأحجار الكريمة والمرايا ، واكتسب كل أولئك فتنة دقيقة سريعة الزوال حتى يتفق مع ذوقها الرفيع الذى يتطلب مهارة فائقة ،

وأصبحت « ملكة الروكوكو » [١١٨] . (فن الزخرفة المعقدة) . وكان قدر كبير من إسرافها فى النفقة يرجع إلى الرعاية التى أسبغتها على الرسامين والمثالين والنقاشين على الخشب والمعادن ونجارى الأثاث الفاخر والمعماريين . وأغدقت على بوشية وأودرى ولاتور ومائة غيرهم من الفنانين . وأوحت إلى فانلو وشاردان أن يصورا مشاهد الحياة العامة ، فأنهت بذلك التكرار المبتذل لموضعات من تاريخ العصور القديمة والوسطى وأساطيرها ، واحتملت فى تسامح باسم تلمر لاتور ووقاحته ، حين كان يرسم لها صورة . وأطلق اسمها على المراوح وتسريحات الشعر والثياب والأطباق والأرائك والكراسى والأشرطة ، وعلى « وردة بمبادور » المصنوعة من الخزف المفضل لديها ، وفى هذه الحقبة ، لا فى عهد لويس الرابع عشر ، على الأرجح ، بلغ تأثير فرنسا على المدنية الأوربية ذروته .

وربما كانت بمبادور أكثر نساء زمانها ثقافة . وكان لها مكتبة تضم ٣٥٠٠ مجلد منها ٧٣٨ فى التاريخ ، و ٣١٥ فى الفلسفة ، ومجلدات كثيرة فى الفن ، وبعض مجلدات فى السياسة أو القانون ، إلى جانب عدة قصص فى الحب . وواضح أنها إلى جانب تسلية الملك ومكافحة أعدائها والمساعدة على حكم فرنسا ، كانت تجد فسحة من الوقت لقراءة الكتب القيمة ، لأنها هى نفسها كتبت لغة فرنسية رائعة ، فى رسائل زاخرة بالمادة ساحرة البيان . وكم توسلت إلى حبيبها أن يبارى جده فى رعايته للأدب ، ولكن ورعه وبخله قعدا به عن ذلك . وعندما حاولت أن تخجله وتحرجه بقولها : بأن فردريك الأكبر أجرى على دالمبرت راتبا قدره ألف ومائتا جنيه ، أجاب بقوله « هنا أفذاذ أكثر مما فى بروسيا . وقد أكون مضطر إلى إقامة مأدبة عشاء كبيرة لأجمعهم كلهم » . وبدأ يعدهم على أصابعه « موبرتيوس ، فونتنيل ، لاموت ، فولتير ، فريرون ، بيرون ، ديتوش ، مونتسكيو ، كاردينال دى بوليناك » . وأضاف من كانوا حوله ، « دالمبرت ، كليرو ، كريبيون الابن ، بريفوست » . . وعندئذ تنهد الملك قائلا « حسناء معنى هذا أن كل هؤلاء كان يمكن أن يتناولوا الغداء أو العشاء معى طوال خمسة وعشرين عاماً [١١٩] » .

وعلى ذلك احتلت بمبادور مكان الملك فى رعاية الأدب . فأتت بفولتير إلى البلاط ، وأغدقت عليه ، وحاولت أن تحميه من سوء تصرفاته ، وساعدت مونتسكيو ، ومارمونتل ، وديكلوس ، وبيفون وروسو ، ويسرت انضمام فولتير وديكلوس إلى الأكاديمية الفرنسية . ولما سمعت بما يعانى كريبيون الأب من الفقر أجرت عليه راتباً ، وخصصت له جناحاً فى اللوفر ، وعاونت على إحياء مسرحيته « كاتيلينا » ، وأصدرت تعلياتها إلى إدارة المطبعة الملكية بإصدار طبعة أنيقة من روايات الكاتب العجوز . واختارت فرانسوا كيزنى طبيباً خاصاً لها وهو من أنصار المذهب الفزيوقراطى وخصصت له جناحاً تحت جناحها مباشرة فى فرساى ، وكانت تستقبل هناك ديدرو ودالمبرت وديكلوس وهلفيشيوس وترجو ، وغيرهم ، مما كان يمكن أن تكون أفكارهم مصدر إزعاج الملك ، ويروى مارمونتل : « ولما لم تكن تستطيع أن تدعو هذه المجموعة من الفلاسفة إلى « صالونها » فإنها كانت تنزل لهم لتجتمع بهم على المائدة وتتجاذب معهم أطراف الحديث [١٢٠] » .

وكان طبيعياً أن ينظر رجال الدين وجماعة الأتقياء فى الحاشية وعلى رأسهم الدوفين ، بعين الرعب والفزع إلى تدليل هؤلاء الكفار . وفوق ذلك ، كان معروفاً أن بمبادور كانت تؤيد فكرة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة ، بل حتى تجريدها من الصفة الدينية أو انتزاعها من يد الكنيسة ، إذا كان هذا هو المهرب الوحيد من إفلاس الدولة [١٢١] . وأشار اليسوعيون على كاهن اعتراف الملك أن يمتنع عن مناولته الأسرار ما دام يحتفظ بعلاقته بهذه العشيقة الخطرة [١٢٢] . ودافع أبناء الملك عن رجال الدين ، واستخدمت ابنته الكبرى هنريت التى يؤثرها بحبه ، نفوذها فى التفريق بينه وبين بمبادور . وكان عيد الفصح من كل عام مثار أزمة بين العاشقين . ففى ١٧٥١ أظهر لويس تلهفاً شديدا على تناول القربان المقدس . وفى محاولة منها لتهدئته واسترضاء كاهن الاعتراف ، الأب بيروسو ، واظبت على إقامة الشعائر الدينية وحضور القداس يومياً والصلوات بشكل يلفت الأنظار ، كما أكدت للكاهن أن علاقتها الآن بالملك علاقة

أفلاطونية بريئة تماماً . ولما لم يقتنع الكاهن بهـذا ، فإنه طلب إليها ، أن تغادر البلاط ، شرطاً مسبقاً للسماح للملك بتناول الأسرار المقدسة . ومات بيروسو ، ولكن خلفة ديمارتس وكان متشدداً مثله . وثبتت بمبادور فى مكانها ، ولكنها داومت على ورعها الظاهرى. ولم تغتفر قط لليسوعيين أنهم لم يأخذوا « تحولها » مأخذ الجد ، وربما كان لإستيائها منهم دور صغير فى طردهم من فرنسا فى ١٧٦٢ .

وربما كان قولها الحق فى أنه لم يعد لها اتصال جنسى بالملك لويس . وقد أكد دارجنسون أحد أعدائها هذه الحقيقة [١٢٣] . وكانت بالفعل قد أفضت إلى بعض خلصائها بأنها تجد مشقة متزايدة فى الإستجابة للنيران المتقدة بين جنبيه [١٢٤] ، راعترفت بأن عدم تحمسها لمضاجعته ذات مرة أوهن ما اشتد من قوته ، وأصابه عجز جنسى وتملكه الغضب [١٢٥] . وتناولت « عقاقير الحب» [١٢٦] دون نتيجة تذكر، اللهم إلا الإضرار بصحتها . وأدرك أعداؤها فى البلاط هذا الوضع فجددوا مؤامرتهم لإقتلاعها من مركزها . وفى ١٧٥٣ دبر دارجنسون خطة تنفذ بها مدام دى شوازيل رومانت إلى أحضان الملك ، ولكنها طالبت بثمن باهظ ظن أنه لا يتكافأ مع تضحيتها وسرعان ما تمكنت بمبادور من طردها . وهنا آن الأوان أن تأوى المحظية الأولى المنهوكة إلى « متنزه الظباء » البغيض .

وفى « متنزه الظباء » فى طرف ناء من فرساى جهز مسكن لإقامة شابة أو شابتين مع خدمهما ومرافقيهما حتى يحين الوقت ليستقبلهما لويس فى جناحه الخاص ، أو يقصد إليهما فى مسكنهما متنكراً فى زى كونت بولندى عادة . وتناثرت الشائعات بأن هؤلاء البنات كن كثيرات ، وأضـافت الأساطير أن سن بعضهن لم تزد على تسع سنوات أو عشر . والظاهر أنه لم يكن يوجد منهن فى وقت واحد أكثر من اثنتين [١٢٧] ، وكان يؤتى بمجموعات منهن على التعاقب ، ليتدربن على أن يقدمن للملك « حق السيادة » فإذا حملت إحداهن أعطيت مبلغاً من المال يتراوح بين عشرة آلاف ومائة ألف جنيه ، يساعدها على العثور على زوج لها فى الأقاليم ، وكان الأطفال

الذين يولدون عن هذا الطريق يمنحون راتباً سنوياً قدره أحد عشر ألف جنيه . وعلمت مدام دى بمبادور بأمر هذا « الحريم » الذى لا يصدق ، فلزمت الصمت . ورغبة منها فى ألا تحتل مكانها عشيقة من النبيلات ستعمل من غير شك على إبعادها عن البلاط ، بل ربما عن باريس ، آثرت أن تترك للشابات الوضيعات أن يشبعن أذواق الملك القاسده . وانهارت حالتها المعنوية إلى الحضيض وقالت لمدام دى هوست « كل ما أضن به هو قلبه ، وكل هؤلاء الفتيات غير المتعلمات لن يسلبننى إياه [١٢٨] » .

ولم تنزعج الحاشية إنزعاجاً ملموساً لهذه الترتيبات الجديدة لأن كثيراً من رجالها احتفظوا هم أنفسهم بأكواخ فى « منتدى الظباء » هذا لخليلاتهم [١٢٩]. ولكن أعداء بمبادور افترضوا أن سلطانها قد آذن بزوال . ولكن خاب فألهم ، فإن الملك ظل صديقها المخلص لفتره طويلة بعد أن انقطعت عن أن تكون « خليلته » . وكان فى ١٧٥٢ قد خلع عليها رسمياً لقب دوقة . وفى ١٧٥٦ ، وعلى الرغم من احتجاجات الملكة منحها المنصب الرفيع « مديرة قصر الملكة » (كبير وصيفات الملكة) . فلازمت الملكة ، وحضرت معها العشاء ورافقتها إلى القداس . ولما كانت وظيفتها الجديدة تقتضى الإقامة فى البلاط فإن اليسوعيين تنازلوا عن طلبهم إبعادها وألغى « الحرم من الكنيسة » الذى ظل مفروضاً عليها لفترة طويلة » ، وأجيز لها تناول الأسرار المقدسة . أما بنات الملك اللاتى ناصبنها العداء منذ زمن طويل فكن يقصدن إلى زيارتها فى « شوازى » .

وقضى لويس معها مدة ساعات فى كل يوم تقريباً ، حيث ظل يجد لذة فى طلاوة حديثها ورقتها الفاتنة التى لا تنضب معينها . واستمر يحترم ، وغالباً ما يتبع ، مشورتها فى التعيينات ، وفى المسائل الداخلية ، بل حتى فى السياسة الخارجية . وأصدرت الأوامر إلى الوزراء ، واستقبلت السفراء واختارت القواد ، وتحدثت أحياناً باسم الملك وباسمها ، وكأنها تشترك فى الحكم ، فكانت تقول « نحن » سننظر (فى الأمر) . وكان طلاب الوظائف يزحمون حجرة انتظارها ، فكانت تحسن استقبالهم وتلاطفهم . وسلم أعداؤها بسعة إطلاعها المدهشة فى الشئون السياسية ، ولباقتها فى الأحاديث الدبلوماسية ،

ونظراتها التى كثيراً ماكانت ثاقبة [١٣٠] . وكانت قد أشارت منذ زمن بعيد إلى أن عجز قواد فرنسا هو أساس اضمحلالها العسكرى . وفى ١٧٥٠ ، اقترحت على لويس أن ينشىء مدرسة حربية يتلقى فيها الفنون والعلوم العسكرية أبناء الموظفين والضباط الذين قتلوا أو استنزفت قواهم فى خدمة الدولة . ووافق الملك ولكنه أبطأ فى توفير الاعتمادات اللازمة للمشروع . فنقلت بمبادور إلى هذا المشروع دخلها الخاص لمدة عام ، ووفرت له أموالا إضافية عن طريق « يانصيب » ، وضريبة على لعب الورق ، وأخيراً فتحت المدرسة ١٧٥٨ مُلحقة « بقصر الانفاليد » .

والآن نصح هذا الوزير الساحر بلا وزارة بمراجعة جريئة لسياسة فرنسا الخارجية وإعادة تقييمها . وربما جاءت المبادرة بهذا « النقض المشؤوم للأحلاف » من كونت فون كونتز سفير النمسا فى باريس . وقد عززها التنازل الكاره من جانب الإمبراطورة التقية ماريا تريزا التى خاطبت بمبادور « بصديقتى العزيزة » ، و « ابنة عمى » ، كما عززها فردريك الأكبر بإشارته المهينة إلى المركيزة دى بمبادور « بحكم المرأة » فى البلاط الفرنسى . وكانت مدام دى شاتورو ودارجنسون قد وجها السياسة الخارجية نحو الصداقة مع بروسيا ، وأوضح كونتز وبمبادور أن بروسيا الحديثة — التى قويت بيلا نتصار فى حرب الوراثة النمسوية ، والتى لديها جيش قوامه ٥٠ ألف جندى أحسن تدريبهم تحت امرة قائد قدير طموح لا يبالى بأية مبادىء خلقية ، وملك غدر بفرنسا مرتين بتوقيعه صلحاً منفرداً — إن بروسيا هذه لا بد أنها سرعان ما تشكل خطراً أشد من خطر النمسا التى كانت قد فقدت آنذاك سيليزيا ، ولم تعد تتوقع أى عون أو تأييد من أسبانيا فى ظل حكم آل بوربون ، وقد انقضى تطويق النمسا لفرنسا . وقويت هذه الحجة حين عقدت بروسيا فى ١٦ يناير ١٧٥٤ تحالفاً مع انجلترا — عدوة فرنسا التقليدية ورد مجلس الدولة الفرنسى على هذا بإبرام تحالف مع النمسا (أرل مايو) . وهنا نجد أن المركيزة دى بمبادور التى عادت الآن تبصق دماً ، وكانت فى الخامسة والثلاثين ، ولم يبق لها من العمر إلا ثمان سنوات ، نجد أنها قد لعبت دورها فى التمهيد لاشعال حرب السنين السبع .

الفصل الثامن

الأخلاق والعادات

١ — التعليم

كان بين الصراعات الكثيرة الأساسية التى شهدتها فرنسا فى القرن الثامن عشر ، محاولة الكنيسة الاحتفاظ بسيطرتها على التعليم ، إلى جانب محاولة الفلاسفة وغيرهم إنهاء هذه السيطرة والقضاء عليها . وبلغ الصراع ذروته بطرد اليسوعيين من فرنسا فى ١٧٦٢ م، وتأميم المدارس الفرنسية ، وغلبة التعليم العلمانى فى الثورة الفرنسية . وكان الخلاف قد بدأ يبرز فى النصف الأول من القرن الثامن عشر فقط .

ولم تكن الغالبية العظمى من الفلاحين تعرف القراءة . وفى كثير من المجتمعات الريفية ، كانت الهيئات البلدية ، حتى إلى عام ١٧٨٩ ، « لا تكاد تعرف الكتابة »(١) . وكان فى معظم الأبرشيات على أية حال « مدرسة صغيرة » يقوم فيها الكاهن بنفسه ، أو من يعينه هو ، بتعليم القراءة والكتابة والدين المسيحى على صورة سؤال وجواب ، للأولاد الذكور أساساً ، فى مقابل رسم زهيد يدفعه الآباء عن كل تلميذ(٢) ، أما الأولاد الذين يعجز آباؤهم عن الدفع فكانوا يتعلمون بالمجان إذا طلبوا ذلك . وكان اللحاق بهذه المدرسة مطلوبا قانوناً بمقتضى مراسيم ١٦٩٤ و ١٧٢٤ ، ولكن هذه المراسيم لم تنفذ(٣) ، وامتنع كثير من الآباء الفلاحين عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة ، لحاجتهم إليهم فى المزرعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم رأوا أن التعليم أمر مزعج لا ضرورة له لمن قدر عليهم أن يشتغلوا فى الأرض. فالتعليم لم يكن يكفل أى ارتفاع فى المركز الاجتماعى لأن الحواجز الطبقية كانت عقبة لا يمكن التغلب عليها تقريباً فى النصف الأول من القرن . وفى القرى والمدن الصغيرة نادراً ما كان الذين تعلموا القراءة يقرأون شيئاً غير ما تعلق بعملهم اليومى . وكان كل إنسان يعرف قواعد الدين ، وفى المدن الكبيرة وحدها كان هناك شىء من المعرفة بالأدب والعلوم والتاريخ .

وفى الطبقات المتوسطة والعليا كان معظم التعليم على أيدى المربيات والمؤدبين ، أو المعلمين الخاصين ، وأخيرا على أيدى معلمي الرقص ، وهؤلاء الأخيرون كان مفروضاً فيهم أن يعلموا الجنسين كليهما الفنون الشاقة ، وهى فنون الجلوس والوقوف والمشي والحديث والإيماء ، فى كياسة ورقة . وتلقت بعض الفتيات دروساً خاصة فى اللاتينية ، وفوق هذا كله تقريباً ، تعلم الفقراء الغناء والعزف على البيان القيثارى . وقام التعليم العالى للبنات فى الأديار ، حيث ارتقين فى الدين والتطريز والموسيقى والرقص وقواعد السلوك القويم الذى يجدر بالشابة أو الزوجة أن تتحلى به .

وكان كل التعليم الثانوى للذكرر تقريباً فى يد اليسوعيين ، ولو أن الرهبان الأوراتوريين والبندكتيين أسهموا فيه . وكان المتشككون من أمثال فولتير وهلفيشيوس من بين الخريجين العديدين المرموقين فى كلية اليسوعيين « لويس الأكبر » حيث كان الأب شارل بوريه يقوم بتدريس « البلاغة » (أى اللغة والأدب وعلم الكلام) وترك فى تلاميذه ذكريات طيبة . وما كاد المنهج فى المدارس اليسوعية ليتغير طوال قرنين من الزمان . وعلى الرغم من تركيز هذا المنهج على الدين والأخلاق ، فإن مادته كانت كلاسيكية إلى حد بعيد ، فكان التلاميذ يدرسون مؤلفات رومه القديمة فى نصوصها الأصلية ، فأكب التلاميذ الصغار على دراسة الفكر الوثنى لمدة خمس أو ست سنوات ، فلا عجب أن ساورتهم بعض الريبة فى عقيدتهم المسيحية . وأكثر من هذا فإن اليسوعيين « لم يدخروا وسعا فى تنمية ذكاء تلاميذهم وغيرتهم » [٤] . فكانوا يشجعون على المناقشة والتحدث علانية وعلى تمثيل الروايات ، وكانوا يتعلمون قواعد لترتيب أفكارهم والتعبير عنها ، ومن ثم كان جزء من وضوح الأدب الفرنسي وصفاته من غرس المدارس اليسوعية ، وأخيرا تلقى الطالب مناهج قاسية فى المنطق والميتافيزيقا وعلم الأخلاق عن أرسطو من ناحية وفلاسفة العصور الوسطى السكولاسيين (المدرسين) من ناحية أخرى . وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن النتائج كانت تقليدية ، إلا أن عادة التفكير والاستنتاج والتعليل بقيت — وأصبحت بالفعل — علامة مميزة لهذا العصر

« عصر العقل » بوجه خاص . وكان الجلد بالسياط أيضا جزءا من المنهج ، حتى لطلاب الفلسفة ، ودون تميز فى المرتبة أو المكانة الاجتماعية ، فقد جلد من أصبح فيما بعد مركيز دارجنسون ودوق بوفلرز ، أمام أقرانهما فى الفصل ، لأنهما قذفا أساتذتهما الأجلاء بحبات البازلاء[٥] .

وعلت الشكوى بالفعل من أن المنهج لم يول عناية تذكر بما وصلت إليه المعرفة من تقدم وازدهار ، وأن التعليم كان نظرياً إلى حد كبير ، ولا يعد للحياة العملية ، وإن الإلحاح الشديد على التعليم الدينى قد أفسد الأذهان أو أغلقها . وفى « رسالة عن التعليم » كانت يوماً مشهورة (١٧٢٦-١٧٢٨) دافع شارل رولان رئيس جامعة باريس عن المنهج الكلاسيكى (القديم التقليدى) وعن التركيز على الدين . وكان من رأيه أن الهدف الأسمى من التعليم هو خلق أناس أفضل . وأفاضل المعلمين « لا يعنون كثيراً بالعلوم ، حيث لا تساعد هذه العلوم على التمسك بأهداب الفضيلة . ولم يكونوا يأبهون كثيراً بالتزود بألوان المعرفة ، إذا لم تقترن بالاستقامة وحسن الخلق . وكانوا يؤثرون الرجل الأمين على الرجل العالم الواسع الاطلاع[٦] . وقال رولان إنه من الصعب أن نشكل الخلق القويم دون تأسيسه على عقيدة دينية . ومن ثم « ينبغى أن يكون الهدف من جدودنا ، والغرض من تعليمنا هو الدين »[٧] وسرعان ما يثير الفلاسفة الجدل حول هذا الموضوع ، ويستمر الجدل حول ضرورة الدين للأخلاق طوال القرن الثامن عشر ، والقرن الذى يليه . وهو جدل حى فى أيامنا هذه .

٢ - الأخلاق

ويبدو أن حجة رولان كانت تؤيدها الفروق الطبقية فى المبادىء الأخلاقية . إن الفلاحين الذين تمسكوا بدينهم عاشوا حياة أخلاقية نسبياً ، وربما كان هذا ، على أية حال راجعاً إلى حقيقة أن الأسرة كانت وحدة الإنتاج الزراعى ، وأن الأب كان أيضا المستخدم أى صاحب العمل ، وكان نظام الأسرة يرتكز فى جذوره على نظام اقتصادى يفرضه تعاقب الفصول ومتطلبات الأرض . واستمسكت الطبقات الوسطى بقدر كبير من العقيدة

الدينية ، مما عزز سلطة الأبوين أساسا للنظام الاجتماعي . أما مفهوم الأمة باعتبارها رابطة من الأسرات عبر الأجيال ، فقد هيأ لأخلاقيات الطبقة الوسطى قوة التماسك والتقاليد . وكانت الزوجة البرجوازية نموذجا للجد والتقوى والأمومة . وكانت تتحمل آلام الوضع فى صبر وجلد ، وسرعان ما كانت تعود إلى عملها . وكانت قانعة ببيتها وعلاقاتها مع جيرانها ، وقليلا ما انزلقت إلى زخرف الدنيا الخداع التى يسخر الناس فيها من الاخلاص على أنه شيء عتيق بال . ونادرا ما نسمع عن حوادث الزنى عند زوجات الطبقة الوسطى . وضرب كل من الأب والأم معا مثلا رائعاً فى العادات القويمة والتمسك بالدين والحب المتبادل . وتلك هى الحياة التى خلد شاردان ذكرها معتزا بها ، فى لوحاته مثل « البركة » .

ومارست كل الطبقات أعمال البر والإحسان وكرم الضيافة . وكانت الكنيسة تجمع الصدقات وتوزعها . ودعا الفلاسفة المعادون للدين إلى عمل الخير ، وبنوا دعوتهم على أن هذا حب للإنسانية لا حب لله ، ومن ثم كانت « الإنسانية » الحديثة نتاجا للدين والفلسفة معا . وأمدت الأديار الجياع بالطعام ، وعنيت الراهبات بالمرضى ، وقامت المستشفيات وملاجيء الفقراء والأيتام والعجزة على الأموال التى تدفعها الدولة والكنيسة والنقابات . وكان بعض الأساقفة مبذرين منصرفين إلى متاع الدنيا . ولكن نفراً آخر منهم — مثل أساقفة أوكسير وميربوا وبولون ومرسيليا — وهبوا ثرواتهم وحياتهم لأعمال البر والاحسان . ولم يكن موظفو الدولة مجرد طالبي مناصب أو نفعيين طفيليين ، فإن موظفى بلدية باريس كانوا يوزعون الطعام وحطب الوقود والنقود على الفقراء » وفى ريمس خصص أحد أعضاء البلدية ٥٠٠ ألف جنيه للصدقات . وكان بالملك لوس الخامس عشر نزعات إلى الشفقة والعطف والحنان المشوب بالجبن . وعند ما خصص مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه للألعاب النارية احتفالا بمولود دوق برجندى الجديد (١٧٥١) ، ألغى الملك العرض وأمر بتوزيع المبلغ مهوراً لستمائة من أفقر بنات باريس ، وحذت مدن أخرى حذوه . وعاشت الملكة عيشة مقتصدة غير مسرفة وأنفقت معظم

دخلها فى الأعمال الخيرية . وكذلك أنفق دوق أورليان ابن الوصى المشاغب الخليع ثروته فى أعمال البر والإحسان . ويبدو الجانب غير المشرق فى هذا الموضوع فى الفساد والإهمال اللذين شوها إدارة المؤسسات الخيرية . فهناك عدة أمثلة لمديرى مستشفيات استولوا لأنفسهم على الأموال التى كانت تصلهم من أجل العناية بالمرضى والفقراء .

وعكست الأخلاقيات الاجتماعية طبيعة الإنسان — أنانى وكريم ، وحشى ولطيف ، يخلط بين قواعد اللياقة وسفك الدماء فى المعركة . ولعب رجال الطبقات العليا والدنيا ونساؤها الميسر فى تهور بالغ ، دون إحساس بالمسئولية وبددوا ثروات أسراتهم ، وكان الغش فى اللعب سائداً إلى حد كبير [٨] . وفى فرنسا ، كما كان الحال فى انجلترا . أفادت الحكومة من حب الناس للمقامرة بإنشاء « يانصيب » وطنى . أما أسوأ مظاهر الحياة الفرنسية وأكثرها مجافاة للأخلاق فهو تبذير أرستقراطية الحاشية البالغ الخالى من الرحمة ، تلك الأرستقراطية التى كانت تعيش على الدخول التى كانت تبتزها من الفلاحين الفقراء . فإن ملاءات سرير الدوقة دى لافرى كانت مشغولة بالمخرمات الغالية الثمن ، وتكلفت ٤٠ ألف كراون ، وكانت لآلىء ومجوهرات مدام اجونت تساوى ٤٠٠ ألف كراون [٩] ، وكانت الخيانة والخداع أمرين عاديين مألوفين فى أعمال الموظفين . واستمر بيع الوظائف والمناصب ، وكان مشتروها يستغلونها فى الاثراء غير المشروع تعويضاً لهم عما دفعوا فيها ولم يكن قدر كبير مما يجبى من الضرائب يصل إلى خزانة الدولة . وفى غمرة هذا الفساد نمت روح الوطنية ، ولم يكف الرجل الفرنسى عن حب فرنسا ، ولم يطق الرجل الباريسى أن يعيش طويلا بعيداً عن باريس . وامتاز كل فرنسى تقريباً بالبسالة . وفى حصار ماهون ، ورغبة من المارشال دى ريشيليو فى منع جنوده من تعاطى المسكرات ، أصدر هذا القائد قراراً يقول فيه « أن أى فرد منكم يوجد ثملا فى المستقبل لن يكون له شرف الاشتراك فى الهجوم » فتوقف شرب الخمر تقريباً [١٠] ، واستمرت المبارزة على الرغم من كثرة قرارات تحريمها . قال لورد تشستر فيلد « إن المرء ليلحقه الخزى والعار إذا لم يثر للإهانة ، وإنه ليلقى حتفه إذا استاء لها [١١] »

وكان عقاب اللواط الإعدام حرقاً ، ولكن هذا القانون كان ينفذ فى الفقراء وحدهم ، كما حدث مع أحد رعاة البغال ١٧٢٤ . وفى ١٧٢٥ ألقى القبض على الراهب ديفونتين ، الذى كان قد اشتغل بالتدريس فى إحدى الكليات اليسوعية لمدة خمسة عشر عاماً ، واتهم بمثل هذه الفعلة ، فأهاب بفولتير لمساعدته ، فنهض فولتير من فراش مرضه قاصداً إلى فونتينلو ، واستحث فلبرى ومدام دى برى لاستصدار عفو عنه [١٢] ، وطيلة العشرين عاما اللاحقة كان ديفونتين من ألد أعداء فولتير . وكان بعض خدم الملك منحرفين جنسيا . ويبدو أن أحدهم ، وهو تريمو ويل ، اتخذ من الملك دى الستة عشر ربيعاً غلاما له [١٣] .

وانتشر البغاء بين الفقراء والأغنياء . وفى المدن الصغيرة كان أصحاب الأعمال ينقدون مستخدماتهم الأناث مبالغ لا تفى بنفقاتهن الضرورية ، وأجازوا لهن أن يكملن أجورهن اليومية بالاستجداء وممارسة الدعارة ليلا [١٤] . وقدر كاتب معاصر عدد البغايا فى باريس بأربعين ألفاً . وهناك تقدير آخر بأنهن ستون ألفاً [١٥] وكان الرأى العام — فيما عدا الطبقة الوسطى متسامحاً مترفقاً بأمثال هؤلاء النسوة ، حيث أدرك أن كثيراً من النبلاء ورجال الدين ووجوه المجتمع ساعدوا على خلق هذا الطلب الذى أدى إلى هذا العرض ، وتذرع الرأى العام بشىء من اللياقة ، فأدان الفقيرات اللاتى يبعن أعراضهن أقل مما أدان الذين يشترون المتعة . أى أن مسئولية هؤلاء عن هذا العمل الشائن أكبر . وكانت نظرة رجال الشرطة إلى هذا الأمر تختلف عن ذلك اللهم إلا إذا قدمت شكوى خاصة أو عامة ضد هؤلاء « البنات » وهنا يتم الاعتقال بالجملة . تبرئة لساحة الحكومة ، وعندئذ يساق النساء للمثول أمام أحد القضاة ، وقد يحكم القاضى بايداعهن السجن أو المستشفى ، حيث تحلق رءوسهن بالموسى ويعاقبن ويوضعن تحت المراقبة ثم يطلق سراحهن . وتنمو شعورهن من جديد . وإذا خلقن متاعب جمة لأحد ذوى النفوذ والسلطان أو أسأن إليه ، فيمكن ارسالهن إلى لويزيانا . وعرضت محظيات الحاشية أو المومسات اللاتى يتردد عليهن

الأغنياء ، مركباتهن وحليهن ومجوهراتهن فى طريق «كور - لا - رين» فى باريس ، أو فى متنزه «لونجشامب» [١٦] . وإذا حصلن على عضوية الكوميدى فرانسيز أو الأوبرا ، حتى لتمثيل الأدوار القصيرة ، اكتسبن الحصانة ضد الاعتقال بتهمة بيع مفاتنهن أو أعراضهن . وارتفع بعضهن ليكن نماذج للفنانين (لرسم الصور العارية) ، أو يتخذهن النبلاء ورجال المال أخدانا لهم خاصة . واقتنص بعضهن أزواجاً ، وحصلن على ألقاب وثروات ، وأصبحت واحدة منهن بارونة سانت شاموند .

وكانت الزيجات القائمة على الحب ، دون موافقة الأبوين ، تزداد فى عددها وفى الإنتاج الأدبى . وكان من الممكن الاعتراف بشرعيتها إذا عقدت أمام كاتب العدل أو الموثق . ولكن فى معظم الأحوال ، حتى بين الفلاحين ظل الآباء هم الذين يرتبون أمر الزواج باعتباره اتحاداً بين الممتلكات والأسرات ، لا مجرد اتحاد الأفراد . فالأسرة ، لا الفرد ، هى وحدة المجتمع ، ومن ثم كانوا يرون أن بقاء الأسرة وممتلكاتها أهم من الملذات العابرة أو العواطف السريعة الوهن عند الشباب المتهور . وفوق هـذا قال فلاح لابنته «الحظ أقل عمى من الحب [١٧] » .

وكانت السن القانونية للزواج هى الرابعة عشرة للذكور والثالثة عشر للإناث . ولكن كان يمكن قانوناً أن تتم الخطبة فى سن السابعة ، وهى التى حددها فلاسفة العصور الوسطى مبدأ «سن العقل» وكانت الشهوة الجامحة عند الشبان تدفع بهم إلى مطاردة الآنسات مطاردة عنيفة ، إلى حد أن الآباء زوجن بناتهن حالما كان ذلك ممكناً ميسوراً تفادياً لإنفضاض البكارة قبل الأوان ، وهكذا كانت المركيزة دى سوفبيف أرملة فى الثالثة عشرة من عمرها . ولزمت بنات الطبقتين الوسطى والعليا الدير حتى يتم اختيار الأزواج لهن ، وعندئذ يعجل بهن من حياة الدير إلى حياة الزوجية ، وكان لزاماً تشديد الحراسة عليهن فى الطريق . وبهذا النظام القاسى المنافى للأخلاق السيىء ، كان كل النساء تقريباً عذارى عند الزواج .

وإذ احتقرت الأرستقراطية الفرنسية التجارة والصناعة ، ونادراً ما

غطت الدخول الإقطاعية نفقات الإقامة فى البلاط وما تقتضيه من مظاهر ، فإنها وطنت النفس على تزويج أبنائها للذين توافرت لهم الأرض ولم يتوافر لديهم المال ، من بنات الطبقة البرجوازية العليا اللائى لا يملكون أرضاً ، ولكن يملكن مالا . ولما اعترض ابن دوقة شولن على زواجه من ابنة التاجر بونييه ذات الصداق الكبير . أوضحت له أمه « أن زواج المنفعة ممن هى دونك مرتبة ، هو مجرد حصولى على الروث لتسميد أرضك »[١٨]. وفى مثل هذه الزيجات عادة ، كان الزوج النبيل أو ذو اللقب . وهو يستغل أموال زوجته ، يذكرها من حين لآخر بأصلها الوضيع ، وسرعان ما يتخذ خليلة . وفى هذا خير شاهد على احتقاره لزوجته . ولم يغب هذا أيضاً عن ذاكرة الطبقة الوسطى حين ساعدت الثورة .

ولم يوصم الزنى بأية وصمة عار اجتماعى ، فى البيئة الأرستقراطية ، بل كان أمراً مقبولا باعتباره بديلا ساراً عن الطلاق الذى حرمته الديانة الوطنية . وقد يتخذ الزوج الذى يخدم فى الجيش أو فى الأقاليم له خليلة ، دون أن يبدى لزوجته سبباً مقبولا للشكوى . وقد يفترقان الواحد منهما عن الآخر ، بالخدمة فى الحاشية أو فى الضيعة ، وهنا أيضاً قد يتخذ خليلة ومذ كان عقد الزواج يتم دون الزعم بأن العاطفة يمكن أن تتجاوز عن الثراء فإن كثيراً من الزوجين من النبلاء عاشا فترة طويلة من حياتهما منفصلين ، وأباح كل منهما للآخر زلاته ، شريطة أن تكون هـذه الزلات مستورة بلباقة ، كما تكون فى حالة المرأة مقصورة على رجل واحد فى نفس الوقت وأجرى مونتسكيو على لسان سائحه الفارسى قوله : « إن الرجل الذى يريد أن يستحوذ على زوجته له هو وحده يعتبر معكراً لصفو السعادة العامة ، غبياً يريد أن يستأثر بالاستمتاع بضوء الشمس ، ويحجبها عن سائر الناس [١٩]». وسئل يوماً دوق دى لوزون الذى لم يكن رأى زوجته طيلة عشر سنين ، ماذا يقول لو أن زوجته أرسلت إليه تنبئه بأنها حامل ، فأجاب ، مثل أى سيد ماجد فى القرن الثامن عشر : « أكتب إليها لأقول إنى مبتهج فرح لأن الله بارك زواجنا ، اعتنى بصحتك ، سأحضر لأقدم لك احتراماتى هذا المساء [٢٠] » فالغيرة كانت أمراً مرذولا .

وكان بطل الزنى وفتى العصر ونموذج الإناقة فى ذاك الزمان هو لويس فرانسوا أرمان دى فينيرو دى بلسيس ، دوق ريشيليو حفيد أخى الكاردينال الصارم المتقشف . وقد انزلقت إلى مخدعه عدة سيدات نبيلات من ذوات الألقاب ، الواحدة تلو الأخرى ، تجرهن إليه مكانته وثروته وشهرته . ولما وبخ ابنه وهو العاشرة من عمره على بطء تقدمه فى دراسته اللاتينية ، أجاب فى سرعة مفحمة : « أن أبى لا يعرف اللاتينية ، ولكنه مع ذلك يحظى بأجمل نساء فرنسا [٢١] » . وهذا لم يمنع اختياره للاكاديمية الفرنسية قبل فولتير ، صديقه ودائنه ، بثلاث وعشرين سنة . وكان فولتير يكبره بعامين . ومهما يكن من أمر فإن الرأى معام استهجن سلوك هذا الدوق لأنه كان يجلب إلى الملك النساء لهذا الغرض الدنىء . ومنعته جيوفران من التردد على ندوتها لأنه يجمع بين عديد من أمهات الكبائر [٢٢] » . وعمر حتى بلغ الثامنة بعد التسعين ، ومات قبل قيام الثورة بعام واحد .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين على هذا النحو ، فإننا نستطيع أن نتصور مصير أبنائهما . كان النبلاء يعتبرون صراحة أن أبناءهم عوائق فى طريقهم ، ويدفعون بهم عند ولادتهم إلى المرضعات ، ويتولى تنشئتهم مربيات ومعلمون خاصون ، حيث يرون والديهم بين الحين والحين . وروى تاليران أنه لم ينم قط تحت السقف الذى نام تحته أبوه وأمه . وكان من رأى الأبوين أنه من الحكمة أن يباعدوا بينهم وبين أبنائهم ، فكانت العلاقة الحميمة أمرا شاذا ، وكانت الألفة أمرا غير معروف . فخاطب الابن أباه بقوله « سيدى » وقبلت البنت يد أمها . وإذا كبر الأبناء أرسلوا إلى الجيش أو الكنيسة أو الدير . وكانت كل الممتلكات تؤول إلى الابن الأكبر ، كما كان الحال فى إنجلترا .

واستمر أسلوب الحياة هذا سائدا فى نبلاء الحاشية ، حتى ارتقاء لويس السادس عشر عرش فرنسا فى ١٧٧٤ . وكشف هذا الأسلوب ، من جهة أخرى ، عن فقدان الإيمان بالدين عند الطبقات العليا . وتخلى الناس تماماً عن مفهوم الزواج فى المسيحية ، مثله فى ذلك مثل بمفهوم الفروسية فى

العصور الوسطى . وأصبح الجرى وراء اللذة والمتعة « وثنيا » بشكل أشد سفورا منه فى أى وقت منذ عصر رومه الامبراطورية المضمحلة . ونشرت كتب كثيرة فى « الأخلاقيات فى فرنسا فى القرن الثامن عشر » ، ولكن كانت هنالك أيضاً كتب كثيرة تعالج البذاءة والفحش بطريقة مدروسة متعمدة ، وكانت أوسع انتشارا ورواجاً ولو كانت سرية . وكتب فردريك الأكبر يقول « إن الفرنسيين ولا سيا سكان باريس ، أصبحوا الآن مترفين متغمسين فى الملذات ، أوهنتهم المتعة والدعة »[٢٣] وحوالى ١٧٤٩ رأى مركيز دارجنسون فى إنحطاط الوعى الخلقى نذيرا آخر بكارثة وطنية : « القلب قوة نسلب أنفسنا إياها كل يوم لأننا لا نروضه ولا ندربه أبدا . على حين أننا نشحذ الذهن ونصقله باستمرار ، فنصبح عقلانيين -لا عاطفيين- أكثر فأكثر . . . وإنى لأتنبأ بأن هذه المملكة لا بد هالكة ، نتيجة لاخماد القوى التى تنبع من القلب ، إننا لا نكسب أصدقاء ، ولم نعد نحب عشيقاتنا ، فكيف نحب بلادنا ؟ . . . إن الناس يفقدون يوما بعد يوم تلك الخلة الحميدة التى نسميها رقة الشعور . ويختفى الحب والحاجة إلى الحب . . . وحسابات المصلحة تشغلنا وتستنزفنا دائماً . وكل شيء سبيل إلى الدسيسة والمكيدة . . . وتنطفيء جذوة النار الداخلية (العواطف) لأننا لا نغذيها ، ومن ثم يزحف الشلل إلى القلب[٢٤] » .

وهذا هو صوت بسكال يردد مذهب طائفة بورت رويال (مذهب الجانسنيين) وصوت روسو ، قبل ظهور جثن بجاك بجيل واحد ، أو صوت الأرواح المرهفة الحس فى أى عصر من عصور القلق الفكرى والتحرير ، ولسوف يطرق أسماعنا ثانية .

٣ ـ العادات

لم ير التاريخ قط أخلاقيات طائشة مثل هذه ، مزخرفة مموهة بتهذيب ورقة فى السلوك وأناقة فى الملبس والحديث ، وتنوع فى المتع والملذات ، وفتنة فى النساء ، وكياسة متأنقة فى المراسلات ، وإشراق فى الفكر والذكاء :

« ولم يوجد قط فى فرنسا من قبل ، أو فى أوربا المعاصرة . . . بل ولا فى العالم منذ وجد العالم ، مجتمع مهذب ذكى مبهج ، مثل المجتمع الفرنسى فى القرن الثامن عشر » [٢٥] قال هيوم فى ١٧٤١ إن الفرنسيين « أتقنوا بدرجة كبيرة ذلك الفن ، وهو أنفع الفنون وأليقها ألا وهو فن الحياة ، فن المجتمع ، فن الحديث » [٢٦] . ولم تستخدم كلمة « مدنية » إلا فى أخريات هذه الحقبة ، فلم تظهر فى قاموس جونسون ١٧٥٥ ، ولا فى « المعجم الكبير » الذى صدر فى ٣٠ مجلدا فى باريس فى ١٧٦٨ .

وأحس الفرنسيون بالمدنية بوجه خاص فى ملابسهم ، ونافس الرجال النساء منافسه كبيرة فى العناية بالثياب . واقتضى الزى العصرى السائد أن يلبس أفراد الطبقة العليا قبعات كبرى ذوات ثلاث زوايا ، مزدانة بالريش والأشرطة الذهبية ، ولما كانت هـذه القبعات تفسد ترتيب شعورهم المستعارة ، فإنهم وضعوا القبعات عادة تحت أذرعتهم . وكانت الشعور المستعارة آنذاك أصغر مما كانت عليه أيام الملك العظيم (لويس الرابع عشر) ، وكانت أكثر شيوعا حتى بين الحرفيين . وكان فى باريس ألف ومائتا حانوت للشعور المستعارة ، يعمل فيها ستة آلاف عامل . وكان الشعر الطبيعى والمستعار يدهن بالمساحيق . وكان شعر الذكور طويلا عادة ، ويلم بشريط أو فى كيس وراء الرقبة . وكانوا يرتدون سترة طويلة زاهية اللون — من المخمل عادة — فوق البذلة الداخلية التى تكشف عن صدرة مفتوحة عند الحلق ، وعن قميص حريرى رقيق ، ورباط عنق عريض ، وأكمام تنتهى إلى « كشكشات » مزخرفة عند المعصم . وكانت « بنطلونات » الركوب القصيرة ملونة ، والجوارب من الحرير الأبيض . وكانت الأحذية تشد بمشابك من فضة . ولبس أفراد الحاشية أحذية ذات كعوب حمراء ، علامة مميزة لهم . واستخدم بعضهم عظام فك الحوت ليحتفظوا بأذيال ستراتهم ممتدة على نحو صحيح . وتزين بعضهم بالماس فى عرى ستراتهم . وكان الجميع يحملون سيوفا . وحمل بعضهم العصى . وكان حمل السيف محرما على الخدم وغلمان الحرفيين والموسيقيين [٢٧] . وكانت ملابس أفراد الطبقة البرجوازية

بسيطة : سترة و « بنطلون » قصير من قماش عادى قاتم ، وجوارب صوفية سوداء أو رمادية ، وأحذية ذات نعال سميكة وكعوب وطيئة . وارتدى الحرفيون وخدم المنازل الأردية التى كان الأغنياء ينبذونها . وتذمر ميرابو الأكبر من أنه كان لا يستطيع التمييز بين الحداد واللورد !

وظلت السيدات تتمتعن بحرية أرجلهن داخل الرحاب الفسيح لتنوراتهن ذات الأطواق الموسعة . وشجب رجال الدين النساء اللائى ارتدين مثل هذه التنورات « بأنهن اناث قردة أو أعوان الشيطان » ولكن النساء أحببنها لأنها تضفى عليهن جلالا حتى ولو كن حبالى . وتروى مدام دى كريكى « أنها لم تستطع أن تهمس أذن مدام دى اجمونت لأن التنورة ذات الأطواق الموسعة حالت دون اقتراب الواحدة منهما من الأخرى » (٢٨) أما حـــذاء السيدة ميلادى « ذو الكعب العالى والمصنوع من جلد ملون والمرصع بتطريزات من الذهب والفضة — فقد أضفى على قدميها فتنة تسلب الألباب إذا لم يراهما أحد . وارتقى صانع حذائها إلى مصاف البرجوازية العليا بسبب إبداعه فى فنه ، وكم من قصة حب كتبت عن قدم جميلة ، وهى عادة حذاء جميل وكان مثيرا إلى مثل هذا الحد تقريباً ، ذلك « الخف » المزين برسوم الأزهار ، الذى لا نعل له ، والذى كانت تلبسه ميلادى فى البيت . وكانت مقيدة أيضا الأهداب والحواشى والمراوح والملابس التحتية المزخرفة التى كانت تجذب عين الرجل الزائغة أو تخفى جسم المرأة الحائرة فى كل ناحية . وكان مشد الخصر والردفين (الكورسيه) المصنوع من عظام فك الحوت يساعد على تشكيل هذا الجسم فى القوام الأنيق الذى يقتضيه العصر ويلائم المكانه الاجتماعية . وبرز جزء معقول من الصدر ليشهد بالامتلاء المناسب المريح . وكان الحلاقون وضيعين بسطاء . ولم تظهر تسريحة الشعر العالية إلا فى ١٧٦٣ . وعالجت مستحضرات التجميل والتطرية لليدين والذراعين والوجه والشعر . وتخلف الرجال قليلا عن النساء فى استخدام العطور . وكان وجه السيدة ينقش ويطلى بالمساحيق ، وتوضع عليه بطريقة بارعة لصوق تجميلية أو شامات من الحرير الأسود مقطعة على شكل قلوب

أو قطرات من الدموع أو أقمار أو نيازك أو نجوم ، ويمكن أن يكون للسيدة العظيمة سبع أو ثمان من هذه اللصوق على جبهتها ، وصدغيها وقرب عينيها وعلى جوانب الفم . وكانت تحمل صندوقاً للصوق فيه شامات إضافية تعوض بها ما قد يتساقط منها . وكانت المائدة فى حجرة ملابس السيدة الغنية تتألق بالأدوات والمواد اللازمة لها — صناديق من الذهب والفضة أو الحجر اللازوردى ، مخصصة لحفظ أدوات الزينة . وتلألأت الجواهر الثمينة على الذراعين والرقبة والأذنين والشعر . وكان يسمح للرجال ذوى الحظوة بالدخول إلى حجرة ملابس السيدة ميلادى ليجاذبوها أطراف الحديث ، بينما كانت وصيفاتها تقمن باعدادها لبرنامج اليوم . وكان الرجال فى الطبقة الارستقراطية عبيداً للنساء كما استعبدوا للزى السائد للنساء ،أما الزى فيحدده مصممو ملابس النساء . وبعد ١٧٠٤ أعرضت فرنسا عن محاولات تحديد الزى أو الملابس ، عن طريق قوانين ضبط الإنفاق . واتبعت أوربا الغربية بصفة عامة أزياء فرنسا ، ولكن كانت هناك أيضاً موجة معاكسة فإن زواج لويس الخامس عشر من مارى لزكزنسكا أتى بطرز بولندية وأدخلت الحرب ضد النمسا والمجر أزياء مجرية ، وعمل زواج الدوفين من الأميرة الإسبانية ماريا تريزا رافاييلا على انتشار « الطرحة » فى فرنسا من جديد .

ولم تكن وجبات الطعام منمقة مزخرفة مثل الثياب ، ولكنها تطلبت علما دقيقاً متنوعاً ، كما تطلبت فناً رقيقاً . وكان المطبخ بالفعل النموذج الذى يحتذى فى العالم المسيحى ومكمن الخطر فيه . وفى ١٧٤٩ حذر فولتير قومه من أن وجبات الطعام الثقلية التى يتناولونها « قد تصيب آخر الأمر أذهانهم بالتبلد » [٢٩] . وضرب مثلا طيباً للغذاء البسيط وسلامة العقل والفطنة . وكلما ارتقت الطبقة ، ازداد ما تتناول من طعام . وعلى هذا كانت وجبة العشاء على مائدة لويس الخامس عشر تتكون من حساء ، وشواء من لحم البقر ؛ وطبق من لحم العجل ، وبعض الدجاج ، والحجل والحمام ، ثم الفاكهة الطازجة والفاكهة المحفوظة [٣٠] ويقول فولتير « كان نفر قليل من الفلاحين يذوقون طعم اللحم لأكثر من مرة واحدة فى الشهر » [٣١] .

وكانت الخضروات ضرباً من الترف فى المدينة حيث كان يصعب الاحتفاظ بها طازجة . وانتشر أكل السمك « الأنقليس » . وكان بعض السادة الكبار ينفقون ٥٠٠ ألف جنيه سنوياً على المطبخ ، وأنفق أحدهم ٧٢ ألف جنيه على مأدبة عشاء أعدها للملك والحاشية . وكان رئيس الخدم فى البيوتات الكبيرة شخصية مهيبة تثير الإعجاب ، يلبس ثياباً فاخرة ثمينة ، ويحمل سيفاً ، ويتألق فى أصبعه خاتم من الماس . وكانت النساء الطباخات موضع ازدراء واحتقار ، وكم طمع الطباخون وجهدوا فى ابتداع أطباق جديدة ليخلدوا أسماء سادتهم ، فأكلت فرنسا طبق شرائح لحم عجل المنظر الجميل (بل ڤ) — قصر مدام دى بمبادور المفضل لديها — « ودجاج فيلروا» وصلصة الميونيز ، تخليداً لذكرى انتصار ريشيليو فى « ماهون » [٣٢] . وكانوا يتناولون الأكلة الرئيسية فى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ، والعشاء فى التاسعة أو العاشرة ليلا .

وكانت القهوة آنذاك تنافس النبيذ شراباً . ولا بد أن ميشيليه (المؤرخ الفرنسى ١٧٩٨ — ١٨٧٤) أحب القهوة كثيراً ، حيث رأى أن تزايد تدفق البن من شبه الجزيرة العربية والهند وجزيرة البوريون والبحر الكاريبى أسهم فى انتعاش الروح الذى ميز عصر الاستنارة [٣٣] . وكانت كل صيدلية تبيع البن حبوباً أو القهوة المعدة للشراب على المنضـدة الطويلة بداخلها . وفى ١٧١٥ كان فى باريس ٣٠٠ مقهى ، وفى ١٧٥٠ زادت إلى ٦٠٠ ، كما وجد منها عدد مناسب فى كل مدينة فى الأقاليم وفى مقهى « بروكوب» وكان يسمى أيضاً « كاف الكهف لأنه كان دائماً مظلماً » كان ديدرو ينشر أفكاره ، كما كان فولتير يقصد إليه متنكراً ليسمع التعليقات على أحدث رواياته . وكان مثل هذا المقهى منتدى العامة حيث يلعبون الشطرنج أو « الضامه » أو « الدومينو » ، وفوق هذا وذاك يتجاذبون أطراف الحديث لأن الناس ازداد شعورهم بالوحدة والوحشة بازدياد السكان فى المدن .

وكانت الأندية عبارة عن مقاه خاصة ، عضويتها مقيدة ، وتغلب عليها رعاية مصالح من نوع محدد . وحوالى ١٧٢١ أسس الراهب آلارى نادى

« دى لا ترسول » (عبارة عن طابق مسروق بين الطابق الأرضى والطابق الذى فوقه ، فى دار الراهب ، حيث كان يجتمع نحو عشرين من رجال السياسة والقضاء والحكم والأدب ليتدارسوا شئون الساعة، دينية أو سياسية وكان بولنجبروك هو الذى جاء بهذا الاسم فأدخل لفظة CLUB إلى اللغة الفرنسية ، وهناك شرح الراهب دى سانت بيير براجه للإصلاح الاجتماعى والسلام الدائم ، مما أزعج بعضها الكاردينال فليرى فأمر بفض النادى فى ١٧٣١ . وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس أيضاً أنصار جيمس الثانى اللاجئون من انجلترا فى باريس أول دار فرنسية للبنائين الأحرار (الماسونيين) ، كانت ملجأ للربوبيين ، ووكراً للدسائس السياسية ، وأصبحت منفذاً للنفوذ الإنجليزى ومهدت الطريق للفلاسفة .

إن الرجال والنساء ، وقد أصابهم الضجر والسأم من الكدح والنصب فى أعمالهم اليومية كانوا يقصدون زرافات ووحدانا إلى المتنزهات وقاعات الرقص والمسارح وفرق الموسيقى والأوبرا ، وأولع الأثرياء بالصيد والقنص والبرجوازيون بالنزهات الخلوية . وكانت غابة بولونيا والشانزلزية وحدائق التويرلرى وحدائق لكسمبرج وحديقة النباتاب أو حديقة الملك ، كما كانوا يسمونها آنذاك — أماكن مفضلة للتنزه فى المركبات أو مشياً على الأقدام ، ولقاء العشاق وعروض عيد الفصح . أما إذا لزم الناس بيوتهم فإنهم كانوا يتسلون بالألعاب المنزلية والرقص والموسيقى والتمثيليات الخاصة . وكان كل إنسان يرقص . وكان « البالية » قد أصبح فناً ملكياً معقداً . ظفر الملك فيه بنصيب من حين إلى حين. وكان راقص الباليه مثل كامارحو أو لاجوسان معبود الجماهير فى المدينة ومشتهى أصحاب الملايين .

٤ — الموسيقى

كانت الموسيقى فى فرنسا قد انحطت منذ تفوق للى على موليير فى تسلية الملك الأعظم فلم يكن هنا فى فرنسا هذا الجنون أو الولع الشديد بالموسيقى الذى أدى بايطاليا إلى نسيان إذلالها أو خضوعها السياسى ؛ ولا التفانى الشديد فى أساليب التلحين ، الذى أوجد القداسات الضخمة والألحان الموسيقية

المطولة المبنية على رواية الإنجيل لآلام المسيح فى ألمانيا على عهد باخ .

وكانت الموسيقى الفرنسية فى عصر انتقال من الشكل التقليدى إلى زخرفة الباروك، إلى رقة الروكوكو ، ومن الطباق المعقد ذى الألفاظ المشوهة للحن ، إلى ألحان سلسلة متدفقة وأفكار رئيسية رقيقة تتلاءم مع الطبيعة الفرنسية . واستمر مؤلفو الموسيقى يخرجون أغانى الغزل أو الهجاء أو أغانى حزينة تتحدى الفتيات ، وتتحدى الملوك ، وتستنكر العزوبة والتوانى . وامتدت رعاية الموسيقى من الملوك الذين يتطلبون العظمة والجلال إلى رجال المال الذين يدافعون عن حظوظهم مع الفرق الموسيقية والمسرحيات والشعر مما يستأثر به القلة من ذوى الجاه والنفوذ . وأخرجت أوبرا روسو « الموزيات الأنيقات » (إلهات تسع تحمين الشعر والغناء فى الأساطير اليونانية) Les Muses Galantes فى بيت الملتزم العام بوبلنيير . وكان لبعض الأغنياء فرق موسيقية خاصة بهم . وكانت العروض أو الحفلات المفتوحة للجمهور مقابل رسم دخول ، تقدمها بانتظام فى باريس « فرق الموسيقى الروحية » التى أنشئت ١٧٢٥ وتبعتها فى ذلك سائر المدن . وقدمت الأوبرا فى باليه رويال » فى وقت متأخر بعد الظهر عادة ، حتى إذا انتهت فى الثامنة والنصف مساء ، قصد المتفرجون للتنزه فى حدائق التويلرى ، وأطربهم المغنون والعازفون فى الهواء الطلق . وكان هذا واحدا من المظاهر الفاتنة فى الحياة فى باريس .

وإنا لندرك من مطالعة كتاب ديدرو « ابن أخى رامو » كم من الملحنين والموسيقيين البارعين أقبل الناس عليهم إقبالا شديداً فى هاتيك الأيام ، على حين جر عليهم النسيان اليوم ذيوله . وثمة ملحن فرنسى واحد من تلك الحقبة خلف لنا أعمالا لا تزال تتشبث بالحياة . إن جين فيليب رامو أولع أيما ولع بالموسيقى . وكان أبوه عازف الأرغن فى كنيسة سانت اتيين فى ديجون . ويؤكد لنا كتاب السير المتحمسون أن جين استطاع فى سن السابعة أن يقرأ أية موسيقى توضع أمامه بمجرد وقوع نظره عليها . وفى الكلية استغرق كل جهده فى الموسيقى إلى حد أن الآباء اليسوعيين فصلوه ، وبعد ذلك

كاد جين لا يفتح كتابا إلا فى الموسيقى أو عن الموسيقى . وسرعان ما أصبح بارعا فى العزف على الأرغن والبيان القيثارى والكمان مما لم يكن بعده زيادة لمستزيد فى ديجون . ولما وقع الشاب فى شراك الغرام ، ورأى الوالد أن فى هذا مضيعة لمواهبه أرسله إلى إيطاليا ليدرس أسرار الألحان فيها (١٧٠١) .

ولما عاد جان إلى فرنسا ، عمل عازفاً على الأرغن فى كليرمونت فراند وخلف أباه فى ديجون (١٧٠٩ — ١٧١٤) ، ثم رجع أدراجه إلى كليرمونت عازفاً على الأرغن ، فى الكاتدرائية (١٧١٦) ، ثم استقر به المقام فى باريس ١٧٢١ . وهناك فى ١٧٢٢ وهو فى التاسعة والثلاثين كتب مؤلفه الرائع عن النظرية الموسيقية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر « رسالة عن علم الإيقاع موجزاً فى أسسه الطبيعية » . وحاول رامو أن يبرهن أنه يوجد دائماً فى التأليف الموسيقى السليم ، سواء كان موزعاً أو غير موزع — « قاعدة أساسية » يمكن أن تستمد منها كل الأنغام التى فوقها ، وأن كل النغمات المتآلفة يمكن أن تستخرج من سلسلة إيقاعات النغمات الجزئية ، وأن كل هــذه الأنغام يمـكن أن تقلب دون أن تفقد هويتها . إن رامو كتب بأسلوب لا يفهمه إلا أكثر الموسيقيين تبحراً ومعرفة بالموسيقى ، ولـكن أفكاره سرت دالمبرت الرياضى ، الذى شرحها بشكل أوفى ١٧٥٢ وإنك لتجد أن قوانين الترابط الوترى التى صاغها رامو ، مقبولة فى عصرنا هذا أساساً نظريا للتأليف الموسيقى [٣٤] .

وشن النقاد هجومهم على رامو ، فرد عليهم هو بتآليف وتفاسير ، حتى حظى بالتقدير والإجلال بما أخضع له الموسيقى من قوانين ، كما فعل نيوتن بالنسبة للنجوم [٣٥] . وفى ١٧٢٦ — وهو فى سن الثالثة والأربعين تزوج من مارى ماجنو ، إذ ذاك فى الثامنة عشرة . وفى ١٧٢٧ وضع موسيقى مسرحية فولتير الغنائية « سمسون » ولـكنهم حظروا إخراجها على أساس أن قصص الكتاب المقدس لا يجوز تحويلها إلى أوبرا . وكان على رامو أن يكسب قوته بالعمل عازفاً للأرغن فى كنيسة « سانت كروادى لا بروتنيرى . وبلغ الخمسين من العمر قبل أن يغزو مسرح الأوبرا .

وفى ١٧٣٣ قدم له الراهب بللجرين أوبرا « هبوليريت وأريسيمى » المبنية على رواية راسين « فدر » ولكن الراهب حصل من رامو على صك بمبلغ خمسمائة جنيه ضماناً فى حالة سقوط الأوبرا . ولما مثلت على سبيل التجربة ابتهج الراهب بموسيقاها أيما ابتهاج ، إلى حد أنه مزق الصك فى نهاية الفصل الأول . ولما مثلت أمام الجمهور فى أكاديمية الموسيقى أدهشت المتفرجين بخروجها الجرىء عن الأنماط التى كانت قد أصبحت تقاليد مقدسة منذ عهد للى . واعترض النقاد على ما أتى به رامو من إيقاعات جـديدة غريبة ، وتغييرات مبتدعة فى طبقة الصوت وتعقيدات فى التوزيع الموسيقى بل إن الفرقة الموسيقية نفسها كرهت الموسيقى . وفكر رامو لبعض الوقت فى التخـلى عن محاولاته فى مجال الأوبرا ولكن محاولاته الثانيـة Les Indes galantes (١٧٣٥) حظيت بإعجاب المتفرجين بتدفق ألحانها المنسقة ، أما أوبرا Castor et Polluy ١٧٣٧ فكانت من أروع الانتصارات فى تاريخ الأوبرا الفرنسية .

وأفسده النجاح . وتفاخر بأنه فى مقدوره أن يحول أى نص إلى أوبر جيدة وأن ينقل صحيفة أى جريدة إلى موسيقى . وأنتج [٣٦] سلسلة طويلة من الأوبرات غير الهامة . ولما ضاق مديرو أكاديمية الموسيقى ذرعا به انصرف إلى تأليف قطع للبيان القيثارى والكمان والفلوت . وأخذ لويس الخامس عشر — أو بالأحرى مدام دى بمبادور — بيده ، باستخدامه فى كتابة موسيقى رواية فولتير « أميرة نافار » . التى لقيت فى فرساى نجاحاً أعاد له مكانته (١٧٤٥) ونال رضا الأكاديمية من جديد ، وكتب مزيداً من روايات الأوبرا . ومذ ألفت باريس أسلوبه فإنها نسيت للى ، ونادت برامو ملكاً على دنيا الموسيقى بلا منازع .

وفى ١١٥٢ وجد نفسه يواجه تحدياً جديداً . ذلك أن بعض الفنانين العازفين والملحنين كانوا قد قدموا من إيطاليا . ومن ثم بدأت حرب صاخبة بين الموسيقى الفرنسية والموسيقى الإيطالية التى بلغت ذروتها فى السبعينات بالموسيقار بتشينى ينافس جلك Gluck . وفى دار الأوبرا فى باريس قدمت

فرقة إيطالية مع أوبرا برجولزى « La serva Randona » فاصلا موسيقياً وهى من روائع الأوبرا الهزلية ورد أنصار الموسيقى الفرنسية على ذلك بالنشرات وبقطع رامو . وانقسمت الحاشية إلى معسكرين وناصرت مدام بمبادور الموسيقى الفرنسية على حين دافعت الملكة عن الموسيقى الإيطالية ، وهاجم جريم الأوبرا الفرنسية بأسرها (١٧٥٢) وأعلن روسو أن الموسيقى الفرنسية بغيضة لا تطاق . والعبارة الأخيرة فى مؤلفه « رسالة فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) تدل أبلغ دلالة على خلله العاطفى قال : « وفى اعتقادى أنى قد أوضحت أن الموسيقى الفرنسية مجردة من الوزن والتناغم معاً ، لأن اللغة لا توفر لها هذا أو ذاك . والغناء الفرنسى مجرد نباح وشكوى متصلتين ولا تطيقه الأذن غير المتحيزة ، وأن إيقاعها غير مستساغ وإنها لا تعبر عن شىء ولا تشعر إلا بما تلقت عن معلمها ، وأن النغم الفرنسى ليس نغماً ، وأن المقاطع الصوتية الفرنسية ليست مقاطع صوتية . ومن ثم انتهيت إلى أن الفرنسيين ليس لديهم موسيقى ، ولن يكون لهم شىء منها وإذا قدر لهم أن يكون لديهم شىء من الموسيقى فستكون وبالا عليهم » .

وانتقم أنصار الموسيقى الفرنسية بخمس وعشرين نشرة أصدروها ضد روسو ، وأحرقوا تمثالا له على باب دار الأوبرا [٣٧] واستخدم رامو ، على كره منه ، عنصراً رئيسياً فى حرب المهرجين ، فلما هدأت المعركة وأعلن انتصاره فيها اعترف هو نفسه بأن الموسيقى الفرنسية لا تزال فى حاجة إلى أن تتعلم الشىء الكثير عن الموسيقى الإيطالية ، وقال إنه لو لم تكن سنه قد كبرت إلى هذا الحد ، لعاد إلى إيطاليا ليدرس طرق برجولزى وغيره من الأساتذة الإيطاليين .

وكان رامو آنذاك فى قمة شعبيته ، ولكن كان له أعداء كثيرون قدامى وجدد . وأضاف إليهم بنشرة أصدرها يعرض فيها اخطاءه التى وردت فى المقالات التى ظهرت عن الموسيقى فى دائرة المعارف . فما كان من روسو ، وهو كاتب معظم هذه المقالات إلا أن انقلب عليه وازداد مقتاً له . أما ديدرو أبو دائرة المعارف فإنه كان السباب للملحن العجوز فى لباقة تبعث

على الاحترام فى « ابن أخى رامو » التى لم ينشرها تفضلا منه وكرماً ، قال : إنه الموسيقار الشهير الذى خلصنا من موسيقى للى المتعددة الأصوات التى ترنمنا بها لأكثر من قرن من الزمان ، والذى كتب كلاماً كثيراً خيالياً غير مفهوم وحقائق غامضة عن نظرية الموسيقى — وهى كتابات لم يفهمها هو ، ولا أحد غيره قط . إنه أخرج لنا عدداً من الأوبرات التى يجد فيها المرء أنغاماً متآلفة وشيئاً من الغناء ، والأفكار غير المترابطة والثرثرة فى سرعة وجلبة ، والحركات السريعة ومواكب النصر والحراب والمثل العليا وألحان الرقص . . . مما سيبقى إلى الأبد [٣٨] .

وحين ظهر رامو فى إحدى المقصورات ١٧٦٠ — وهو فى سن السابعة والسبعين لمناسبة إعادة أوبرا «داردانوس» وهى من إخراجه ، لقى احتفاء وترحيباً حماسياً كاد يفوق ما قوبل به فولتير بعد ذلك بثمانية عشر عاماً . ومنحه الملك براءة النبالة . وأعفته هو وأسرته ديجون الفخورة بابنها من الضرائب البلدية مدى الحياة . وانتابته وهو فى قمة مجده حمى التيفوييد ، وذبل بسرعة وقضى نحبه فى ١٢ سبتمبر ١٧٦٤ وشيعته باريس باحتفال مهيب حيث ووري التراب فى كنيسة سانت أوستاش . وأقامت مدن كثيرة فى فرنسا الصلوات تكريماً له .

٥ — الصالونات

كانت باريس العاصمة الثقافية للعالم ، أكثر منها لفرنسا . قال ديكلوس « إن هؤلاء الذين يعيشون على مسافة مائة فرسخ من العاصمة إنما يبعدون عنها بمائة عام من حيث أساليب السلوك والتفكير [٣٩] وربما لم توجد عبر التاريخ قط مدينة تعج بحياة متنوعة الألوان . فالمجتمع المهذب المصقول وفنون الأدب الرفيع ائتلفا فى رباط وثيق مذهل . وكان الخوف من الجحيم قد زال عن الباريسيين المتعلمين وتركهم فى حالة من المرح والابتهاج لم يسبق لها مثيل ، لا يلقون بالا فى وثوقهم الجديد بأنه ليس هناك عملاق رهيب قدير فى السموات ، يسترق السمع إلى خطاياهم ويحصيها عليهم . ومن تحرير الذهن على هذا النحو لم تنجم بعد آثار كئيبة من عالم مجرد من القداسة

والهدف الخلقى ، عالم يرتجف فى زمهرير التفاهة والحقارة ، وكان الحديث شائقا تتخلله الدعابة والمرح . وغالبا ما انتقل إلى هزل ظاهرى ، وهنا كان التفكير ينحصر فى ظواهر الأمور خشية عدم العثور على شىء فى أعماقها . وكان القيل والقال والفضائح تنتشر بسرعة من ناد إلى ناد ومن بيت إلى بيت ، وكثيراً ما تطرق الحديث إلى آفاق خطيرة فى السياسة والدين والفلسفة ، مما قد يتيسر الخوض فيه اليوم إلا نادرا .

وكان المجتمع متألقا ، لأن السيدات كن مبعث الحياة فيه . وكن المعبودات التى قدسها هذا المجتمع ، وهن اللائى تولين توجيهه ، وبطريقة ما وبرغم العرف والعوائق أتيح لبعضهن قدر من التعليم يكفى لتبادل الحديث فى فطنه وذكاء مع أئمة الفكر الذين أحببن أن يستضيفوهم .ونافسن الرجال فى الاستماع إلى محاضرات رجال العلم (٤٠) . إذ عاش الرجال قليلا فى المعسكرات وطالت إقامتهم فى العاصمة وفى الحاشية فقد تزايد إحساسهم بالمفاتن غير الملموسة فى النساء — رشاقة الحركة ، عذوبة الصوت حيوية الروح ومرحها ، بريق العينين ، رهافة الذوق ، الجزع المشوب بالحنان والحب ، النفس المشربة بالرحمة والشفقة . إن تلك الصفات جعلت المرأة محبوبة فى كل مدينة ولكنا ربما لا نجد فى أية ثقافة أخرى أن الطبيعة والتعليم والملابس والحلى وأدوات التجميل والزينة قد جعلت من المرأة مخلوقا يسحر الألباب بقـــدر ما كانت عليه فى فرنسا القرن الثامن عشر . وكل هذا المفاتن والمغريات لا تستطيع على أية حال أن نفسر سلطان المرأة وقوتها . إن الذكاء فى معالجة الرجال وسياستهم أمر ضرورى . وبارى ذكاء النساء عقل الرجال وفى بعض الأحيان تفوق عليه . وعرف النساء الرجال أفضل مما عرف الرجال النساء . والرجال يندفعون فى تهور بالغ إلى أفـكار لتنضج حتى تفهم ، على حين إن التراجع المحتشم المطلوب حتى من السيدة المتفتحة ، هيأ لهـــا فسحة من الوقت للملاحظة والتجريب وتخطيط حملتها أو هجومها .

وكلما ازدادت حساسية الرجل اتساعا وعمقا ، نما تأثير المرأة ونفوذها . وفتشت البسالة فى ميدان الحب عن جزاء وفاق لها فى الصالون وفى مخدع

المرأة وفى الحاشية على حد سواء . وكم اهتز الشعراء طرباً حين وجدوا آذاناً صاغية من الجنس الرقيق . وكم رفع من شأن الفلاسفة تفضل السيدات ذوات التهذيب الرفيع والمكانة العالية بالاستماع إليهم ، بل إن أغزر العلماء علماً وأوسعهم إطلاعا وجدوا فى الصدور الناعمة وفى حفيف الرقص مثاراً للفكر والعقل . وهكذا مارست المرأة قبل « تحريرها » سيادة طبعت العصر بطابعها المتميز . وتذكرت مدام فيجى لبرون فيما بعد « كانت المرأة تحكم آنذاك ، ثم ثلت الثورة عرشها » [٤١] . إن النساء لم يعلمن الرجال آداب السلوك والعادات فحسب ، بل إنهن كذلك رفعن أو خفضن من درجاتهم فى الحياة السياسية ، بل حتى فى الحياة العلمية . من ذلك أن مدام دى تنسان هيأت اختيار ماريفو بدلا من فولتير ، لعضوية مجمع الخالدين (الأكاديمى فرانسيز) فى ١٧٤٢ . وكان شعار « فتش عن المرأة » وسيلة النجاح ، فإنك إذا عثرت على المرأة التى يحبها الرجل ، كشفت عن المنفذ الذى تصل منه إلى الرجل الذى تريد .

كانت كلودين الكسندرين دى تنسان — بعد بمبادور — هى السيدة الأكثر إمتاعاً وتشويقاً بين النساء اللاتى سيطرن على فرنسا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . وقد عرفنا كيف هربت من أحد الأديار . وأنجبت دالمبرت ، واتخذت لها مسكناً فى باريس فى شارع سانت أونوريه حيث استقبلت مجموعة متعاقبة من العشاق ، بينهم بولنجبروك ، ريشيليو ، فونتنيل (صموت ولكنه نشيط قوى فى سن السبعين) وعدداً من الرهبان ومدير الشرطة فى باريس . وأضافت الشائعات أخاها بيير إلى قائمة المترددين عليها ، ولكن ربما أحبته لمجرد أنها أخت حنون مصممة على تنصيبه كاردينالا ، إن لم يكن رئيساً للوزراء . وعن طريقه وعن طريق غيره دبرت أن تكون ركناً قوياً فى حياة فرنسا ٥

إنها جمعت المال أولا : . واستثمرته على طريقة دكتور لو ، ولكنها باعت الأسهم فى الوقت المناسب. وقبلت الحراسة على ثروة شارل جوزيف دى لا فرزنى ، ثم أبت إعادتها إليه ، فانتحر فى دارها ، تاركاً وصية

يتهمها فيها بالسرقة (١٧٢٦) ، وأرسلت إلى الباستيل ولكن أصدقائها دبروا أمر الإفراج عنها ، واحتفظت بمعظم الثروة . ونحدت ثرثرة المدينة والحاشية ، وخرجت منها سالمة .

وحوالى ١٧٢٨ أفاضت مدام دى تنسان إلى مخـدعها صالوناً اتخذته سلما ترقى به إلى السلطة والقوة ، واستقبلت فيه مساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، على مائدة العشاء عدداً من الرجال البارزين ، أطلقت عليهم « معرض الوحوش » منهم مونتنيل ، مونتسكيو ، ماريفو ، بريفوست ، هلفشيوس ، استروك ، مارمونتل ، هينولت ، ديكلوس ، مابلى ، كوندرسيه ، وأحياناً تشسترفيلد . وكانت المجموعة كلها من الرجال عادة لأن تنسان لم تـكن تطيق على مائدتها أية منافسات . ولـكنها أطلقت « لوحوشها » العنان ، ولم تغضب قط لرفضهم السافر للمسيحية . وتساوى كل الناس من كل الطبقات هناك ، فكان الكونت النبيل فى مستوى الرجل من العامة ، وقد تروى التقاليد فيما بعد أنه هنا كانت تجرى أكثر المناقشات تألقاً ودقة طوال هذا القرن ، قرن الحديث الذى لا حدود له [٤٢] .

وعن طريق ضيوفها وعشاقها وكهنة اعترافها استخدمت نفوذها لتحقيق أهدافها بطريقة سرية فيما بين فرنسا وروما . ولم يكن أخوها طموحاً ، بل كان يتوق إلى البساطة فى الحياة والهدوء فى الأقاليم ، ولـكنها سعت حتى عين رئيس أساقفة ثم كاردينالا ، وأخيراً وزيراً فى مجلس الدولة . وعاونت على أن تجعل من مدام شاتورو خليلة للملك ، واستحثتها على حث الملك ليقود جيشه فى الحرب . إنها رأت فى بلادة لويس وتكاسله مصدراً للاضمحلال السياسى ونذيراً بهذا الاضمحلال . وربما كانت على صواب فيما فكرت فيه من أنها لو تولت رياسة الوزارة للقيت الحكومة نجاحاً أكبر ، وأظهرت نشاطاً وحيوية أكثر . وناقش رواد صالوتها فى جرأة انحلال الملك واحتمال قيام الثورة .

وفى شيخوختها نسيت خطاياها ، وانضمت إلى اليسوعين وشنت الحملات على الجانسينين ، وتبادلت رسائل المودة مع البابا بندكت الرابع عشر الذى

أرسل إليها صورته اعترافاً منه بخدماتها للكنيسة . إن رقة الفؤاد التي ازدانت بها أخطاؤها ، وجدت لها منافذ كثيرة . ولما قابل الجمهور في بداية الأمر كتاب مونتسكيو « روح القوانين » (١٧٤٨) بعدم الاكتراث اشترت تنسان كل نسخ الطبعة الأولى تقريباً ، ووزعتها مجاناً على أصدقائها الكثيرين . وتولت رعاية ما رمونتل الشاب وأسدت إليه النصح أن يعقد فوق كل شيء ، أواصر الصداقة مع النساء ، لا الرجال ، وسيلة للارتقاء والصعود في هذا العالم [٤٣] . وأصبحت هي نفسها ، في سني شيخوختها وضعفها الأخيرة ، كاتبة ومؤلفة ، وسترت الطيش والحماقة بإغفال ذكر اسمها على ما ألفت . وقارن أصدقاؤها النقاد قصتها بقصة مدام دي لافاييت (برنسيس دي كليف Prnicesse de Cleves) .

وفارقت مدام تنسان الحياة في ١٧٤٩ وهي في الثامنة والستين . وعندئذ تساءل فونتينل العجوز « أين أتناول العشاء مساء الثلاثاء الآن ؟ » ولكنه أجاب لنفسه في ابتهاج على الفور « حسناً » ، عند مدام جيوفرين [٤٤] . وربما ألتقينا به هناك .

كان صالون مدام دي دفاند قديماً قدم صالون تنسان ، كما عمر مثل ما عمر صالون جيوفرين تقريباً . إن ماري دي فيشي شامروند باتت يتيمة وهي في سن السابعة فوضعت في دير اشتهر بالتعليم ، فبدأت تدرس وتتأمل في سن مبكرة الأوان ، وكانت تلقي أسئلة تتسم بالتشكك إلى حد مزعج ، وإذ وقعت الراهبة في حيرة من أمر الصبية وأسئلتها فإنها أحالتها إلى الواعظ المتفقه ماسيون ، الذي عجز عن تفسير المسائل الغامضة ، فتخلى عنها يأساً من إنقاذها من الضلال . وفي سن الحادية والعشرين أصبحت مركيزة دي ديفان بزواج تم عن تراض بين الطرفين ، ولكنها سرعان ما تبينت أن زوجها شخص مبتذل ممل إلى حد لا يحتمل ، فافترقا بعد اتفاق وفر لها ثروة لا بأس بها . وفي باريس وفرساي انصرفت إلى لعب الميسر في اندفاع شديد « لم أفكر في شيء إلا القمار » ولكن بعد ثلاثة أشهر منيت فيها بخسائر فادحة ، « تولاني جزع شديد ، وحزنت على ما أنا فيه ، ونأيت بنفسي

عن هذه الحماقة » . وقضيت فترة قصيرة خليلة للوصى [٤٥] . ثم تنحت عنه إلى عدوته الدوقة دى مين . وفى مسكو ألتقت بشارل هنولت رئيس مجلس التحقيق العسكرى ، الذى أصبح عشيقاً لها ، ثم صديقاً مدى الحياة .

وبعد أن أقامت لبعض الوقت مع أخيها انتقلت إلى نفس الدار فى شارع دى بون ، التى قضى فيها فولتير نحبه . وإذ اشتهرت بجمالها وعينيها البراقتين وذكائها الحاد ، فإنها جذبت إلى مائدتها (حوالى ١٧٣٩) نفراً من مشاهير الرجال الذين جاءوا ليؤلفوا صالونا يذيع صيته كما ذاع صيت صالون تنسان تقريباً : هنولت ، مونتسكيو ، فولتير ، مدام دى شانيليه ، ديدرو ، دالمبرت ، مارمونتل ، مدام دى ستال دى لونيه . . . . . . وفى ١٧٤٧ ، وقد بلغت آنذاك الخمسين ، وخفضت من غلوائها بعض الشىء ، استأجرت شقة جميلة فى دير سان جوزيف فى شارع سان دومينك . وكان من عادة الأديار تأجير غرف للعرائس والأرامل والنساء اللائى افترقن عن أزواجهن ، وكانت هذه المساكن عادة فى أبنية خارج المبنى الأساسى الخاص بالراهبات . ولكن فى حالة هذه المتشككة الثرية ، كان المسكن داخل جدران الدير ، والحق إنه المسكن الذى كان قد آوى تحت سقفه مؤسسة هذا الدير الآثمة ، مدام دى مونتسبان . وتبع صالون المركيزة شخصها إلى مقرها الجديد . ولكن ربما أزعجت البيئة المحيطة به الفلاسفة ، فلم يعد ديدرو يحضر ونادراً ما كان يجىء مارمونتل ، وكان جريم يتردد بين الحين والحين ، وسرعان ما انقطع د المبرت . ومعظم المجموعة الجديدة فى سان جوزيف كانوا من سلالة الأستقراطية القديمة : مارشال لكسمبرج ومارشال ميربوا وعقيلاتاهما ، دوقا ودوقتا دى بوفلوز ودى شوازيل ودوقات اجوبون وجرامونت وفيلروا وصديق مدام دى ديفاند من أيام طفولتها ولمدى الحياة ، وهو بونت دى فيل . وكانوا يلتقون فى السادسة ، ويتناولون العشاء فى التاسعة ثم يلعبون الورق والميسر ؛ ويتناولون بالتحليل والتفصيل الأحداث الجارية فى عالم السياسة والأدب والفن ، ثم يفترقون . فى نحو الساعة الثامنة صباحا . وكان الأجانب البارزون ، الوافدون على باريس يحتالون للحصول على

دعوة إلى « مأوى النبلاء » هذا . وروى لورد باث فى ١٧٥١ « انى لاذكر أمسية دار الحديث فيها عن تاريخ إنجلترا ، وكم دهشت وارتبكت حين وجدت أن هؤلاء القوم عرفوا من تاريخ بلادنا خيراً مما عرفنا نحن عنه! [٤٦]

وتفردت دى ديفاند بأصفى دهن وأسوأ خلق بين صاحبات الصالونات فكانت مغرورة متغطرسة عيابة شكاكة ، أنانية أكثر مما يليق بالمرء أن يكون . ولما عالج كتاب هلفشيوس « الروح » ما ذهب إليه لا روشفوكول من أن كل الدوافع الإنسانية أنانية ، علقت هى بقولها فى ازدراء « إنه إنما كشف عن سر كل إنسان » [٤٧] وكانت تجيد الهجاء المشوب بالحقد والضغينة كما فعلت فى وصفها مدام دى شاتيليه . ولم تر فى الحيـاة الفرنسية إلا الجوانب التافهة الضعيفة . وذهبت إلى أن الفقراء اشتركوا ، بقدر ماسمحت به ظروفهم فى رذائل الأغنياء ومساوئهم . ولم تضف شيئاً إلى التطلعات المثالية للفلاسفة سوى ما جاءت به العقيدة العتيقة من أساطير مغرية مريحة للنفس . وتجنيب الاستنتاجات وآثرت العادات القويمة . واحتقرت ديدرو ونعته بأنه جلف ساذج . وأحبت دالمبرت ثم عادت فكرهته . وأعجبت بفولتير لأنه سيىء السلوك حاد الذهن . والتقت به فى ١٧٢١ وعندما هرب من باريس ، ثم شرعت فى ١٧٣٦ تبادله الرسائل التى تعد من الروائع فى الأدب الفرنسى ولم تقل رسائلها عن رسائله . رقة وعمقاً وصفاء وروعة ولكنها لم تبلغ ما بلغه هو فى رسائله من لطف وسهولة وبعد عن التكلف والكياسة .

وفى سن الخامسة والخمسين بدأت تفقد بصرها ، واستشارت كل متخصص فى طب العيون ، ثم لجأت إلى كل دجال ومشعوذ . وبعد ثلاث سنوات من الكفاح والعناء ذهب بصرها تماماً (١٧٥٤) ، ويومذاك أنذرت أصدقاءها بأنهم إذا استمروا فى شهود أمسياتها فإنه يجدر بهم أن يحتملوا السيدة العجوز الضريرة . وعلى الرغم من هذا قصدوا إليها . وأكد لها فولتير من جنيف أن ذكاءها وفطنتها باتا أكثر تألقاً مما كانت حتى وهى مبصرة ، وشجعها على المضى فى الحيـاة حتى لمجرد أن تثير غضب من يدفعون لها

رواتبها السنوية . ووجدت فى جولى دى لسبيناس شابة لطيفة نشيطة فاتنة تعاونها على أن تستقبل وتستضيف الأصدقاء . وكانت هى آنذاك تتصدر المائدة وكأنها هومر الأعمى يتصدر مائدة مستديرة وحوله الحكماء وشعراء الملاحم البطولية ، وكانت تتنقل هنا وهناك وقورة شامخة متحدية لمدة ستة وعشرين عاماً أخر . وإنا لنأمل أن نلتقى بها هى أيضاً مرة أخرى .

ولقد كان عصراً مشرقاً زاهياً ، لأن النساء تألقن فيه ، وجمعن فيه بين الذكاء والجمال ، مما لم يسبق له مثيل . وبفضلهن ألهب الكتاب الفرنسيون الفكر بالعاطفة ، وزينوا الفلسفة بالظرف وخفة الروح . وكيف كان يتسنى لفولتير أن يكون فولتير بغير وجودهن ؟ حتى ديدور الفظ الغامض اعترف بقوله « إن النساء عودتنا أن نناقش أشد الموضوعات جفافاً وتعقيداً ، بشكل ساحر واضح ، إننا نحدثهم حديثاً متواصلا ، ونريد منهن الإصغاء إلينا ، ونخشى أن يتولاهن التعب أو الضجر . ومن ثم كنا نستخدم طريقة معينة فى إيضاح آرائنا لهن فى يسر وسهولة . وكانت هذه الطريقة تنتقل من مجرد الكلام إلى أسلوب » (٤٨) وبفضل النساء أصبح النثر الفرنسى أكثر إشراقاً ووضاءة من الشعر واكتسبت اللغة الفرنسية سحراً رقيقاً ، ورشاقة فى العبارة ولباقة فى الحديث مما جعلها بهيجة ذات مكانة رفيعة . وبفضل النساء انتقل الفن الفرنسى من طراز الباروك الغريب الشاذ إلى الشكل المهذب المصقول والذوق الرفيع ، مما ازدانت به كل مظاهر الحياة فى فرنسا .

* * *

الفصل التاسع

عبادة الجمـــال

---

١ – انتصار الروكوكو

فى هذا العصر ، فيما بين الوصايا وحرب السنين السبع — عصر طراز لويس الخامس عشر — كانت النساء تتحدى الآلهة : أى الفريقين أحق بالعبادة ، وكان السعى وراء الجمال ينافس الإنصراف إلى التبتل والورع ، والإندفاع إلى الحرب . وفى الفن والموسيقى ، كما فى العلوم والفلسفة ، تراجع كل ما هو فوق الطبيعة أمام كل ما هو طبيعى . إن هيمنة المرأة على ملك حساس شهوانى ، هيأت اعتباراً جديداً أو مكانة جديدة للرهافة ورقة الوجدان . كما أن الاتجاه إلى مذهب اللذة والمتعة فى الحياة الذى كان قد بدأ على عهد فيليب دى أورليان ، بلغ ذروته فى أيام بمبادور . وأصبح الجمال أكثر من أى وقت مضى ، أمراً ذا « قيم ملموسة » فكان شيئاً يسر المرأ أن يلمسه بيده أو تقع عليه عيناه ، ابتداء من خزف سـيفر إلى لوحات بوشيه العارية . وتخلى المهيب الفخم عن مكانه للبهيج السار والجليل الوقور للرشيق الرقيق ، وكبر الحجم لفتنة الرشاقة ، وكان الروكوكو فن أقلية أبيقورية غنية متلهفة على الاستمتاع بكل لذة قبل انقضاء دنياها السريعة الزوال ، فى غمرة طوفان من التغيير تتعجل حـدوثه . وفى هذا الطراز الدنيوى الصريح طفرت الخطوط فرحاً ، ورقت الألوان ، وخلت الأزهار من الأشواك ، وتجنبت الموضوعات الفاجعة لتؤكد الإمكانات الباسمة المشرقة فى الحياة ، وكان الروكوكو آخر مرحلة فى الباروك من تمرد الخيال على الحقيقة والواقع ، ومن ثورة الحرية والإنطلاق على النظام والقواعد . ومع ذلك لم تكن حرية مخلة ، بل ظل إنتاجها يحتفظ بالمنطق والتركيب ، ويعطى المغزى شكلا . ولكنها كرهت الخطوط المستقيمة والزوايا الحادة ، ونفرت من التماثل ، وآلمها أن تترك أية قطعة أثاث دون نقوش . وعلى

الرغم من أناقة الروكوكو الجذابة ، فإنه أنتج آلافا من الأشياء التي لا يفوقها شيء في رشاقتها وزخرفتها . ولمدة نصف قرن من الزمان جعل الروكوكو من الفنون الصغيرة أسمى فن في فرنسا .

وعلى قدر علمنا لم يوجد قط مثل هذا النشاط من قبل . وقليلا ما كان مثل هذا التفوق والامتياز ، في مجالات الأعمال الجمالية . تلك المجالات التي كانت يوما أقل شأناً . وفي تلك الحقبة صار الفنان والحرفي مرة أخرى شخصاً واحداً كما كان الحال في أوربا في العصور الوسطى . وكان هؤلاء القادرون على تجميل الجوانب الخصوصية في الحياة موضع تكريم مع الرسامين والمثالين والمعماريين في هذا العصر .

ولم يبلغ الأثاث قط من قبل هذه الدرجة من الروعة والاتقان . ولم يعد أثاث طراز « لويس الخامس عشر ضخما مثل ما كان في عهد الملك العظيم ، وقد كان تصميمه مقصوداً للراحة ، ولا للعظمة والوقار ، وكان أكثر ملاءمة لجسم المرأة وملابسها ، منه للجلال والتباهي ، واتخذت الأرائك أشكالا شتى ، لتتناسب مع الأوضاع الجسمية والأمزجة . وكتب فولتير « إن السلوك الاجتماعي أيسر اليوم منه في الماضي ، ويمكن أن ترى السيدات يقرأن على الأرائك أو أسرة النهار (سرير ضيق يحول في النهار إلى أريكة) دون أن يسببن أي إزعاج أو مضايقة لأصدقائهن ومعارفهن[1] . وكان السرير يتوج بظلة رقيقة جميلة وتزين ألواحه بالصور والرسوم أو تنجد ، وتنقش قوائمه نقشاً جميلا . وطورت أنماط جديدة من الأثاث لتواجه حاجات جيل آثر فينوس على مارس (آثر آلهة الجمال على إله الحرب) وأخذ الكرسي المنجد ذو الذراعين والوسادة الوثيرة (البرجير) والأريكة المكسوة بنسيج مزدان بالصور والرسوم ، والكرسي الطويل (شيزلنج) ومائدة الكتابة القرأ (ما يوضع عليه الكتاب عند القراءة) ومنضدة الحوض في حجرة النوم والمائدة المثبتة إلى الحائط تحت مرآة (الكونسول) ، ومسند القدمين ، والخزانة العالية ذات الأدراج ، وصوان السفرة — كل هذه الأشياء أخذت آنذاك أشكالها ، وفي الغالب أسماءها التي احتفظت في الواقع

بها إلى يومنا هذا . وأسرفوا فى النقش وغيره من ألوان الزخرفة والتزيين إلى حد أثار رد فعل فى النصف الثانى من القرن ، وتطعيم خشب الأثاث بالصدف أو المعادن الذى أدخله أندريه شارل بولليه فى عهد لويس الرابع عشر ، وأهمله أبناؤه من بعده ، حيث كانوا نجارى الأثاث لدى لويس الخامس عشر وغطت تشكيلة كبيرة من التطعيم سطح الخشب الملون أو المكسو بقشرة رقيقة أو المدهون بورنيش اللك « ووضع فولتير » أشغال اللك « فى فرنسا القرن الثامن عشر ، فى مرتبة سواء مع ما كان يرد منها من الصين أو اليابان . أما الحرفيون من أمثال كرسنت ، أو بورد اوبن ، كافييرى ، وميسونيه فقد بلغوا من التفوق والتبريز فى تصميم الأثاث وزخرفته درجة حدت بنجارى الأثاث الأجانب إلى القدوم إلى فرنسا لدراسة أساليبهم ، ثم نشروا الطراز الفرنسية من لندن إلى بطرسبرج . وجمع جوست أوريل ميسونييه بين عشرة فنون أو تزيد ، فبنى البيوت ، وزخرف أجزاءها الداخلية ، وصنع الأثاث على أحدث طراز ، وصنع « الشمعدانات » والآنية الفضية للمائدة وصمم علب السعوط وأغطية الساعات ، ونظم المشاهد الفاخرة ، وألف عدة كتب دون فيها مهاراته وفنونه . وكاد أن يكون الرجل العالمى فى زمانه .

وقد حلت الألفة والعلاقات الحميمة فى الحياة على عهد لويس الخامس عشر محل التمسك بالرسميات الذى ساد القرن السابع عشر ، فإن الزخرفة الداخلية انتقلت من الفخامة والأبهة إلى الرقة . وفى هذا أيضاً بلغ العصر الذروة ، فالأثاث والبسط والسجاد والتنجيد والقطع الفنية ، وساعات الحائط والمرايا ، والإطارات والأنسجة المزدانة بالصور والرسوم والستائر واللوحات والسقوف والشمعدانات ، حتى خزائن الكتب — صنعت كلها فى تناسق فى الألوان والطراز يسر الناظرين . وقد يساورنا الظن بأن الكتب كانت تشترى للون جلدتها والمادة المصنوعة منها قدر ما تشترى من أجل محتوياتها ، ولكننا يمكن أن ندرك هذه اللذة أيضاً . وإنا لننظر بعين الحسد إلى المكتبات الشخصية الخاصة المرصوصة وراء الزجاج فى خزائن جميلة

مرتكزة إلى الحائط : وكانت حجرات الطعام نادرة فى فرنسا قبل ١٧٥٠ ، أما موائد الطعام فكانت تصنع بحيث يمكن بسهولة تمديدها لمضاعفة عدد الجالسين إليها وإزالتها ، لأن ضيوف العشاء قد يبلغون عدد كبيراً لا يمكن التنبؤ به . ولم تعد المدافىء من ذاك الطراز الضخم الذى كان قد انحدر من العصور الوسطى إلى عشر لويس الرابع عشر ، ولكنها إزدانت بزخرفة مترفة ، وفى بعض الأحيان (وهذا مثال نادر للذوق السقيم فى هذه الحقبة) كانت تماثيل للمرآة تستخدم بمثابة أعمدة تحمل رفوف المدفأة . وكانت كل التدفئة تقريباً عن طريق مدافىء مفتوحة تسترها حواجز مزخرفة ، ولكنا كنا نجد هنا وهناك فى فرنسا ، كما كان فى ألمانيا ، موقداً مكسواً بالخزف المزخرف . وكانت الإضاءة بالشموع التى تثبت بمائة طريقه مختلفة ، تبلغ أقصى روعتها فى الشمعدان الضخم المتألق ، المصنوع من البللور أو الزجاج أو البرونز . وإنا لنعجب من كثرة القراءة على ضوء الشموع ، ولكن ربما قللت المشاق من إنتاج الهراء واستهلاكه .

ومع تقدم القرن ، حلت اللوحات الحائطية الزاهية الألوان والمزخرفة زخرفة رقيقة محل النسيج المزدان بالصور والرسوم ، وفى هذه الفترة كانت قمة ازدهار فن هذا النسيج . وفى كل أنواع النسيج تقريباً — من الدمقسى والمطرزات والمقصبات إلى البسط والسجاجيد والستائر الممتازة تحدت فرنسا فى تلك الأيام أفخر منسوجات الشرق . وتخصصت أميان فى المخمل المنقوش واشتهرت ليون وتور ونيم بالحرير المزركش . وفى ليون ابتدع جان بيلمنت وجان بابتست هويه وغيرهما سجاجيد تعلق على الجدران ممهورة ومخيطة بموضوعات ومناظر صينية أو تركية أسرت لب بمبادور . وكان هذا النسيج يصنع فى المصانع المؤممة فى باريس وبوفيه ، وفى الحوانيت الخاصة فى أوبيسون وليل . وكانت هذه المنسوجات إذ ذاك قد فقدت وظيفتها فى الانتفاع بها للحماية من الرطوبة والتيارات الهوائية ، وأصبحت للتزين فقط وغالباً ما صغر حجمها لتلتئم مع النزعة إلى تصغير الحجرات . وسار النساجون فى مصانع الجوبلان وبوفيه فى عملهم وفق التصميمات والرسوم

التى وضعها ، والألوان التى تصبح باستخدامها أئمة الرسم فى ذلك العصر؟ وكانت جميلة بصفة خاصة تلك القطع الخمس عشرة التى نسجتها مصانع جوبلان (١٧١٧) وفق الرسوم التى أعدها شارل أنطوان كوبيل لتصوير قصة « دون كيشوت » . أما نساجو بوفيه فإنهم ، كما سنرى انتجوا قطعاً رائعة من هذا النسيج ، صمم رسومها الفنان بوشيه . وفى ١٧١٢ أعيد تنظيم مصانع « سافونيرى » وكانت فى الأصل لصنع الصابون — وأطلق عليها المصنع الملكى لصناعة السجاد على طراز سجاد فارس والشرق الأدنى وسرعان ما أنتج سجاجيد ضخمة امتازت برسوم دقيقة وألوان متنوعة ووبر ناعم مخملى ، وهذه أجمل سجاجيد ذات وبر فى فرنسا القرن الثامن عشر . وكانت مصانع النسيج المزدان بالصور والرسوم هى التى تقوم بالتنجيد الذى يتطلب المثابرة وبذل أقصى الجهد لكراسى الأثرياء ، ولا بد أن كثيراً من الأصابع المتواضعة الذليلة قد تعبت وتصلبت لتوفر لهؤلاء الأثرياء مقاعد وثيرة تقيهم عناء الجلوس .

وأقبل الخزافون الفرنسيون على عصر من المغامرة . وهيأت لهم حروب لويس الرابع عشر الفرصة . ذلك أن الملك العجوز صهر ما لديه من فضة لتمويل جيوشه وأحل الخزف مكان الفضة ، وأمر رعاياه بأن يحذوا حذوه . وسرعان ما لبت مصانع الخزف فى روان وليل وسكو وستراسبورج وموستير سانت مارى ومرسيليا هـذا المطلب الجديد . وبعد موت لويس الرابع عشر إشجع الميل إلى الأطباق وغـيرها من الأشياء المصنوعة من الخزف — شجع الخزافين إلى إنتاج أجمل ما عرف منها فى تاريخ أوربا . ورسم مشاهير الفنانين من أمثال بوشيه وفلكونيه وباجو المناظر على الخزف الفرنسى وابتدعوا أشكالا كثيرة منه .

وفى نفس الوقت كانت فرنسا تتجه إلى إنتاج الخزف الصينى . وكانت أنواع متعددة من العجينة الناعمة الملساء تصنع فى أوربا منذ مدة طويلة ترجع إلى ١٥٨٢ فى فلورنسه و ١٦٧٣ فى روان ، وكانت كلها على أية حال تقليداً للنماذج الصينية . ولم تكن مصنوعة من العجينة الصلبة المأخوذة

من مادة الكاولين أى الصلصال الصينى ، أو حجر الطفل الصينى الذى يذاب فى درجة حرارة عالية فى الشرق الأقصى . وإنما كانت من صلصال أقل صلابة يسخن فى درجة حرارة منخفضة ثم يغطى « بالغربتة » وهى مادة متكلسة أو شبه منصهرة ومصقولة . وحتى هـذا الخزف الصينى المصنوع من العجينة الطرية — وبخاصة فى شانتبللى ، وفنسن ومنسى — فيلروا (بالقرب من باريس) كان جميلا جداً ، واستمر استيراد الخزف المصنوع من الصلصال الصلب من الصين أو درسدن . وفى ١٧٤٠ انتزعت مدام دى بمبادور مائه ألف جنيه من لويس الخامس عشر ، و ٢٥٠ ألفاً من مصادر خاصة للتوسع فى إنتاج الخزف من العجينة الطرية فى فنسن . وفى ١٧٥٦ نقلت عمال فنسن المائة إلى مبنى أوسع وأوفى بالغرض فى سيفر (بين باريس وفرساى) وهناك فى ١٧٦٩ بدأت فرنسا إنتاج الخزف الصينى الحقيقى من الصلصال الصلب .

وأفاد صائغو الذهب والفضة من أن ملك فرنسا استخدم من منتجاتهم رصيداً إحتياطياً قومياً ، محولا السبائك إلى أشكال مسرفة فى الجمال ، ولكن يمكن فى الحال صهرها إذا دعت الضرورة . وفى عهد لويس الخامس عشر ازداد طلب الطبقات المتوسطة على المشغولات الفضية بوصفها أدوات نافعة أو وسائل للزينة . وتكاد كل أنماط السكاكين التى نستخدمها اليوم تكون قد اتخذت شكلها الراهن فى فرنسا القرن الثامن عشر : شوكات المحار ، ملاعق المثلجات ، ملاعق السكر ، أطقم الصيد ، طقم الرحلات ، سكاكين وشوكات الأكل ، أضف إلى ذلك مملحة المائدة ، وفناجين الشاى والأباريق والأوانى وأدوات التجميل والشمعدانات ، وكلها مزدانة بنقوش بديعة أو مصنوعة فى أشكال جميلة . . « وكان أحسنها فى هذا المجال طراز لويس الخامس عشر من بين كل الطرز الفرنسية[٢] وصنع صائغو الذهب والفضة صناديق أو علبا صغيرة حملها الرجال والنساء على السواء ، لحفظ السعوط أو الأقراص أو الساحيق أو الحلوى ، كما صنعوا مائة صنف من الأوانى والأوعية والصناديق لمنضدة الزينة وحجرة النوم والملابس . وكان فى حوزة

الأمير دى كونتى مجموعة من ثمانمائة صندوق من مختلف الأشكال ، من المعادن النفيسة ، وكلها رائعة متقنة الصنع . واستخدمت مواد أخرى كثيرة لمثل هذه الأغراض : العقيق ، عرق اللؤلؤ ، اللازورد . . . . وكان قطع الجواهر وتركيبها الامتياز الذى تفرد به ٣٥٠ من مهرة الحرفيين الذين ضمتهم نقابة الصائغين .

وحملت أشغال المعادن سمة العصر فى رقة القوالب والأشكال والصقل والإتقان . واتخذت مناصب أو مساند الحطب المشتعل أشكالا خرافية من التصميمات أو الرسوم المعقدة من الحيوانات الخيالية عادة . واستخدم البرونز الذهبي اللون لصنع أو زخرفة هذه المناصب والمشاعل والشمعدانات ذوات الشعب أو تحليتها بالزخارف ، أو لتركيب ساعة الحائط أو البارومتر أو حجر البشب أو الخزف الصيني . فبلغ البرونز الحديث ذروه استخدامه فى القرن الثامن عشر ، فكان من الممكن أن تكون ساعات الحائط فى أشكال ضخمة غريبة وساعات الجيب أو اليد صلبة جميلة — من البرونز أو المينا أو الفضة أو الذهب ، ومزدانة بنقوش غاية فى الجمال والإتقان . وكانت المشاعل فى بعض الأحيان تحفاً رائعة فى فن النحت ، مثل تلك التى أبدعها فالكونيه لقصر فرساى . وكانت المنمنمات والرسوم الفاخرة من روائع هـذا العصر . وأنتجت أسرة واحدة هى أسرة رومتيير ، خمسة أشكال من الرصائع (الميداليات) المحفورة على مدى قرن من الزمان ، تميزت كلها بدقة الصنع إلى حد أن الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة رحبت بانضمامهم إليها ، فى عداد كبار الرسامين والمثاليين . إن القرن الثامن عشر عرض فى الأشياء الصـغيرة فى الحياة أعظم ثروته خلوا من الهموم ، كما عرض أكثر فنونه دقة وإتقاناً . وقال تالليران « إن أولئك الذين لم يعيشوا قبل ١٧٨٩ لن يدركوا أبداً إلى أى حد يمكن أن الحياة حلوة » [٣] ، إذا تسنى للمرء أن يختار الطبقة التى ينتمى إليها ويتفادى المقصلة .

٢ — فن العمـــارة

وتجاهل فن العمارة الروكوكو تقريباً . وتتغير الطرز ببطء فى البناء أكثر منها فى الزخرفة لأن مقتضيات الرسوخ والثبات أقل مرونة من تقلبات الذوق . وكانت الأكاديمية الملكية لفن العمارة التى نظمها كولبير فى ١٦٨١ يتولى توجيهها الآن ورثة تقاليد لويس الرابع عشر . وواصل روبرت دى كوت عمل جول هردوين مانسار الذى كان قد أكمل قصر فرساى . وكان جرمين بوفران تلميذاً لمانسار ، وكان جاك جول جبرابيل وابنه جاك آنج خلفين غير مباشرين لمانسار ، ومن ثم حصر تيار هذه التقاليد مجراه فى قوة وصلابة ، واحتفظ هؤلاء الرجال بطراز الباروك ، بل بالطراز نصف الكلاسيكى ، بالمظاهر الخارجية التى سادت فى القرن العظيم ، مثل الأعمدة وتيجانها والعتبات ، ولكنهم سمحوا بمسحة من الروكوكو فيما شادو من مبان .

وخفف ضعف الإيمان من حدة التحمس لبناء كنائس جديدة ، ولكن جددت على أية حال واجهتا كنيستين قديمتين . ذلك أنه فى ١٧٣٦ أقام روبرت دى كوت لكنيسة سانت روش أعمدة وقوصرة (مثلث أعلى الواجهة) كلاسيكية . وفيما بين ١٧٣٤ — ١٧٤٥ زود جان نيقولا سرفاندونى كنيسة سانت سولبيس برواق ضخم ذى طابقين فى مدخلها ، قائم على أعمدة دورية وأيونية من طراز بللاديو الرومانى الكئيب ، ولكن العمارة المدنية هى التى عبرت عن روح العصر وتحولت فيما بعد عدة قصور بنيت فى تلك الفترة إلى وزارت وطنية أو دور للسفارات الأجنبية . من ذلك قصر ماتنيون ١٧٢١ الذى أصبح سفارة النمسا ، ثم داراً لرئيس الوزراء ، وقصر البوربون (١٧٢٢ — ١٧٥٠) الذى أدمج جزء منـه فى مجلس النواب ، وقصر سوبيز (الذى عدل بناؤه ١٧٤٢) والذى أصبح داراً للمحفوظات الوطنية .

وفى عهد المركيز دى ماريني ، مدير المبانى ، ازدهرت أحوال عدد

كبير من المهندسين المعماريين والمثالين والرسامين ومهندسي الزخرفة ، ووجد مساكن وأعمالا لهم ورأى أنهم يؤجرون أجراً حسنا . وكان المهندس المعمارى الأثير لديه هو جاك آنج جبرابيل الذى ارتضى التقليد الكلاسيكى عن طيب خاطر . وبعد صلح اكس لاشابل (١٧٤٨) انهمك إدم بوشاردون فى إقامة تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وعهد إلى جبريل بتصميم المكان الذى يحيط بالتمثال . فوضع حول مساحة مكشوفة بين حدائق التويلرى والشانزليزيه ، دائرة من « الدرابزينات » والحدائق الغائرة ، وشاد فى الطرف الشمالى قصر كحريون الحالى ووزارة البحرية الحالية ، وكلاهما على طراز كلاسيكى بحت ، وعمد إلى تزيين الميدان بإقامة أربعة تماثيل أسطورية سرعان ما أطلق عليها الباريسيون أسماء خليلات الملك — ميللى فنتيميل ، شاتورو ، بمبادور . وأطلق على الميدان اسم لويس الخامس عشر ، ونسميه اليوم ميدان الكونكورد . وقد يسرنا أن نعلم أنه كان هناك ازدحام فى حركة المرور منذ مائتى عام . وجيمس انجل جبرائيل هذا هو نفسه الذى شاد فى ١٧٥٢ المدرسة الحربية المتناسقة الأجزاء إلى حد بالغ والتى تضاهى رشاقة أعمدتها مثيلتها فى أية ساحة رومانية قديمة .

ولم تكن باريس هى وحدها التى جددت مبانيها وغيرت وجهها فى هذا العصر ففى شاتنيللى عهد دوق بوربون إلى جان أو بيرت بإقامة اسطبلات لجياده وكلابه ، بلغت من الفخامة حداً يدعو إلى المقابلة بينها وبين أكواخ الفلاحين . وفى اللورين جعل ستانسلاس لزكزنسكى من نانسى واحدة من أجمل مدن فرنسا ، وهناك أكمل بوفران بناء الكاتدرائية التى كان قد بدأها أستاذه جول هاردوين « انسار » وفيما بين عامى ١٧٥٠—١٧٥٧ أقام أمانويل هيرى دى كورنى « المدينة الجديدة » فى نانسى : دار البلدية من طراز الروكوكو ، وميدان ستانسلاس الذى يؤدى عبر حديقة عامة وقوس للنصر إلى ميدان دى لاكاريير ودار الحكومة ، وأحاط جان لامور ميدان ستانسلاس بحواجز من قضبان حديدية متصالبة (١٧٥١ — ١٧٥٥) هى أجمل ما صنع من نوعها فى الفن الحديث . وأقامت ليون آنذاك ميدان

لويس الأكبر وافتتحت كل من نانت وروان وريمس وبوردو ميدان الملك . وشادت تولوز مبنى فخما للبرلمان ، وأقامت روان نافورات جميلة وزينت الجسور الفخمة مدينة سنس . وعمت المنتزهات الواسعة نانت وبلوا ومونبلييه . وفيما بين عامى ١٧٣٠ — ١٧٦٠ حول جان جاك جبرابيل بوردو إلى مدينة حديثة ذات ميادين شاسعة وشوارع واسعة ومنتزهات طلقة الهواء وواجهة جميلة تطل على المياه ، وشيدت فيها المبانى العامة على طراز عصر النهضة الرائع .

وأخيرا تخطت العمارة الفرنسية الحدود ، فعهد إلى رجال العمارة الفرنسيين بإقامة المبانى فى سويسرا وألمانيا والدنمرك وروسيا وإيطاليا وإسبانيا . وفى أواسط القرن وحين ضعفت قوة فرنسا العسكرية ومكانتها السياسية نجد أنها بلغت ذروة النفوذ والتأثير فى مجال العادات والفن .

٣ — النحت

خاض النحت فى تلك الحقبة معركة مريرة فى محاولة للاعتراف به فنا هاماً كبيراً . وكانت مهمته قد اقتصرت لعهد طويل على أن تكون زخرفية أو تزيينية . وفى عهد لويس الرابع عشر أقيمت التماثيل لتضفى زينة وبهاء على القصور الفخمة والحدائق الشاسعة . أما الآن فقد قل الاهتمام بالنحت لأن الولع بالبناء قد استنفد أغراضه كما استنزف فرنسا ، وقبع الأغنياء فى مبان أصغر حجما ، ولم تجد التماثيل الضخمة لها مكاناً فى قاعات الاستقبال أو النوم . وشكا المثالون من أن الأكاديمية الملكية للرسم والنحت منحت معظم جوائزها للرسامين . واقترح بيجال أن يكون هناك مثال ملكى على غرار الرسام أو المصور الملكى ، وأيد بشخصه حملة طائفة سان ميشيل لكسر التقليد الذى جرى عليه العمل وهو تكريم الرسامين وحدهم بمثل هذه المهمة . وانصرف المثالون على كره منهم إلى زخرفة البيوت بقطع صغيرة وبالزهريات والنقوش البارزة ، وسعوا إلى منافسة رسامى الأشخاص بأن يشكلوا الجسم الفانى فى صورة خداعة من البرونز أو الحجر الذى لا يبلى ، ما داموا يتقاضون الأجر . ولما تهيأ لبعض هؤلاء المثالين مزيد

من الفرص للعمل اختاروا طراز الروكوكو الرشيق الطبيعى اللعوب المرح على حين ظلوا يحبذون وقار الخطوط الكلاسيكية .

وكما هو الحال مع الرسامين والحرفيين مال فن النحت إلى أن ينموا فى أسرات بعينها . وساعد نيقولا كوستو أستاذه أنطوان كويسيفوكس فى تزيين القصور الملكية فى مارلى وفرساى ، وصمم الشخصيات العظيمة ، رامزا إلى أنهار فرنسا ، وهى الآن فى البلدية دار البلدية فى ليون . ولا يزال تمثاله « النزول من الصليب » فى كنيسة نوتردام دى باريس ، و « الراعى الصياد » واحداً من اثنا عشر تمثالا رائعا تغالب الزمن والجو فى حدائق التويللرى . ونحت غليوم كوستو الأول الأخ الأصغر لنقولا ، تمثالا من المرمر لمارى لزكز نسكا ، مثل تمثال جونو[٤] (زوجة جوبيتر فى الأساطير الرومانية) كما نحت تمثال « جياد مارلى » القوية (١٧٤٠ — ١٧٤٥) لذلك القصر أساسا ، ولكنها الآن متمردة على اللجام فى المدخلين الغربى والشرقى لقصر الكونكورد . أما ابنه غليوم كوستو الثانى ، فقد حفر للدوفين مقبرة فى كاتدرائية سنس .

وأنجبت مدينة نانسى أسرة أخرى من الفنانين فورت جاكوب سجسبرت آدم أبناءه الثلاثة النحت والعمارة ، وقضى لمبرت سجسبرت آدم عشر سنوات فى الدرس والتحصيل فى رومه ، عاد بعدها إلى باريس ، حيث تعاون مع أخيه الأصغر نقولا سباستيان فى إقامة نافورة « نبتيون وامفتريت » (إله وإلهة البحر) فى حدائق فرساى ثم قصد إلى بوتسدام حيث حفر لفردريك الأكبر — هدية من لويس الخامس عشر — مجموعتين من الرخام — صيد الحيوان وصيد السمك — لقصر سان سوسى . ثم رجع نقولا سباستيان إلى نانسى وشاد مقبرة كثرين أو بالنسكا فى كنيسة نوتردام دى بون سيكور ، وثمة أخ ثالث ، وهو فرنسوا بلتازار جسبار ، أسهم فى تزيين عاصمة ستانسلاس .

وهناك أسرة ثالثة من النحاتين بدأت بالمثال فيلبوكافييرى الذى غادر إيطاليا فى ١٦٦٠ ليعمل مع ابنه فرنسوا شارل فى خدمة لويس الرابع عشر.

وثمة ابن آخر هو جاك كافييرى الذى بلغ بعبقرية الأسرة إلى الذروة متفوقا على كل معاصريه فى أشغال البرونز . وتنافست القصور الملكية كلها تقريباً فى الإفادة من فنه فى زمانه . وفى قصر فرساى اشترك مع ابنه فيليب فى المدفأة فى جناح الدوفين وفى صنع قاعدة برونزية من طراز الروكوكو لساعة الملك الفلكية المشهورة الآن . وتعد التركيبات والسنادات البرونزية التى صنعها للأثاث أثمن وأغلى قيمة من الأثاث نفسه[٥] .

وارتضى آدم بوشاردون — الذى أسماه فولتير « فيداس » فرنسا[٦] (نحات أغريقى فى القرن الخامس ق . م) — ارتضى تماما كل القواعد الكلاسيكية التى نادى بها راعيه كونت دى كايلوس . وجد لعدة سنين منانا للمثال بيجال حتى خيل لهـذا الأخير أنه غلب على أمره . وأورد ديدرو ذكر بوشاردون فى قوله « لم أدخل قط إلى مرسم (ستوديو) إلا خرجت منه بشعور من القنوط سيطر على لعدة أسابيع »[٧] ورأى ديدرو أن تمثال « الحب — كيوبيد »[٨] الذى صنعه بوشاردون مكتوب له الخلود ، ولكنه لا يكاد يتلظى بنار الحب ، وخير منه النافورة التى أقامها المثال نفسه فى شارع جرينل فى باريس ، وهى تحفه رائعة فى جلالها الكلاسيكى وعظمتها وفى ١٧٤٩ عهدت إليه المدينة بصنع تمثال فارس للملك لويس الخامس عشر ، وأكب على العمل فيه لمدة تسع سنين ، وصبه فى ١٧٥٨ ، ولكن لم يمهله القدر ليراه قائماً وطلب إلى السلطات البلدية ، وهو على فراش الموت ١٧٦٢ ، أن تكل إلى بيجال اكمال المشروع ، وهكذا اختتمت المنافسة التى طال أمدها بين هذين المثالين ، فيما ينبئ عن الأعجاب والثقة بينهما ، ونصب التمثال فى ميدان لويس الخامس عشر ، ثم جاءت الثورة الفرنسية فحطمته ١٧٩٢ باعتباره رمزاً بغيضاً :

ونبذ جان بابتست ليموين كل القيود والقواعد الكلاسيكية ، لأنها تحكم على النحت بالفناء . لماذا لا يعبر الرخام أو البرونز — مثل صور الألوان المائية أو الزيتية عن الحركة والوجدان والضحك والفرح أو الحزن — مما تجرأت التماثيل الهللينية على أن تعبر عنه ؟ وبهذه الروح صمم ليموين

مقبرتى كاردينال فليرى والرسام بيير مينارد لكنيسة سان روش ، وكذلك فى تمثال مونتسكيو الذى نحته لمدينة بوردو . أبرز المثال المؤلف « روح للقوانين » ساخرا مكتئباً شكاكاً ، وسطا بين سناتور رومانى وفيلسوف إقليمى يسخر من أساليب الباريسين فى حياتهم . وأصبحت تلك البسمة العابرة هى العلامة المميزة للعديد من التماثيل النصفية التى صنعها ليموين بأمر من الملك لكثير من رجال فرنسا البارزين . وانتصر هذا الأسلوب التعبيرى الممتع على كلاسيكية بوشاردون ، وانتقل إلى بيجال وباجو وهودون وفالكونيه فى عصر من أعظم عصور النحت فى فرنسا .

٤ — الرسم

كان الرسامون هم أصحاب اليد الطولى بين الفنانين آنذاك . وعكست سيطرة بوشيه مرة أخرى نفوذ النساء وتأثيرهن على الفنون ، وأحست مركيزة بمبادور أن الرسامين قد أضاعوا كثيراً من الوقت مع أبطال الرومان وقديسي المسيحية وآلهة الإغريق ، وقد آن الأوان لينظروا إلى فتنة الأحياء من النساء فى أبهى حللهن وتورد خدودهن ، ويبرزوا بالخطوط والألوان رشاقة العصر التى لم يسبق لها مثيل فى تقاطيع الوجوه ، وفى الثياب وفى العادات وفى كل الكماليات فى حياة الأقلية الثرية . وكانت المرأة يوما خطيئة ، وهى تعلن أنها لا تزال خطيئة ، لكن لا شيء إلا أن تكون أكثر إغراء وفتنة . إنها ثأرت لنفسها من تلك القرون المرعبة التى أذلتها فيها الكنيسة ودمغتها بأنها أس البلاء ، ومصدر اللعنة . وسمح لها بدخول جنة لا يغشأها إلا الخصيان بفضل عذرية أم الإله فقط . وليس ثمة شيء ينم فى جراة أكبر على اضمحلال الديانة فى فرنسا من زحزحة السيدة العذراء عن الفن الفرنسى .

وحل الملك والأرستقراطية ورجال المال محل الكنيسة فى رعاية الفن . وفى باريس أصبحت أكاديمية سان لوك للرسامين منافسا ومستحثا للأكاديمية الملكية للفنون الجميلة المحافظة المتمسكة بالقديم . وفى الأقاليم نشأت أكاديميات إضافية فى ليون ونانسى ومتزومرسيليا وتولوز وبورد وكلبرمنت

فراند وبوو ديجون وريمس . وفضلا عن جائزة رومه السنوية وضعت ثلثا عشرة مسابقة وجائزة ، بعثت فى دنيا الفن حركة دائبة واهتياجاً شديداً ، وفى بعض الأحيان كان الملك أو غيره من رعاة الفن ، يواسون من لم يفوزوا فى هذه المسابقات بشراء بعض لوحاتهم أو منحهم بعض المال الذى يكفل لهم الإقامة لبعض الوقت فى إيطاليا .

وعرض الرسامون لوحاتهم فى الشوارع ، وفى بعض الأعياد الدينيـة كانوا يثبتونها فى الستائر التى تتدلى من نوافذ الأتقياء فى الطرق التى يمر بها الموكب الدينى . ورغبة فى تعويق ما بدا للفنانين المعترف بهم أنه نهج غير ملائم ، استأنفت الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة فى ١٧٣٧ وبعد انقطاع ثلاث وثلاثين سنة ، أقامة المعرض العام للرسم والنحت المعاصرين فى « القاعة المربعة » فى متحف اللوفر . وهذا المعرض السنوى أو الذى كان يقام كل عامين بعد ١٧٥١ أصبح فى أواخر أغسطس وطوال سبتمبر حدثا مثيرا فى الحياة الفنية والاجتماعية فى باريس ، وفى دنيا الأدب ، وجعل الصراع بين المحافظين فى الأكاديمية والمتمردين داخلها أو خارجها ، من الفن معركة تنافس معارك الحديث عن الجنس بل معارك الحرب الحقيقية فى أحاديث الناس فى العاصمة . واحتقر أنصار الخطوط البسيطة المحتشمة غير المبالغ فى زخرفتها ، والتهذيب الذى يعاون على الإصلاح — كما كانوا هم أنفسهم موضع احتقار — أنصار اللون والتجريب والابتكار والحرية . وأصبح النقد الفنى عملا ناجحاً . وكانت « تأملات فى فن الرسم » للكونت دى كابوس تقرأ فى إسهاب على الملاء فى الأكاديمية . وروى جريم أنباء المعارض لقراء رسائله . وتخلى ديدرون عن هجومه على المسيحية ليصبح واحداً من أشد النقاد الفنيين معارضة فى ذاك العصر . وأثار الحفارون على الخشب والمعادن مثل جاك لى بلون ولورنت كارز الهياج بنشر نسخ مطبوعة من الأعمال المشهورة وتزيين الكتب بالصور ، وإنتاج روائع من عملهم هم أنفسهم . وكان لى بلون أول من بدأ الحفر بالألوان فى ١٧٢٠ .

ولم يكسب الفنانون قط من قبل . اللهم إلا فى مجال الفنون الدينية ،

مثل هذا الجمهور المتحمس ، أو مثل هذه الرعاية على نطاق واسع . ويأت الرسام الآن يوجه نشاطه إلى العالم بأسره .

١ — فى حجرة الانتظار .

ارتفع عدد كبير من الرسامين إلى قمة المجد فى تلك الحقبة ، حتى أنه ليشق علينا هنا مجرد ذكرهم ، ولسوف نعرض فى تفصيل أكثر لبوشيه وشاردان ولاتور . ولكن هناك من قد يزعجهم إغفالنا ذكرهم .

فهناك الرسام المبرز جان فرنسوادى تروى ، ولكنه كانت تعوزه الحيوية ، وكان رسمياً إلى درجة لا يصلح معها أن يكون عظيما . وأحبه الجميع ، ووافق إلى حد كبير على أن يستخدم ملامح وجهه وكأنها ملامح وجه السيد المسيح « آلام المسيح فى البستان[٩] » ووجد فى إغراء السيدات لذة أكثر منها فى رسمهن ، وترك وراءه كثيراً من القلوب الكسيرة المحطمة والأعمال المشوهة ، وزخرف فرنسواه ليموين (ويجب ألا تخلط بينه وبين المثال جان بابتست) عقد قاعة هركيول فى قصر فرساى بنحو ١٤٢ شكلا ضخما ، ونقل إلى تلميذه بوشيه فن احلال اللون الوردى الذى تؤثره مدام دى بمبادور محل اللون الأسمر المائل للحمره فى لوحات رامبرانت واستبق شارل أنطوان كوبيل ، وهو ابن وحفيد لرسامين ، شاردان فى رسم مشاهد الحياة اليومية وأحداثها ، وقد التقينا به رساماً للوصى ، وفى ١٧٤٧ أصبح الرسام الأول للملك لويس الخامس عشر .

وقد سر فردريك الأكبر باقتناء لوحته « سيدة أمام المرآة » لقصر سان سوسى ، ولا يزال اللوفر يعرض لوحته « الحب والأميرة فاتنة الجمال التى أحبها كيوبيد » من نسيج الجوبلان المنقوش ، وهى تركيب نفيس من طبيعة بشرية وقماش .

وحظى جان مارك ناتيير بشعبية ورواج فى رسم الأشخاص لأنه عرف ، عن طريق الوضعة (كيف يكون وضع المرء أمام الرسام) واللون وحركة الضوء ، كيف يخلص المجالسين أمامه من العيوب أو التشويهات التى أصابتهن بفعل الوراثة أو أحداث الحياة ، حتى أن كل السيدات اللاتى

رسمهن ، فيما عدا واحدة ، سررن حين وجدن أنفسهن فى لوحاته ، فاتنات مغريات كما اعتقدن دائماً فى أنفسهن . ولوحته « مدام دى بمبادور » معلقة فى فرساى ، بشعرها الجميل الملون بلون خفيف ، وعينيها الوديعتين اللتين لا تكادان تكشفان عن لهفتها على السلطان والسيطرة وتنافس الملوك والملكات على الظفر بالفنان ناتيير . فقد رسم مارى لزكزنسكا سيدة برجوازية تشرع فى القيام بنزعة فى الريف [١٠] وأنصف كل الانصاف جمال أدليد[١١] ابنة الملكة . وعند ما زار بطرس الأكبر باريس رسم ناتيير لوحتين له ولزوجته القيصرة ، ودعاه بطرس للانتقال إلى روسيا فأبى ، فما كان من القيصر إلا أن حمل اللوحتين دون أن ينقده أجرا . وأحضر جاك أندريه أفيد المولود فى الفلاندرز بعض لوحات فلمنكية واقعية تصور الناس كما هم ، ولا بد أن ميرابو الأكبر جزع عندما رأى نفسه كما رآه أفيد فصوره[١٢] . ولكنها على أية حال من أعظم لوحات هذا القرن .

وعلى كل هؤلاء السادة الجالسين فى حجرة الانتظار — حتى على بوشيه وشاردان — نجد جريم وديدرو يؤثران كارل فانلو ، وهو سليل أسرة كبيرة من الرسامين تحمل اسم فانلو ، نعرف منهم تسعة بأسمائهم . وولد فى نيس ١٧٠٥ . واصطحبه معه رفيقه الرسام جان بابتست إلى رومه حيث درس بالازميل والفرشاة معا . وفى باريس فاز بجائزة رومه ١٧٢٤ ، ثم قضى فى إيطاليا فصلا دراسيا آخر ، عاد بعده إلى فرنسا وأرضى الأكاديمية وأغضب بوشيه ، بأتباعه كل القواعد الأكاديمية . وحيث أنه أفرغ كل جهده وقضى كل وقته فى الاشتغال بفنه ، ولم يدخر منه شيئاً ليتعلم القراءة والكتابة والعادات القويمة والحديث المهذب ، فإن مدام بمبادور نفرت منه فى شىء من الاشمئزاز [١٣] بأنه « وحش مزعج » ومع ذلك عهدت إليه برسم (مناقشة إسبانية) . ولفترة وجيزة ارتضى مزاج العصر . ورسم سيدات متشحات بأردية ملتصقة بأجسامهن ، ولكنه سرعان ما ركن إلى الرزانة والهدوء فى حياة أسرية نموذجية ، فخورا بزوجته البارعة المصقولة ولوعا بابنته كارولين . وفى ١٧٥٣ اشترك مع بوشيه فى زخرفة قاعة المجلس

الرائعة فى قصر فونتنبلو ، وبلغ درجة كبيرة من الشهرة إلى حد أنه عندما اتخذ مقعده فى الكوميدى فرانسيز ، بعد مرض عضال كاد يودى بحياته ، نهض الحاضرون وحيوه وصفقوا له مظهرين بهذه العلاقة الوثيقة بين الفن والأدب فى هذا العصر الذى تميز بثقافة عالية .

وسجل جان بابتست أودرى رحلات الصيد الملكية فى أعمال النقش والرسم على القماش . واختارته الملكة معلما لها . وكانت تتولاها الدهشة والعجب حين ترقبه وهو يعمل . وزودت بعض قطعه المنقوشة نساجى القماش بتوجيهات ونماذج ممتازة يهتدون بها فى عملهم ، وسرعان ما عين أودرى مديرا للمصنع الملكى فى بوفيه ، فلم يجد هناك إلا الفوضى والتدهور ، فأعاد تنظيم العمل فى حزم وشدة ، وأثارهم العمال بحماسته ؛ وصمم لهم سلسلة من قطع النسيج المزدان بالرسوم ، موضحا بصور الحيوانات المبهجة قصص لافونتين الخرافية . وهناك أيضا وضع الرسم التمهيدى للمجموعة الأخاذة من النساء والوحوش المعلقة فى اللوفر ، فى « ديانا دى بورتيير » . وتملكت النساجين فى الجوبلان الغيرة من النجاح الذى أصابه مصنع بوفيه ، فاقنعوا الملك بنقل أودرى إلى المصنع القديم ، وهناك أفنى نفسه فى صراع مرير لحمل النساجين على قبول الألوان التى وضعها . وفى الوقت نفسه أسهم فى كل من بوفيه وباريس فى تدريب المواهب والقدرات المتشعبة لدى أكثر فنانى منتصف القرن فى فرنسا امتيازا وتألقاً ، وأكثر من نال منهم تعنيفا قاسيا .

٢ — بوشيه : ١٧٠٣ — ١٧٧٠ .

استمع إلى ديدرو وهو يتأمل فى لوحات بوشيه العارية : أية ألوان ، وأية تشكيلة ، وأية وفرة فى المواد والأفكار ! إن هذا الرجل توفر لديه كل شىء إلا الصدق . إن انحطاط الذوق واللون . وأسلوب التركيب ، والشخصية والتعبير ، كل هذا تبع خطوة بخطوة انحلال الخلق . . . . وماذا عسى هذا الرجل أن يرسم إلا ما تصوره فى خياله ؟ وماذا يمكن أن يتخيل رجل يقضى حياته برفقة نساء المدينة ؟ . . . . إن هــذا الرجل

لا يمسك بفرشاته إلا ليبرز الأرداف والصدور . إنه لا يدرك ما هو الجمال . . . . فإن الكياسة والأمانة والبراءة والبساطة أصبحت كلها غريبة عليه . إنه لم ير الطبيعة لحظة واحدة قط ، وعلى الأقل الطبيعة التى تدخل البهجة على نفسى ، وعلى نفسك ، مثل طفل كريم المولد ، أو إمرأة ذات وجدان حى . إنه مجرد من الذوق . . . . والواقع إنه فى تلك اللحظة بعينها ، عين الرسام الأول للملك (١٧٦٥) [١٤] » .

ويحتمل ألا يكون بوشيه قد اطلع على هذا النقد قط لأنه كان موجهاً إلى قراء جريم الأجانب . فلنلق نحن نظرة على الفنان دون نية مبيتة للحقد عليه أو الإساءة إليه .

كان بوشيه ابنا صميا من أبناء باريس . وكان أبوه يشتغل بوضع التصاميم ، يملك محلا بالقرب من اللوفر ، ولقن ابنه فرنسوا مبادئ الرسم والنحت ، وإذ أظهر الفتى استعداداً وموهبة فقد تتلمذ على النقاش لورنت كارز ثم علىّ الرسام فرنسوا ليموين . وحيث اشتغل برسم المشاهد للابرا ، فإنه اجتمع هناك بنفر من الممثلات وبنات الفرقة الموسيقية . وانغمس فى مباذل عهد الوصاية ، بقدر ما أتاحت له إمكاناته[١٥] ويروى لنا إنه وقع مرة فى حب رومانتيكى مع بائعة فاكهة جميلة اسمها روزيت ، وبدا له أنه قد تجسدت فيها البساطة والطهارة معا ، فاتخذ منها نموذجا للوحة لمريم العذراء ، أفرغ فيها كل ما تبقى له من تقوى طفولته وصباه . ولكنه ، وهو لما يكمل بعد هذه اللوحة انزلق إلى اتصال جنسى غير شرعى ، وحين حاول أن يكملها أفلت منه الوحى والإلهام ، كما أفلتت منه روزيت . ولم يسترجع قط لحظات هذا الخيال الرقيق اللطيف[١٦] .

وتطورت مهارته ونمت بسرعة تحت ارشاد ليموين . وفى هذا المرسم تعلم شيئاً من نزعة كوريجيو إلى الأشكال النسوية ذات التقاطيع الكلاسيكية والرقة الناعمة . وفى قصر لكسمبرج درس اللوحات الزيتية المتألقة على القماش التى كان روبنز قد حول فيها الحياة لمارى مديتشى إلى ملحمة من اللون « وعظمة الثياب » . وفى ١٧٢٣ ، وهو فى سن العشرين فاز بجائزة رومه

التى أهلته للاقامة الكاملة فى باريس لمدة ثلاثة سنوات ، مع راتب قدره ٣٠٠ جنيه ، ثم أربع سنوات فى رومه . وإنا لنحصل على صورة حياة الطالب فى عهد الوصاية إذا علمنا أن رفاق الفائز بهذه الجائزة حملوه على الأكتاف وطافوا به حول ميدان اللوفر .

وفى ١٧٢٧ رافق كارل فانلو إلى إيطاليا . ويقول مدير الآكاديمية الملكية الفرنسية فى رومه وجد « للشاب الصغير المدعو بوشيه . . . . جحراً صغيراً فى غرفة ، وأسكنه فيه . وأخشى ألا يزيد حقيقة عن جحر ، ولكنه على الأقل سيقيم تحت السقف [١٧] . ولكن لم يكن لزاما على الشاب المتواضع ، كما وصفه المدير ، دوما أن ينام فى هذا الحجر ، لأنه وجد كثيراً من المضاجع ترحب به فى رومه . وإنه لمن علائم تغير الذوق إنه لم يبدا ولعاً بأعمال رافاييل أو ميكلأنجلو ، ولكنه عقد أواصر الصداقة مع تيبولو (رسام فينيسى ١٦٩٦ — ١٧٧٠) .

ولما عاد إلى باريس (١٧٣١) استمر يوقد الشمعة من طرفيها (يمسك بالعصا من وسطها) ، ونادرا ما كان يقنع بشيء إلا المعرفة المباشرة بنماذجه ، ومع ذلك وجد فسحة من الوقت ليرسم بعض لوحات رائعة مثل « اغتصاب يوروبا » فى الأساطير اليونانية (أميرة فينيقية أحبها زيوس واختطفها) وهى من بين عروضه التى لا تحصى لشكل المرأة . وخيل إليه فى ١٧٣٣ أنه وقع على فينوس نفسها فى نموذجه جين بوزو ، وعلى الرغم من أنه أحس « بأن الزواج لا يلتئم معه » [١٨] فإنه اتخذ منها زوجة ، ولم يرع عهد الزوجية إلا قليلا . وكالت له هى بنفس الكيل . ومن المحتمل أنها جلست أمامه ليرسم لوحة « رينوو آرميد [١٩] » التى كسبت له العضوية الكاملة فى أكاديمية الفنون الجميلة (١٧٣٤) . وحينذاك عهد إليه لويس الخامس عشر برسم مناظر سارة فى حجرة نوم الملكة التى كانت لا تزال تتمتع بحبه ، وعند إعادة افتتاح المعرض ١٧٣٧ اتسعت شهرة الفنان وكثر رعاة فنه . ولم يذق بعد ذلك طعم الفاقة ، ولم يعد له منافس .

وتخصص بوشيه فى رسم « العاريات » وحتى زواجه لم يكن قد تريث

طويلا إلا نادرا مع إمرأة واحده ليكشف شيئاً أكثر من بشرتها . ولكنه كان قد وجد أن ذلك المظهر الخارجي ممتع بلا حدود ، وبدا أنه عقد العزم على رسمه من كل الأركان والزوايا ، وفى كل الأشكال والأوضاع ، من الشعر الأشقر الحريرى الناعم إلى الأقدام العارية التى لم تنتعل قط . وكان بوشيه هو الروكوكو قلبا وقالبا .

ولكنه كان أكثر من ذلك . وعلى الرغم من أن النقاد المتأخرين عابوا عمله من الناحية الفنية ، فإنه كان بالفعل فناناً حاذقاً فى التأليف واللون والخط ، على أنه فى بعض الأحيان تعجل فى العمل ، ولم يعط الفن حقه رغبة فى سرعة الحصول على الأجر ، وهلل كثير من المعاصرين إعجاباً بروح التأثيرية الثورية فى لوحاته وخصوبة خياله والرشاقة البسيطة فى خطوطه . وقال ديدرو الذى ناصبه العداء ، « لم يعرف أحد قدر ما عرف بوشيه ، فن الضوء والظل [٢٠] وكاد أى فرع من الرسم والتصوير ألا يروغ من مهارته . إن هؤلاء الذين لا يعرفون منا إلا بعض لوحاته الزيتية وقطعه المصورة على القماش ليدهشون إذ يعلمون أن « شعبية بوشيه ترجع إلى رسوماته قدر ما ترجع إلى لوحاته الزيتية [٢١] . وكانت رسوماته مادة ثمينة طيلة حياته ، وتنافس فى الحصول عليها مشاهير جامعى الرسومات . وكانت تشترى لتستخدم مساند أو حوامل ، وتعلق فى حجرات النوم والجلوس على الجدران ، وكانت من عجائب الاقتصاد — نقرة فى الخد تعبر عنها نقطة أو بقعة صغيرة وبسمة يطبعها خط ، وكل بريق وحفيف التنورات الحريرية ينبثق فى إعجاز من قطعة من الطباشير . ومن المحقق أنه ليس من أجل الثروة وحدها ، ولكن بفضل العبقرية والخيال المتفجرين فيه ، يضيئان عينيه ويقودان يديه ، أكب بوشيه على العمل عشر ساعات يومياً فى مرسمه ، تاركا بصماته على كل شىء يلمسه تقريباً . وفضلا عن ألف لوحة ، رسم بوشيه المراوح وبيض النعام والخزف والرصائع والستائر والأثاث والمركبات ومناظر المسرح وجدران وسقوف المسارح . وقصدت كل باريس النشيطة لترى الزخرفة التى أعدها خلفية (لباليه نوفير : الأعياد

الصينية » ١٧٥٤ . ولم يكن به ميل شديد إلى المناظر الطبيعية ، لأنه كان سفير أفروديت إلهة الحب والجمال إلى اللوفر ، ومع ذلك احتفظ بشخصياته البشرية فى الغابات والحقول ، بجوار المياه الفوارة والاطلال الظليلة وتحت السحب البيضاء فى السماء الزرقاء ، وشمس دافئة تغرى بحرارة الدم وتطريها . وربما ظن المرء أن مشاهد الحياة اليومية لا تلائمه ، ومع ذلك رسم لوحة « منظر أسرة » وأبرز — وكأنما أراد أن يحرر نفسه من عبودية الجمال — فناء المزرعة وحظيرة الماشية وبرج الحمام ، وعربة اليد ، والأنقاض فى الفناء الخلفى ، والحمير ترزح تحت أحمال من الأوعية والآنية التى تحدث قعقعة . واستكمالا لذخيرته أصبح أعظم مصمم لرسوم النسيج فى هذا القرن .

وفى ١٧٣٦ دعاه أودرى إلى مدينة بوفيه ليضع تصميمات للنساجين هناك حيث بدأ بأربعة عشر رسما لمناظر قروية إيطالية [٢٢] . وقد لاقت هذه الرسوم نجاحاً كبيرا إلى حد أنها نسجت اثنتا عشرة مرة على الأقل قبل وفاته . ثم انتقل إلى موضوع أكثر نموذجية « قصة الأميرة الفاتنة » — خمس استار تعلق على الجدران ، شكلتها مدام بوشيه ، وهى من التحف الرائعة فى فن القرن الثامن عشر . وتوج أعماله بست قطع من النسيج المزدان بالرسوم والنقوش أطلق عليها « الحياة الريفية الكريمة » [٢٣] إحداها وهى « صائد الطير » تمثل حبيبين فاتنين من أروع ما أخرج من الحرير والصوف . وشكا النقاد من أنه بسبب أودرى وبوشيه أصبح النسيج المزدان بالنقوش أقرب شبها باللوحات الزيتية ، وأنه فقد خصائصه المميزة . ولم يأبه لويس الخامس عشر بهذا كثيرا ، لأنه عند ما توفى أودرى (١٧٥٥) رقى بوشيه إلى رئيس مصانع الجوبلان .

وفى الوقت نفسه حظى الفنان المنتصر الظافر برعاية بمبادور المتقدة حماسة وغيرة . فزخرف لها قصر « المنظر الجميل » وصمم أثاثه . وللمسرح الذى سعت به إلى الترفيه والتسرية عن الملك رسم المناظر وابتكر الملابس ورسم لها عدة لوحات آية فى الجمال الأخاذ والرقة يحار الناظرون إليها فى الحكم عليها . وإن الاتهام بأن بوشيه لم يصل قط إلى ما وراء الجسد قد

سقط الآن وأخرس ، فإنه لم يهيئ لنا إن نرى كثيراً من مفاتن جسد العشيقة قدر ما هيأ لنا أن نلمس مناقب الذكاء والرقة التى حبتها إلى الملك ، والاهتمام بالثقافة الذى جعل منها معبودة الفلاسفة ، والذوق الفنى النسوى الرفيع فى الثياب الذى أضفى فى كل يوم فتنة جديدة على مفاتن الجسد العانية . ويفضل هذه اللوحات ولوحة . الرحلة — لاتور « استطاعت بمبادور تذكير الملك فى هدوء بالجمال الذى ولى والفتنة الأرق التى بقيت . وربما استخدمت بمبادور كذلك لوحات بوشيه الحسية الشهوانية فى ارضاء رغبة الملك الجنسية القوية . ولا عجب إذن فى أنها جعلت من بوشيه صديقاً أثيرا لديها ، ووفرت له جناحا فى اللوفر ، وتلقت عنه درساً فى النقش ، وبحثت معه مشروعاتها فى زخرفة قصورها ، والارتقاء بالفنون . ورسم لها (١٧٥٣) لوحتين من أعظم لوحاته الشروق والغروب »[٢٤] وفى كلتا اللوحتين ، بطبيعة الحال ، كانت الأشكال البشرية تفوق الشمس بهاء وبريقا .

وعمر بوشيه بعد بمبادور ، وبعد الحرب الفاجعة مع إنجلترا وفردريك الأكبر ، وظلت أحواله فى ازدهار إلى سن السابعة والستين حيث وافته المنية . وتكاثر عليه التكليف بعمل اللوحات ، وأصبح ثريا ، ولكن لم تقل حماسته وغيرته فى العمل عن ذى قبل ، وطهر ثروته بالبذل والسخاء . وكان عربيدا محسنا خيرا ، لا يكل ولا يمل من الفسق والدعارة ولكنه دائماً أبدا مرح ودود ، « لطيف كريم غير متحيز ، ينأى بنفسه عن الأحقاد الدنيئة . . . . . به مناعة ضد التلهف الحقير على كسب المال »[٢٥] وكان متعجلا فى عمله إلى حد لم يبلغ معه قمة الامتياز . وأطلق لخياله عنان الحرية إلى درجة لم يلمس معها جوانب الحقيقة والواقع . وأبلغ رينولدز أنه ليس فى حاجة إلى نماذج ، وأنه يؤثر الرسم من الذاكرة ، ولكن ذاكرته جاءت بأشكال مثالية . ولما لم يصوب له الواقع ذاكرته ، فإنه بات مهملا فى رسمه مبالغا فى ألوانه . واتهمه جريم وديدروو وآخرون بأنه أخطأ فحسب الظرف واللطف جمالا ، وأنه هبط بجلال الفن إلى مجرد

زخرفة سطحية ذات مظهر خداع ، وبأنه افسد أخلاق العصر باعلاء قيمة مفاتن الجسد . وعاب عليه ديدرو واستنكر ابتساماته المتكلفة وتصنعه . . . وشامات الجمال ، واللون الأحمر على الخدود . . . ونساءه العابثات ، ورجاله الفاسقين الشهوانيين وأولاد باخوس وسلينوس غير الشرعيين (إلها الخمر والعربدة فى الأساطير اليونانية) [٢٦] ومات بوشبه وهو يعمل فى مرسمه تاركا على الحامل لوحة لم يكملها « تزين فينوس » وكأنما يتحدى بها ديدرو . وعند ما سمع ديدرو بموت الفنان أحس بالندم وقال « لقد أسأت إلى بوشيه كثيراً بكلامى عنه ، وإنى لأكف الآن عن الحديث عنه . [٢٧] ولنكتف نحن بهذا القدر » .

٣ — شاردان : ١٦٩٩ — ١٧٧٩

كم اختلف عالم بوشيه عن دنيا شاردان — أى تباين بينهما فى مفاهيم الجمال وفى الخلق وفى الذكاء ! كانت هنا تقريبا حرب طبقية ، ثورة الطبقة المتوسطة ضد الابيقورية المسرفة المبذرة عند رجال المال والأرستقراطية والحاشية . ولدجان مابتست سيمفون شاردان برجوازيا ، وظل برجوازيا قانعا ، وصور الحياة البرجوازية فى اخلاص بالغ . وكان أبوه معلم نجارة ذا مكانه عالية فى نقابته ، يمتلك دارا فى شارع السين على الضفة اليسرى من النهر ، ولما كان يظن أن ابنه جان سيخلفه فى مهنته ، فإنه لم يعن بتعليمه فى المدرسة قدر عنايته بتدريبه على الأعمال اليدوية . وأسف شاردان على ما فاته من تعليم وعلى ضآلة ما حصل منه ، ولكن هذا منعه من ارتياد مجالات الفن القديمة ، فولى وجهه وفرشاته شطر الأشياء التى حوله فى المصنع والبيت . وسرعان ما أحب الرسم وتلهف على التصوير ، وسمح له والده بالالتحاق بمرسم بيير جاك كيز ، ثم بتسجيل اسمه رساما فى البلاط الملكى .

ولم يكن الشاب سعيدا هناك ، فإن النماذج التقليدية التى طلب إليه أن ينسخ عنها بدت له بعيدة بشكل مخيف عن الحيـاة التى عرفها وألفها . وعندما طلب إليه جراح صديق لوالده أن يعد له لافتة تعلن عن مهنة الحلاق الجراح ، وتبرز أدواتها ، فإن جان — وربما تذكر عند ذاك شعار الرسام

اتو لجرسانت — رسم لافتة ضخمة تمثل رجلا جرح فى مبارزة ، يقوم على العناية به جراح ومساعده ، ومن حسن التدبير أضاف إلى هذا سقاء وشرطيا وبعضا من حراس الليل ، ومركبة ، وامرأة تحدق النظر من نافذتها ، وحشدا من المتفرجين يحملقون من فوق الرؤوس — كل أولئك فى منظر رائع عن الصخب والايماءات والاثارة . وغضب الجراح ورأى أن يلقى باللافتة عرض الحائط ، ولكنها جذبت انتباه المارة ونالت استحسانهم إلى حد كبير إلى درجة أن الجراح استبقاها على بابه ، ولم نسمع بعد ذلك شيئاً عن شاردان ، حتى كان عام ١٧٢٨ ، حين حظيت باطراء خاص ، لوحته « السمكة » ولوحته « الخوان » (البوفيه) — طبق فضى فيه فاكهة — فى معرض فى الهواء الطلق فى ميدان الدوفين . ودعاه بعض أعضاء الأكاديمية ليطلب الانضمام إلى عضويتها . ودبر أن يعرض بعض من لوحاته هناك غفلا من اسمه ، فأعلن من رأوها أنها تحف رائعة ، ونسبوها إلى فلمنج ، ثم اعترف شاردان بأنه صاحبها ، فاستنكروا هذه الخدعة ، ولكنه على أية حال فاز بعضوية الأكاديمية (١٧٢٨) .

وفى ١٧٣١ خطب مرجريت سنكتار التى وعده أبواها بصداق كبير ، ولكن فى فترة الخطوبة منى الوالدان بخسائر جسيمة وفارقا الحياة ، تاركين مرجريت لا تملك شروى نقير ، وتزوجها شاردان على الرغم من ذلك ، وهيأ لهما أبوه مسكنا فى الطابق الثالث من منزل كان قد اشتراه حديثا على ناصية شارع دى فور وشارع البرنسيس . وهناك أقام الفنان مرسمه الذى كان أيضا مطبخه ، فقد اختار الآن بصفة نهائية أن يرسم الحياة الهادئة ومشاهد الحياة اليومية . وأصبحت الخضر والفاكهة والسمك والخبز واللحم كل الأشياء التى تبعثرت فى أنحاء الغرفة ، نماذج لفرشاته تارة ، وصنوف قائمة طعامه تارة أخرى .

وافتتن شاردان بالأشكال والألوان المتغيرة فى الأشياء العادية ، ورأى فيها خصائص فى البيئة والتركيب والضوء قلما تلحظها العين الغافلة . فإن جانبى التفاحة أو خديها كانا بالنسبة له يحملان طابعا رومانتيكيا مثل تورد

وجنتى عذراء ، وبريق السكين فوق مفرش المائدة الأخضر تحداه أن يمسك به فى حركته السريعة ، ويحاول تثبيته فى فنه . وأبرز هذه الأشياء الصغيرة البسيطة فى أمانة وتبصر ، وبراعة فنية فى اللون والمناسيب والضوء والظل ، مما لم يتيسر إلا لقلة من الفنانين أن يبلغوه . وإننا لننظر إلى هذه الأشياء الطبيعية الميتة ، ونحس بأنها حية وإننا لم نرها رؤية صادقة قط من قبل ، وأننا لم نتحقق قط من تعقيد أشكالها وتفردها . ومن الفروق الدقيقة بين ظلال ألوانها ، ولم يجد الشعر فقط فى إناء من الأزهار أو عنقود من العنب . بل فى مرجل قديم محطم ، وفى جوزة ، وفى قشرة برتقالة . وفى فتات كسرة خبز جاف . ففى هذه كلها شعر دائما كما كان الفلمنكيون والهولنديون قد عرفوا من قبل ، ولكن من فى فرنسا بوشيه وبمبادور خامره يوما شعور بوجود هذا الشعر . وكان جمال هذه الأشياء بطبيعة الحال فى عين الرائى أو المشاهد أو بالأحرى فى نفسه . إن شعور شاردان القوى وبصيرته النافذة — وفقره — كل أولئك هو الذى جعل من مخزن حفظ الأطعمة قصيدة غنائية ، ومن قائمة الطعام ملحمة شعرية .

وكل إنسان يعرف هذه القصة — أو الاسطورة ؟ — كيف انساق شاردان إلى رسم الأشكال البشرية . إنه سمع ذات يوم صديقه أفيد يرفض ٤٠٠ جنيه أجرا لرسم لوحة لأحد الأشخاص ، فعجب شاردان أشد العجب ، وهو المعتاد على الأجور الضئيلة ، لهذا الرفض . فما كان جواب أفيد إلا أن قال « هل تظن أن رسم إنسان سهل مثل رسم مرق التوابل (الصلصة) . [٢٨] . وكانت سخرية لاذعة . ولكن مفيدة . إن شاردان كان قد ضيق مجال موضوعاته تضييقاً شديدا ، وسرعان ما كان يمكنه أن يشبع رغبات زبائنه وعملائه فى الأطباق وألوان الطعام ، وعقد العزم على رسم الأشخاص . وكشف فى نفسه عن عبقرية فى رسم الأشخاص فى رقة وتعاطف ، وكان هو الذى هيأ لهذه العبقرية أن تخمد . وقبل التحدى من فوره . ورسم لوحة لصديقة أفيد نفسه ، « المتفاخر » [٢٩] . وأتبعها بلوحة أحسن منها « دار لعب الورق » . ولكن هنا أيضا كان التفوق والامتياز

فى الملابس لا فى الوجوه . وفى لوحة « الطفل والخذووف (النحلة) » خطا شاردان خطوته الثانية : اليدان بشعتان بعض الشىء ، ولكن الوجه ينبئ عن عقل سليم . ووجد هذا الاعتناق الوقيق منفذا فى رسمه للبنات ، كما هو الحال فى التحفتين الرائعتين اللتين تضمهما مجموعة روتشيلد : « بنت تلعب تنس الريشة » ، وأخرى « تتسلى بتناول غذائها » .

إن شاردان لم ير فى النساء الاغراء الباسم الذى أثار بوشيه ، بل رأى فضائل وخصائص الزوجية والأمومة التى هى عماد الدولة ، وهى التى تقودها إلى طريق الخلاص . ومع شاردان دخلت سيدات الطبقة المتوسطة مجال الفن الفرنسى ، وحصلت على حقها فيه . إن هذا الفنان عرفها وأحبها فى كل ما تقوم به من خدمات جليلة آسرة : احضار الطعام من السوق ، سحب الماء ، تقشير السلجم ، لف الصوف ، العناية بالمريض ، تحذير التلميذ من إهمال واجبه أو التهرب منه ، أو كما أبرز شاردان فى أشهر لوحاته « الخير والبركة » [٣٠] الامساك عن الطعام حتى تكف صغرى البنات ، ويداها الصغيرتان مضمومتان ، عن الصراخ والبكاء ويشيع فى وجهها ابتسام الرضا ، ورأى المرأة دائماً فى ملابس البيت ، غير متبرجة ، فى حركة دائبة ، تخدم زوجها وأولادها من الفجر وصلاة الصباح إلى أن يأووا جميعاً فى أمان إلى فراشهم ويتدثروا . وإننا لنرى من خلال لوحات شاردان باريس وهى أكثر حكمة وأكبر عقلا من الحاشية ، لا تزال متعلقة بالأخلاقيات القديمة والعقيدة الدينية التى وفرت لها عونا روحيا . وهذا هو أعظم فن نفعا وصحة فى كل تاريخ الفن .

إن هذه الصور التى يهلل لها العالم الآن لم تلق إلا رواجا محدوداً جداً آنذاك ، ولم تأت للفنان إلا بفرنكات معدودة تقيم أوده فى بساطة قانعة . ولم يساوم مع عملاءه . وباع اللوحات بأى ثمن عرضوه عليه تقريباً . ولما كان يعمل فى بطء وكد وجد ، فإنه انهك نفسه فى فقر نسبى ، على حين أن بوشيه استنفد جهده فى يسر ورخاء . ولما توفيت زوجته الأولى بعد أربعة أعوام فقط من الزواج ، آل مسكنه إلى حالة شديدة من الفوضى وسوء

النظام . وكأنه مسكن طالب ، ألح عليه أصدقاؤه أن يتزوج ثانية ، ولو ليحظى بيد امرأة رشيقة وسيدة تعيد النظام إلى بيته . وتردد تسع سنين ثم تزوج الأرملة مرجريت بوجيه . وهو فى بساطة زواج مصلحة . وجاءت له مرجريت بصداق متوسط ، يشمل بيتا تملكه (١٣ شارع البرنسيس) ، فانتقل إليه . حيث وضعت خاتمة لفقره وعوزه ، وكانت سيدة فاضلة وزوجة شديدة التدقيق . وتعلم هو أن يحبها شاكرا ممتنا .

وزيادة فى معونته من الناحية المالية خصص له الملك (١٧٥٢) راتبا قدره ٥٠٠ جنيه ، وعينته الأكاديمية (١٧٥٤) أمينا للصندوق فيها ، وسرعان ما عهدت إليه بترتيب اللوحات المقدمة إليها فى قاعات العرض فيها ، ولكنه لم يكن يصلح لهذه المهمة مطلقا ، ولكن زوجته ساعدته فيها . وفى ١٧٥٦ أقنع صديق نقاش — هو شارل نيقولا كوشان الثانى — مارينى بأن يخصص لشاردان غرفة مريحة فى اللوفر . وهذا هو كوشان نفسه الذى كان تواقا إلى ابعاد شاردان عن تكرار صور المطبخ ، فحصل له على تكليف برسم ثلاث لوحات ، لتوضع (فوق الباب) لقصر مارينى . فأخرج شاردان فى جد واجتهاد (١٧٦٥) « خصائص الفن » وخصائص الموسيقى (٣٢) ثم حصل على تكليف آخر برسم لوحتين شبيهتين لقصر مدام دى بمبادور « المنظر الجميل » . ولسوء الحظ لم يدفع المبلغ الموعود للوحات الخمس حتى عام ١٧٧١ .

وفى نفس الوقت كان الفنان تتقدم سنه ويفقد مهارته . ففى ١٧٦٧ نرى ديدرو الذى كان قد رحب بعمله وأثنى عليه بوصفه « روح الطبيعة والحقيقة » يقول فى أسى وأسف « إن شاردان رسام ممتاز لمشاهد الحياة اليومية ، ولكنه يذوى ويذبل (٣٣) » . وكانت لوحات لاتور المرسومة « بالبستل » تأخذ بمجامع الألباب فى باريس . وفى غمرة المنافسة أخذ شاردان نفسه الطباشير والورق وأدهش لاتور حين أبدع لوحتين بالبستل لشخصه . وهما من أعظم الإنتاج جاذبية وروعة واتقانا وكمالا فى اللوفر . إحداهما تمثله فى قلنسوة قديمة ضيقة مزدوجة العقد على رأسه ، والعوينات

(النظارة) فى أعلى انفه ، ورباط عنق مربوط باحكام حول عنقه . وأبرزت الأخرى نفس الزى ونفس الوجه مملوءاً بالدهشة والشخصية ، بالإضافة إلى قناع يظلل عينيه اللتين يشكو فيهما ألما . وأشهر من هاتين ، لوحة البستل التى أبدعها لزوجته الثانية ، وهى آنذاك فى الثامنة والستين : وجه كريم جميل ، أخرجه بمهارة متسمة بالحب . وتلك هى اللوحة التى يقع عليها اختيارنا لتكون تحفة شاردان ورائعته .

وكانت خاتمة مظفرة لحياة فلذة شريفة كريمة . ولسنا فى حاجة إلى تصوير شاردان رجلا بريئا من زلات البشر ، فالحق أنه هو نفسه أيضا ، وقد وخزته أشواك الحياة وأساءت إليه الأحقاد ، كان فى مقدوره أن يقاوم بالانفجار فى الغضب وفى قارص الكلام ، ولكنه لما فارق الحياة فى ١٧٧٩ ، فإن أحدا فى دنيا الفن الباريسى الحاسدة الحاقدة المفترية ، لم يجد كلمة سوء عدائية يقولها فيه . بل إن نظام الحكم المنهار نفسه بدا أنه تحقق من أن شاردان قد كشف بأسلوب فنى لم يبزه فيه أحد فى زمانه ، عن فرنسا ، التى هى فرنسا الحقيقية التى لا تزال سليمة بارئة من السقام ، تلك الدنيا المستترة ، دنيا الكد الخالص والولاء للأسرة ، مما يمكن أن يبقى ويعمر — ويساعد فرنسا على البقاء — بعد قرن من الفوضى والثورة . وكما قال ديدرو « كان شاردان أعظم ساحر لدينا »[٣٣] .

٤ — لاتور — ١٧٠٤ — ١٧٨٨

إن نزعات الذوق المتقلبة لا تقدم اليوم إكليل الغار فى فن الرسم الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، إلى بوشيه أو إلى شاردان ، بل تقدمه إلى موريس كانتان دى لاتور .

وهو أكثر الشخصيات الثلاث إمتاعاً وتشويقا ، لأنه مزج رذائله وفضائله باستهتار شيطانى ، وساق العالم المرتعد بأسره إلى زاوية ، وطلب كما فعل ديوجنيس ، إلى ملك أن يبتعد عن طريقه . وكان نزاعا إلى جمع المال فى جشع شديد ، مغرورا وقحا متغطرسا ، عدوا لدودا وصديقا متقلبا عميقا مزهوا مثل رجل عجوز يخفى سنى عمره أو يفاخر بها ، وكان أمينا

صريحا ، بخيلا ، ومحسنا مسرفا وساذجا أنيسا ، وطنيا ملتهبا حماسة وغيرة ، يحتقر الألقاب ، ومن ثم رفض لقب النبالة الذى عرضه عليه الملك . ولكن هذا كله لا يتصل بالموضوع ، فإنه كان أعظم رسام فى عصره ، وأعظم مصور بالبستل فى تاريخ فرنسا .

وجلس لويس الخامس عشر يوما إلى لاتور ليرسمه ، فاستاء الملك وجرحت كبرياؤه لكثرة ما ردد الفنان من عبارات المديح والثناء على الأجانب ، وقال له « ظننت أنك فرنسي » . فأجاب لاتور « لا يامولاى ، أنا من سانت كانتان فى بيكاردى [٣٤] » (مقاطعة فى شمال فرنسا كانت يوما جزءاً من الفلاندرز) . انه ولد هناك لأب موسيقار موسر ، أراد له أن يكون مهندسا ، ولكن الولد آثر أن يكون رساما ، فأنبه الوالد على ذلك ، وهرب موريس وهو فى الخامسة عشرة إلى باريس ثم ريمس ثم كمبراى ، يرسم اللوحات هنا وهناك ، وفى كمبراى دعاه أحد الدبلوماسيين الإنجليز إلى لندن ضيفا عليه فيها . وذهب إليها موريس ، وهنا جمع مالا وقضى وقتا سعيدا مستمتعا بالحياة ، وعاد إلى باريس وتظاهر بأنه رسام إنجليزى . وكانت روزاليا كاريرا فى باريس فى عام ١٧٢١ وكان وجهاء القوم ، إبتداء من الموصى إلى أحدث محدثى الثراء ، يفتشون عن لوحاتها المرسومة بالبستل . ووجد لاتور أن مثل هذه الرسوم بالأقلام الملونة تلتيم مع مزاجه القلق ، أكثر من الزيت الذى يحتاج إلى جهد وجلد . وقضى عدة سنين يحاول ويجرب ويخطئ ، حتى تعلم أن يحقق وينجز بالطباشير ظلالا ودقة فى اللون والتعبير مما لم يتسن لأحد من رسامى الأشخاص فى زمانه أن يباريه فيها .

وعندما عرض بعض اوحاته فى معرض ١٧٣٧ بدأ رسامو الزيت يوجسون خيفة من منافسة أقلام البستل لهم . وكانت لوحاته الثلاث المرسومة بالبستل حديث معرض ١٧٤٠ . وكانت لوحته رئيس مدينة ريو فى رداء الحاكم الأسود وعباءته الحمراء « هى التى فازت بالجائزة فى معرض ١٧٤١ . أما لوحته التى رسمها للسفير التركى فقد تكاثر عليها الجمهور المعجب فى

١٧٤٢ . وسرعان ما طالبت دنيا الأناقة التى تهفو دوما إلى كل ما هو مستحدث ، بالتحول إلى الطباشير ، وأصبح صدام لاتور مع الملك حدثا تاريخيا . ذلك أن الفنان بدأ بالاعتراض على الحجرة إلى اختيرت ليجلس الملك فيها أمامه ليرسمه ، لأن الضوء كان ينفذ إليها من كل جانب ، قائلا « ماذا تتوقع منى أن أفعل فى هذه المشكلة ؟ » فأجاب الملك « لقد اخترت هذه الحجرة المنعزلة خصيصا ، حتى لا يعكر صفونا أحد » . فرد عليه لاتور بقوله « لم أكن يا سيدى أعلم أنك لست سيدا فى دارك » . وفى مناسبة أخرى عبر الفنان عن أسفه لأن فرنسا لا تملك أسطولا ضخما ، فاعترض الملك فى خبث « فما بال فرنيه الذى صور مناظر البحر يعج بالسفن [٣٥] » ولما علم لاتور أن الدوفين أبلغ أنباء مضللة كاذبة عن مسألة معينة ، ابتدره فى رفق « وهكذا ترى كيف أنه من السهل على اناس أمثالكم أن يقعوا فى حبائل المخادعين المخاتلين » [٣٦] .

وعلى الرغم من صراحته اللاذعة المزعجة ، منحته الأكاديمية عضويتها الكاملة ١٧٤٦ — التى هى بمثابة شهادة امتياز وتفوق . ولكن فى ١٧٤٩ ، نتيجة سعى حثيث من الوسامين بالزيت ، قررت الأكاديمية ألا تقبل مزيدا من رسوم البستل . وفى ١٧٥٣ شكا أحد مصورى اللوحات الزيتية « من أن دى لاتور ارتقى برسم البستل إلى درجة قد تثير النفور من اللوحات الزيتية » ورد لاتوركيد الشاكى فى نحره بالحوافز والروائع .

وكان له منافس فى البستل ، هو جان بابتست برونو الذى كان يؤثره لموين وأودرى وغيرهما من الأكاديميين على دى لاتور ، فطلب هذا إلى برونو أن يرسمه (لاتور شخصيا) فقبل برونو وأخرج له تحفة رائعة ، وأجزل له دى لاتور الأجر ، ولكنه رسم بعد ذلك نفسه فى لوحة من أعظم اللوحات الذاتية المعروفة روعة وابرازا للشخصية والذات ودبر مع شاردان أن تعرض اللوحتان كلتاهما جنبا إلى جنب فى معرض ١٧٥١ . وأجمع كل الذين شاهدوهما ان اللوحة الذاتية تفضل لوحة برونو ، ولا تزال اللوحة الذاتية التى رسمها لاتور لنفسه تبتسم ابتسامة النصر فى متحف اللوفر .

وهناك أيضا اللوحة التى تحدى بها بوشيه وهى لوحة البستل الوحيدة التى عرضها ١٧٥٥ . وأفلتت الفرصة منه تقريباً . فحين وجهت إليه الدعوة ليرسم أشهر سيدة فى المملكة أجاب « أرجو أن تتفضلوا بابلاغ مدام دى بمبادور أننى لا أخرج لأرسم » . وكانت تلك طريقته فى جلب الحظ والمال ، مثل ايقاع الفريسة فى الشرك ، بالتراجع ، وتوسل إليه أصدقاؤه أن يقبل ، فأرسل كتابا ينبئ بأنه سيحضر ، ولكن شريطة ألا يقطع عليه أحد سير العمل . ولما وصل نزع وقاء حذائه ، وخلع الحذاء ، ونزع شعره المستعار عن رأسه ورقبته (ياقته) وغطى رأسه بقلنسوة حريرية ، ثم بدأ يرسم . وفجأة فتح الباب ودخل الملك . فاحتج لاتور قائلا : لقد وعدتنى يا سيدتى أن يظل الباب مغلقا « فضحك الملك ورجاه أن يستأنف عمله ، ولكنه رفض » يستحيل على أن أطيع جلالكم . سأعود عندما تكون السيدة وحدها . . . لا أحب أن يقاطعنى أحد . فانسحب الملك ، وأكمل الفنان الجلسة ، ومن أشهر صورتين لمدام دى بمبادور ، نجد أن اللوحة التى رسمها لاتور أعمق من تلك التى أنتجها بوشيه ، وأقل اشراقا فى اللون ، واتقاناً فى اللمسات الأخيرة والتفاصيل ، ولكنها أكثر نضجا من حيث التعبير وابراز الشخصية . ولا ريب أن لاتور رسم المركيزة ، بايحاء منها ، باعتبارها راعية للفن والموسيقى والأدب والفلسفة ، وعلى أريكة قريبة منها قيثارة ، وفى يدها بعض صفحات موسيقية ، وعلى المنضدة كرة أرضية ، وحقيبة أوراق من نفش يديها ، وقصة فولتير « هنرياد » وكتاب مونتسكيو « روح القوانين » والمجلد الرابع من موسوعة ديدرو .

وعند ما فرغ لاتور من اللوحة طلب عليها أجرا قدره ٤٨ ألفا من الجنيهات . وعلى الرغم من تبذيرها واسرافها فانها رأت أن المبلغ المطلوب مبالغ فيه بعض الشيء ، وأرسلت إليه ٢٤ ألف جنيه ذهبا . وفكر لاتور فى رد المبلغ . فسأله شاردان إذا كان يعرف ثمن اللوحات الموجودة فى نوتردام ، بما فيها روائع برون ولى سير ، وأجاب لاتور سلبا . وقدر شاردان جملة تكاليفها بمبلغ ١٢ ألف جنيه . وأعاد لاتور النظر فى تقديره

وقبل المبلغ الذى أرسلته بمبادور (٢٤ ألفا) . إنه ، بصفة عامة كان يطالب بالأجر تبعا لثروة الجالسين أمامه ، فإذا اعترضوا ردهم خائبين ، وربما كان هناك بعض استثناءات لفولتير وروسو ود المبرت ، حيث أعجب بالفلاسفة من كل قلبه ، وأقر صراحة بتجرده من الإيمان الدينى .

وربما كانت أجوره المرتفعة سبباً فى اشتداد الطلب عليه من جميع الأنحاء . وعن طريقه عرفنا الشخصيات القيادية فى عصره ، وأصبح قمة فى الرسم بالبستل ، فأبدع لوحات جميلة رائعة للملكة ولولى العهد الصغير ، والدوفين المتظاهر بالرزانة والاحتشام[٣٨] ، ولاكامارجو راقصة الباليه الأولى ، وحاول أن يرسم لروسو لوحة يبدو فيها لطيفا عاقلا حكيما[٣٩] ، وفى أحد أعماله البالغة الروعة رسم موريس دى ساكس القائد الوسيم المنتصر على الجيوش والسيدات[٤٠] ، وأبرز فى لوحة رسمها لصديقه الرسام جان رستوت شعلة النشاط ونضارة الحياة فى عينيه[٤١] . ولبس الخز والمخرمات والشعر المستعار استعداداً لصورة ذاتية معلقة الآن فى اميان . وعلى الرغم من عاداته الخشنة ونزواته غير المشروعة ، وحالاته النفسية المتقلبة التى لا ضابط لها : فقد كان موضع الترحيب فى قصور الأرستقراطية ، فى ندوة مسيو دى لابوبلنيير فى باسى ، وفى صالون مدام جيوفرين . وكان يرتبط بأواصر الصداقة بمشاهير كتاب عصره ، بل حتى بالرسامين والمثالين الذين نظروا إلى نجاحه بعيون حاسدة — فانلو ، شاردان ، جريز ، بيجال ، باجو . ومنحه الملك معاشا إضافيا ومسكنا فى اللوفر . ولا بد أن الرجل كان . فوق كل شىء ، محبوبا .

ولم يتزوج لاتور قط . ولكنه لم يتنقل كثيراً بين أحضان السيدات كما فعل بوشيه وكان له عشيقة ، هى الآنسة فل Mlle Fel التى ساعد غناؤها على نجاح أوبرا روسو « عراف القرية » . وتضايق منها جريم لأنها لم تبادله الحب ، ولكنها أقبلت على لاترر من كل قلبها . وذكر هو لها بالعرفان والشكر كل ما وفرت له من أسباب الراحة والتسلية حتى إنه ظل يشرب نخبها وهو فى الثمانين من عمره . وكان فى إخلاصها له شىء من العزاء

والسلوى حين تقدمت به السن فتصلبت أصابعه وغشى بصره . ودفع ثمن الرخاء والرغد الذى نعم به وهو فى ذروة المجد ، بما لقى من إذلال طال أمده فى سنى شيخوخته واضمحلال صحته . إنه عمر بعد أن تلاشت عبقريته . وسمع النقاد يتحدثون عنها ، وكأنما أدركها الفناء .

وعند ما قارب الثمانين ترك مسكنه فى اللوفر ، ليعيش فى الهواء الطلق فى أوتى Auteuil . وأخيرا عاد إلى مسقط رأسه . واستقبلت سانت كانتان ابنها السمخى المبذر بطلقات المدافع ودق النواقيس والهتافات الشعبية . وعمر فى هذه البلدة الهادئة أربع سنوات أخرى وذبل عقله النشيط إلى مس خفيف غير مؤذ من الجنون ، فأصبح يتمتم بشىء من فلسفة وحـــدة الوجود (الله والطبيعة شىء واحد ، والـكون المادى الإنسان مظاهر للذات الإلهية) ، ويعبد الله والشمس معا ، ويحلم بالثورة مؤملا فى قيامها . وفارق الحياة قبل قيامها بعام واحد . وقبل أيدى خدمه وهو فى النزع الأخير .

الفصل العاشر

نشاط الذهن

١ – صناعة الكلام

الآن أصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الثانية لكل متعلم ومثقف فى أوربا ، وواسطة الاتصال والتفاهم المعترف بها فى الدبلوماسية العالميـة ، وكان فردريك الأكبر يستخدمها بانتظام ، اللهم إلا فى التحدث إلى قواته . وألف جيبون أول كتاب له باللغة الفرنسية ، واتجه تفكيره لبعض الوقت إلى أن يكتب بها مؤلفه المعروف « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » . وفى ١٧٨٤ أعلنت الأكاديمية الألمانية عن مسابقة ذات جائزة لمن يكتب أحسن موضوع يوضح أسباب هذا التفوق والتبريز ، ونشرت مطبوعاتها بالفرنسية . وكانت الأسباب الرئيسية لهـذا التفوق هو المنزلة السياسية السامية لفرنسا فى عهد لويس الرابع عشر ونشر القوات الفرنسية للغتهم فى الأراضى الوطيئة وألمانيا والنمسا وإسبانيا ، وعلو مكانة الأدب الفرنسى فى القارة ، بشكل لا نزاع فيه (وقد يكون لإنجلترا تحفظات على هذا) ، وشعبية المجتمع الباريسى بوصفه مدرسة للدراسات الثقافية والنشاط الاجتماعى ، تنهل منها النخبة الممتازة فى أوربا ، ثم الرغبة فى إحلال لغة أحدث وأكثر مرونة محل اللغة اللاتينية فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، وقيام الأكاديمية الفرنسية بتنقية اللغة وتقسيمها عن طريق قاموسها ، ولم تصل قط لغة وطنية أخرى ما بلغته الفرنسية من دقة وتنوع ، ومن قوة وسحر فى العبارة ، ورشاقة ووضوح فى الأسلوب . وكان ثمة بعض الخسارة فى هذا الانتصار : ذلك أن النثر الفرنسى ضحى بالصراحة البريئة عند مونتانى والحيوية الدافقة القاسية الصادرة عن القلب عند رابليه . وأصاب الشعر الفرنسى الوهن والضعف فى سجن القواعد التى وضعها بوالو ،

وانزلفت الأكاديمية نفسها — حتى أيقظها ديكلوس بعد انتخابه ١٧٤٦ — إلى شكليات غامضة وضآلة مبعثها الجبن والحذر .

وكانت حرية الفكر والكلام النسبية فى عهد الوصاية الخطير قد شجعت على مضاعفة عدد المؤلفين والناشرين والمكتبات . واندس من يطبعون وينشرون ويبيعون الكتب فى كل مكان ، حتى على الرغم من أنه يتقدم القرن ، أصبحت هذه التجارة خاسرة ، وكان فى باريس وحدها منهم ٣٦٠ كلهم تقريباً فقراء معدمون . وانتشرت المكتبات فى كثير من المدن ، وكان فى بعضها حجرات للمطالعة مفتوحة للجماهير ، نظير رسم دخول ضئيل (٤٠ سو) وقل أن كان التأليف مهنة كافية لكسب القوت ، ولذلك كانت تكمل عادة بعمل آخر ، فكان كريبيون الأكبر كاتبا لدى موثق عقود ، وكان روسو ينسخ الموسيقى . واستطاع نفر قليل من مشاهير الكتاب أن يبيعوا إنتاجهم لقاء ثمن عال . ولما أعسر موريفو بسبب انهيار نظام لو ، استطاع أن يصلح ماليته ويسترد ثروته برواياته ومسرحيته « ماريان » ، وقبض روسو ، وهو عادة فقير ، خمسة آلاف جنيه عن كتابه « اميل » . وكان حق الطبع القانونى الوحيد هو الترخيص الملكى بالنشر وكان فى هذا حماية للمؤلف من السطو على كتابه فى فرنسا ، ولكن ليس من السطو عليه وطبعه خارجها ، وكان هذا الترخيص يمنح لمن يكفل المراقبون الرسميون خلو كتابه مما يسئ إلى الكنيسة أو الدولة . وكان يمكن للأفكار الجديدة أن تتخطى هذه العقبة باخفاء مادة الكتاب أو الهرطقة فى أسلوب مقنع . فإذا لم تنجح هذه الخدعة ، فقد يعمد المؤلفين الى إرسال المخطوط إلى امستردام أو جنيف ، أو أية مدينة أجنبية أخرى ، ليطبع هناك بالفرنسية ويوزع فى الخارج ، ويتداول سرا فى فرنسا .

وأدى اتساع الطبقة الوسطى وانتشار التعليم وتجمع المفكرين فى باريس إلى خلق جمهور متلهف على الكتب ، ونهضت مجموعة كبيرة من المؤلفين لتلبية هذا المطلب وإشباع هذه الرغبة . وأثاو ضعف الدولة فى عهد لويس

الخامس عشر وانهيار الإيمان الديني ، المناقشات الشفوية والخطية فى المسائل السياسية والفلسفية . وإذ كرهت الأرستقراطية تلك الملكية التى حدث من سلطتها ، كما كرهت الكنيسة التى كانت تساند الملكية ، فإنها استمعت بآذان صاغية ذات مصلحة إلى نقد الحكومة والعقيدة كلتيهما ، وانضمت الطبقة المتوسطه العليا إلى الأرستقراطية فى اصغائها لهذا النقد ، أملا فى تغيير يحقق لها المساواة الاجتماعية مع طبقة النبلاء .

وفى هذا الجو الجديد حقق المؤلفون والكتاب مكانة قلما تيسرت لهم قبل القرن الثامن عشر أو بعده . وقوبلوا بالترحيب فى الصالونات حيث تحدثوا وأيدوا آراءهم بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان . واستقبلوا فى قصور ذوى الألقاب ما داموا لم يجرحوا كبرياءهم أو يسيئوا إليهم . وكان أصحاب المال يستضيفونهم ويكرمون وفادتهم ، وفى بعض الأحيان يسكنونهم فى قصورهم ، مثل ما فعل بوبيلنيير ، وأصبحوا برغم فقرهم قوة فى الدولة . قال ديكلوس فى ١٧٥١ « إن امبراطورية رجال الفكر ، من بين كل الامبراطوريات ، أوسعها امتدادا ، دون أن تكون مرئية . إن أصحاب السلطة يأمرون ، ولكن رجال الفكر يحكمون . وعلى المدى البعيد . . . إن عاجلا أو آجلا ، سيتغلب الرأى العام على أى شكل من أشكال الاستبداد والحكم المطلق أو يغلبه »[1] (وفى ١٧٥١ لم يكن قد تم التوصل بعد إلى الأسلوب الذى يتحقق به تشكيل الرأى العام تشكيلا محكما بالمال أو عن طريق الحكومة) .

وإذا رحب جمهور متزايد بالكتاب الفرنسيين ، وحفزهم مئات المتنافسين اليقظين ، وحررهم ضعف العقيدة ، واستحثهم زهو الطباعة وخيلاؤها ، فإنهم دفعوا إلى المطبعة بسيل من الرسائل والنشرات والأبحاث والنقد اللاذع والمقالات والمذكرات ، والتاريخ والقصص والمسرحيات والقصائد والأبحاث الدينية والفلسفية ، والكتابات الإباحية الداعرة والأدب المكشوب ، مما حطم كل اغلال الرقابة وقيودها ، واكتسح كل مقاومة ، وغير عقل فرنسا وعقيدتها وحكومتها بل إلى حد ما عقل العالم وعقيدته

وحكوماته . ولم يحدث قط ان وجد فى الأدب من قبل مثل هذا الذكاء الحاد أو المزاج الرقيق أو هذا التهريج الماجن أو هذا السخف المهلك ، وتصدعت كل القواعد التقليدية فى الكنيسة والدولة تحت ضغط الهجيات التى شنتها تلك الأقلام الحادة ، المسمومة أحيانا ، المغمورة أو المجهوله عادة ·

إن الرسائل الخاصة نفسها أصبحت قناعاً شائعاً . فما من سيدة أو رجل إلا نقح رسائله وأعاد كتابتها وصقلها وتأنق فيها أملا فى أن يطالعها أكثر من الشخص الذى أرسلت إليه فتتألق أمام العيون وتكون متعة لقارئيها ، كذلك نجحوا أحيانا فى أن تكون رسائلهم « كتابات ممتازة » أى قطعا من الأدب . وبسبب حبهم للحديث والمناقشة فإنهم تحدثوا على الورق إلى الأصدقاء أو الأعداء الغائبين عنهم ، بشكل طبيعى وكأنما يخاطبونهم وجهاً لوجه ، وبكل الحماسه والحيوية اللتين تدور بهما أحاديثهم حول المائدة فى الصالونات . ولم تكن تلك الرسائل تتضمن مجرد توافه الأخبار الشخصية ، بل كانت فى معظم الأحوال نقاشا فى السياسة والأدب والفن ، وكانت فى بعض الأحيان نثرا — لغة المجتمع — يزخر بالسجع الذى كثيراً ما يأتى عفو الخاطر فى الفرنسية ، مع أكبر الأمل فى إطراء القارئ لها ، وهكذا كان فولتير يدخل السرور على قلوب أصدقائه بسلسلة القصائد التى يبعث بها إليهم ، مما كانت تفيض به قريحته الوقادة وفنه الرشيق .

وآذن عصر الخطابة بزوال ، لأن فرنسا القرن الثامن عشر خشيت أن يتولاها السأم والضجر حتى لو استمعت إلى بوسويه آخر (أسقف وخطيب واعظ فى القرن السابع عشر) . ولكن الخطابة ستعود مع قيام الثورة . وكانت كتابة « المذكرات » لا تزال سائدة ، لأنها باعتبارها رسائل إلى الأعقاب والأجيال القادمة . احتفظت بشىء من سحر المكاتبات وفتنتها ؛ وفى نهاية الحقبة ، فى ١٧٥٥ وصلت إلى المطبعة مذكرات البارونة مدام دى ستال دى لونى التى كانت قد فارقت الحياة ١٧٥٠ ، وقد أعادت هذه المذكرات إلى الأذهان ذكريات عهد الوصاية وأمسيات دى سكو . وهنا كما يقول جريم ، كانت سيدة نافست فولتير نفسه بامتيازها وبراعتها فى النثر (٢) .

٢ — المسرح

تفوقت المسارح على الصالونات من حيث المكانة التى احتلتها فى باريس ، وما حظيت به من حب وإقبال بين الباريسيين . ويقول فولتير لمارمونتيل : « إن المسرح أعظم مهنة سحرا وفتنة ، ففيه يكسب المرء بين عشية وضحاها جاها ومالا ، وإن رواية واحدة ناجحة تأتى لصاحبها بالثروة والشهرة »[٣] . وكانت هناك فى الأقاليم مسارح لا بأس بها ، وكان ثمة تمثيل مسرحى خاص فى بيوت الأغنياء ، بعض المسرحيات أمام الملك والحاشية فى فرساى . ولكن التحمس للروايات فى باريس بلغ حد الجنون والحمى والجدل والشجار أو الابتهاج والسرور . واحتفظت « الكوميدى فرنسيز » فى « المسرح الفرنسى » بأعلى الدرجات فى الموضوع والأداء ، ولكن الجماهير الغفيرة كانت تقصد إلى « مسرح الإيطاليين » ومسرح « الأوبرا كوميك » . .

وتألفت كل هذه المسارح ، ودار الأوبرا فى « الباليه رويال » من قطاعات فسيحة بها عدة صفوف من المقصورات والمقاعد للقلة التى يفوح منها شذا العطر ، أما جمهور المشاهدين الأقل تبرجا [وثراء فكانوا يقفون تحت الشرفات الداخلية ، (على الأرض) التى نسميها خطأ . « الأوركستر » ولم توضع فيها مقاعد حتى جاءت الثورة . وكان نحو ١٥٠ من المتحمسين المتأنقين الذين يدفعون أجراً أكبر ، يجلسون على خشبة المسرح ، يحيطون بالممثلين من ثلاثة جوانب . وقد استنكر فولتير هذه العادة ، لأن هذا كان يعوق الممثلين ويفسد المنظر . « لما كانت معظم رواياتنا لا تعدو أن تكون حوارا طويلا ، فإن التمثيل المسرحى لا يكون له وجود ، أو إذ وجد بدا سخيفاً »[٤] وتساءل كيف يتسنى لممثل مسرحى أن يمثل على مثل هذا المسرح مشهد بروتس ثم أنطونى وهما يخطبان فى أهل رومه بعد قتل قيصر ؟ وكيف يمكن « للروح » المسكين فى هملت أن يسترق النظر من خلال هذه الهياكل العظيمة المتمتعة بامتياز الجلوس على خشبة المسرح ؟ إنه ليكاد يكون من المتعذر تمثيل أى من روايات شكسبير فى مثل هذه الظروف[٥] وكان لاعتراضات فولتير القوية ، التى أيده فيها ديدرو وغيره ، أثرها فما وافى عام ١٧٥٩ حتى كانت خشبة المسرح فى فرنسا قد أخليت من المتفرجين .

ولقى فولتير نجاحا أقل فى حملاته لتحسين الوضع الدينى للممثلين : وكانت مكانتهم الاجتماعية قد تحسنت ، فكانوا يترددون على دور الأرستقراطية ، وفى كثير من الأحيان كانوا يمثلون بناء على طلب الملك . ولكن الكنيسة استمرت فى اتهامها للمسرح بأنه مدرسة للفساد والفضائح والأعمال المخزية ، وذهبت إلى أن كل المممثلين بطبيعة الحال محرومون من الكنيسة ، وحرمت دفنهم فى الأرض المخصصة للمؤمنين — وهى تشمل كل المقابر فى باريس وأشار فولتير إلى هذا التناقض :

إن الممثلين يتقاضون أجورا من الملك ، فى الوقت الذى تحرمهم فيه الكنيسة . ويصدر إليهم أمر الملك بالتمثيل كل مساء ، بينما تحظر عليهم الديانة أن يمثلوا إطلاقا ، وإذا امتنعوا عن التمثيل زج بهم فى السجن (كما حدث عند ما أضرب ممثلو جلالته عن العمل) فإذا مثلوا ألقى بهم (عند موتهم) فى البالوعات . إننا نبتهج ونسر بهم ، ونعترض على دفنهم معنا ، ونرحب بهم على موائدنا بينما نغلق أبواب مقابرنا دونهم [٦] .

وكانت أدريين ليكوفرير أعظم الممثلات الفرنسيات فى زمانها مثلا واضحا لهذه المتناقضات فى حياتها ومماتها . إنها ولدت فى ١٦٩٢ قرب قرب ريمس وجاءت إلى باريس فى العاشرة من عمرها ، وأقامت قرب « المسرح الفرنسى » وكثيراً ما شقت طريقها إليه ، ثم قلدت فى البيت الممثلات اللاتى أعجبت بهن وهى واقفة على أرض المسرح تحت الشرفات . وفى سن الرابعة عشرة نظمت فرقة من الهواة قاموا بالتمثيل على مسارح خاصة . وأعطاها الممثل « لى جراند » دروسا ، وهيأ لها مكاناً فى فرقة تمثل فى ستراسبورج . وقامت بالتمثيل فى الأقاليم لعدة سنوات ، كما فعل موليير ، وانتقلت من دور إلى دور ، ومن قصة غرام إلى أخرى دون ريب . وهفت نفسها إلى الحب ، فلم تصادف إلا الداعرين الفجرة ، وتركها اثنان منهما على التعاقب حاملا ، ورفضا الزواج منها . وفى سن

الثامنة عشرة وضعت بنتا . وفى الرابعة والعشرين وضعت بنتا أخرى . وفى ١٧١٥ عادت إلى باريس ، والتقى بها هناك فولتير الشاب ، وكان لها لبعض الوقت أكثر من صديق(٧) . وفى ١٧١٧ أصبحت السيدة الأولى فى « المسرح الفرنسى » الذى كان مأواها ومبعث إلهامها فى شبابها .

ولم تكن مثل معظم الممثلات الشهيرات بارعة الجمال ، بل كانت بدينة ، وكانت قسمات وجهها غير متناسقة ، ولكنها تميزت برقة تفوق الوصف فى جلستها ووقفتها وحركتها وعاداتها ، وموسيقى مغرية فى صوتها ، وبريق من الشرر والإحساس فى عينيها السمراوين ، وتعبير متحرك كريم فى وجهها . وكان كل تصرف منها يعبر عن شخصيتها . ورفضت أن تتبع الأسلوب الخطابى الذى كان قد أصبح تقليدا سائدا فى التمثيل فى فرنسا فى المسرح الطويل المستطيل الشكل فى المسارح القديمة . وعقدت العزم على أن تمثل دورها وتنطلق بعباراتها على خشبة المسرح كما تتحدث فى الحياة الواقعية ، اللهم إلا فى إخراج الحروف من مخارجها والإبانة فى اللفظ ، ورفع درجة الصوت ، مما هو مطلوب لنقل كلماتها إلى أبعد مكان يوجد فيه الجمهور . إنها فى فترة عملها القصيرة حققت ثورة أو انقلابا فى فن التمثيل المسرحى . وتحقق هذا أيضا فى عمق شعورها ، وقدرتها على نقل انفعالات الحب أو رقته ، وكل العطف أو الرعب فى أى مشهد مأساوى . وتفوقت فى الفن الشاق ، فن الاصغاء المعبر اليقظ حين يتكلم الآخرون .

وامتدحها الشيب ، أما الشبان فقد وقعوا فى غرامها . وهام بحبها الشاب شارل أوجسطين دى فريول كونت أرجنتال الذى كان مقدرا أن يصبح « ممولا ومدعماً بنقوده » لفولتير ووكيلا له ، وجزعت والدة شارل لهذا خشية أن يعرض على أدريين الزواج فتقبل ، فأقسمت الأم أن تبعث بولدها إلى المستعمرات ، وعندما سمعت الممثلة بهذا أرسلت إلى مدام دى فريول (٢٢ مارس ١٧٢١) تؤكد لها أنها لن تشجع الشاب على الاتصال بها أو تبادل الرسائل معها : « سأكتب إليه بأى شىء يرضيك . ولن أراه بعد الآن إذا كنت ترغبين فى ذلك . ولكن لا تهدديه بإرساله

إلى أقصى الأرض . وسيعمل كل ما يبعث فى قلبك الرضا والارتياح ، ويضفى عليك الشهرة والمجد ، وما عليك إلا أن توجهى مواهبه وقدراته وتنمى فضائله لتؤتى ثمارها[٨] .

وكانت آدرين على حق ، فإن دارجنتال فاز بعضوية برلمان باريس ، وفى سن الخامسة والثمانين ، حين كان يقلب النظر فى الأوراق التى تركتها والدته ، عثر على هذه الرسالة التى لم يكن يعرف عنها شيئاً من قبل .

واستمتعت آدرين بدورها بنشوة الحب كما عانت من الهجران والصدود . وكان الأمير الشاب موريس السكسونى كثيراً ما يتردد على المسرح الذى تعمل فيه ، ولم يكن بعد قد انتفخت أوداجه زهوا بانتصاراته ، ولـكنه كان وسيما عاطفيا خياليا حتى أنه عندما أقسم على الاخلاص والولاء لها مدى حياته ظنته فارس أحلامها الذى طال انتظارها له ، وإذا وصل الأمر بالرجال إلى الوعد بالاخلاص مدى الحياة ، فانهم يحيون ويموتون عدة مرات مثل القطط (بسبع أرواح) . ورضيت به عشيقا (١٧٢١) ، وعاشا لفترة من الزمن يرشفان كؤوس المحبة والاخلاص إلى حد أن باريس قارنتهما بقمريات لافونتين الحبيبات . ولـكن الجندى الشاب الذى أصبح لتوه « قائد المعسكر » راوده الحلم بأن يكون ملـكا ، وقد رأيناه يسارع إلى كورلند (جزء من لتفيا الحالية) طمعا فى الحصول على التاج فيما ، وكان نصف الأموال التى حملها معه من مدخرات آدرين .

فتسلت عن فراقه بتأسيس « صالون » فى بيتها . ولم يكن غير ذى عائد فـكرى لها إنها كانت قد تعلمت رشاقة راسين وأفـكار موليير ، حتى أصبحت من خيرة سيدات فرنسا ثقافة وعلما ، ولم يكن أصدقاؤها من المعجبين العابرين ، ولـكنهم رجال ونساء أحبوا عقلها . فقصد فونتيل وفولتير ودارجنتال والـكونت دى كايلوس بانتظام إلى دارها لتناول العشاء ، ووجد بعض السيدات الأنيقات من ذوات الألقاب والاحساب متعة فى الانضمام إلى هذه الجماعة المتألقة .

وفى ١٧٢٨ عاد الجندى الذى لم يواته الحظ ولم يتحقق أمله إلى باريس .

وكان البعاد قد خفف من لوعة حبه . وتبين أن آدريين كانت تكبره آنذاك بأربعة أعوام حيث كانت فى السادسة والثلاثين وعرض كثير من السيدات الثريات أن يشاركنه مضجعه ، وكان الدم الملكى يجرى فى عروق إحداهن مثله تقريبا ، وهى لويز دى لورين دوقة بويون حفيدة بطل بولنده النبيل جان سوبيسكى ، وكانت تختال فى جرأة أمام موريس فى مقصورتها فى المسرح الفرنسى ، إلى حد أن آدريين ولت وجهها شطر هذه المقصورة ، حين كانت تلقى فى شيء من التوكيد بعض أبيات غاضبة من رواية راسين « Phedre » « لست واحدة من هؤلاء السيدات الوقحات اللائى تعلمن ، وهن يلقين ظلالا من الجريمة على مظهر الوئام الهادىء الوادع ، إن يكن صفيقات إلى حد لا يستشعرن معه الخجل من سوء تصرفهن »(٩) .

وفى يوليه ١٧٢٩ أبلغ سيمون بوريه ، القسيس رسام المنمنمات الآنسة ليكفرير أن رسولين مقنعين من إحدى سيدات البلاط عرضا عليه أن يعطى الممثلة بعض أقراص السم لقاء ٦٦٠٠ جنيه إذا قام بالمهمة . فأخطرت آدريين الشرطة بذلك . فقبضوا على القسيس وأجروا معه تحقيقاً دقيقاً . ولكنه صمم على أقواله . وكتبت آدريين إلى مدير الشرطة رسالة رائعة تطلب منه إطلاق سراح القسيس : « إنى تحدثت إليه ، وجعلته يتحدث إلىّ كثيراً لوقت طويل ، وأجاب دائماً إجابات محكمة ذكية ، ليس لأنى أرغب فى أن يكون ما قال صحيحاً . فإن لدى مزيداً من الأسباب التى تحملنى على أن أتمنى أن يكون مخبولا . آه : أليس إلى الله وحده أتوسل ان يغفر له ؟ ولكن إذا كان بريئا فأرجو أن تفكر يا سيدى إلى أى حد يجدر بى أن أهتم بمصيره . لا تلق بالا إلى مهنتى أو مولدى وأصلى ، ولكن حاول متفضلا أن تستشف حقيقة نفسى التى بين جنبى ، وكم هى صادقة مخلصة ، وقد كشفت لك عن سريرتها . بجلاء ووضوح فى كتابى هذا(١٠) .

وأمر الدوق دى بويون على أية حال ، على احتجاز القسيس ، ثم أفرج عنه بعد بضعة شهور ، وظل مصرا على أقواله . ولسنا ندرى حتى يومنا هذا مبلغ صدق روايته .

وفى فبراير ١٧٣٠ بدأت الآنسة ليكوفرير تعانى من إسهال يزداد سوءا يوما بعد يوم . وظلت تمثل أدوارها على المسرح ، ولكن فى أوائل مارس حملوها من المسرح مغمى عليها . وفى ١٥ مارس مثلت ، وهى تلتقط آخر أنفاسها « جوكاست » فى رواية فولتير « أوديب » وفى يوم ١٧ مارس لزمت الفراش ، وصارت تنزف نزيفا مميتا من أمعائها ، ولم يعد الماريشال يزورها ، ولكن فولتير ودارجنتال فقط هما اللذان سهرا على العناية بها فى هذه الخاتمة الفاجعة المذلة ، وفاضت روحها فى ٢٠ مارس بين ذراعى فولتير .

وحيث كانت آدريين قد رفضت الشعائر الأخيرة للكنيسة (١١) . فإن القانون الكنسى حرم دفنها فى الأرض المخصصة للمؤمنين ، واستأجر أحد الأصدقاء اثنين من حملة المشاعل ليحملا جثمانها فى عربة أجرة لدفنه سرا على ضفاف السين ، فيما أصبح فيما بعد شارع بورجون . (فى نفس العام ١٧٣٠ دفنت الممثلة الانجليزية آن أولدفيلد باحتفال عام فى كنيسة وستمنستر .) وفى ١٧٣٠ نظم فولتير قصيدة (موت الآنسة ليكوفرير يستنكر فيها المعاملة المهينة فى دفنها بهذه الطريقة : « تأثرت كل القلوب ، مثل قلبى ، بالأسى والفجيعة . وإنى لأسمع كل الفنون الذاهلة تولول من حولى ، وهى تذرف الدمع . ان ملبومين (ربة المأساة) قضت نحبها ، ماذا عساكم تقولون أيها الأعقاب رجال الغد إذا علمتم بهذا الأذى الأليم المدمر الذى ألحقه أناس قساة بلا قلوب بهذه الفنون البائسة التى تخلى عنها أصدقاؤها ؟ لقد حرموا من الدفن من إذا كانت فى اليونان القديمة لأقاموا لها مذبحا فى الهيكل . لقد رأيتم يقدسونها ويزدحمون حولها . إنها لا تكاد تموت متى تصبح محرمة ، لقد سحرت ألباب العالم ، ثم ها أنتم تعاقبونها ، كلا ، لن تكون هذه الضفاف بعد الآن دنسة ، إنها تضم رفاتك ، وستكون هذه المقبرة الحزينة معبدا جديدا لنا ، نمجده فى ترانيمنا ، وتضفى عليه ظلالك قدسية » .

فى ١٨٤٩ أخرج يوجين سكريب وارنست ليجوفيه فى باريس مسرحيتهما الناجحة غير الدقيقة تماما « آدريين ليكوفرير » . . وفى ١٩٠٢ ألف فرانسسكو سيليا أوبرا فى نفس الموضوع .

وكان أعظم كاتب مسرحي فى ذاك العصر ، بطبيعة الحال ، فولتير . وكان له منافسون كثيرون ، من بينهم بروسبرجولتون دى كربيون ؛ وهو معمر عجوز كان ينبغي له أن يفارق الحياة منذ أمد طويل . وكان كربيون قد أنتج فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧١١ روايات ناجحة ثم اقتنع بالفشل المحتوم لروايته « اجزرسيس » ١٧١٤ ، وهنا كانت نهايته ، وكان قد انقطع عن التأليف ، وبات يعانى الفقر ، ويجد بعض السلوى فى مسكن على السطح مع مجموعة لطيفة من عشر كلاب وخمسة عشر قطا وبعض الغرابيب السود . وفى ١٧٤٥ أنقذته مدام دى بمبادور بمعاش ووظيفة عاطلة (يقبض راتبا ولا يؤدى عملا) ، واتخذت التدابير الطبع مجموعة أعماله فى مطبعة الحكومة . وقصد إلى فرساى ليقدم لها الشكر . ولما كانت هى مريضة ، فقد استقبلته وهى ملازمة الفراش ، فلما انحنى ليقبل يدها دخل لويس الخامس عشر ، فصاح ابن السبعين « مولاتى ، لقد وقعت الكارثة ، إن الملك فاجأنا معا »[(١٢)] . وسر الملك برمضة الذكاء وسرعة البديهة وانضم إلى بمبادور فى حثه على إكمال روايته « كاتيلين وكان قد أهملها وشهدتها مدام بمبادور والحاشية ، ونال العرض الأول الأستحسان (١٧٤٨) . واهتز كربيون طوبا من جديد لما أصاب من شهرة ومال . وفى ١٧٥٤ وهو فى الثمانين أخرج آخر رواياته . وعمر بعد ذلك ثمان سنين ، سعيدا بحيواناته ؛

ولم يطب فولتير نفسا بظهور منافس له من بين القبور ، ولكن كان عليه أيضا أن يواجه فى الملهاة منافسه ماريفو المتعدد الجوانب الشديد الانفعال إن بيير كارل دى شمبلين دى ماريفو أصبح هجاءا حين رأى بمحض الصدفة ، حبيبته ذات السبعة عشر ربيعا تطبق عمليا مفاتنها المغرية أمام المرآة . ودق قلبه مؤقتا فقط ، لأن والده كان المدير الثرى لدارسك النقود فى ريوم ، وكم من شابه أو غادة تاقت نفسها لتكون زوجة بيير . وتزوج من أجل الحب ، وأدهش باريس حين عاش حياة جنسية طابعها الرصانة والاعتدال . وانضم إلى صالون مدام دى تنسان ، وربما تعلم فيه الدعابة المرحة ، والعبارة الرشيقة والإحساس الرقيق ، وانتقل كل أولئك إلى رواياته ، وتميزت به مسرحياته .

وأول نجاح إصابة ماريفو هو رواية « آرليكان يصقله الحب » التى عرضت لمدة اثنتا عشرة ليلة متوالية على « مسرح الايطاليين » ١٧٢٠ . وبقدر ما كان يحصل عليه من أجور ، فقد معظم أمواله عند انهيار بنك لو . ويروى إنه استرد ثروته بقلمه(١٣) ، حيث كتب سلسلة من رواياته الملهاة (السكوميديا) أمتعت باريس بمرحها اللطيف وحبكاتها البارعة ، وأشهرها « لعبة الحب والحظ » . وقد هاجمت اعتزام زوجين (أربعة أشخاص ، رجلان وامرأتان) اعتزاما متزامنا ، ولـكن غير متفق عليه ، أن يختبرا اخلاص الخطيب الذى لم تقع عليه العين بعد ، عن طريق تبادل الزى والشكل بين سيد وخادم وسيدة وخادمة ، فى سلسلة من المصادفات السخيفة المضحكة ، مثل منديل ديدمونة (فى رواية عطيل) . وسر نساء باريس أكثر مما سر رجالها بالمآزق التى يتورط فيها الحب فى هذه الروايه وبما فيها من عاطفة رقيقة . وهنا أيضا كما هو الحال فى قصر فرساى ، وفى الصالونات ، وعند واتو وبوشيه ، تحكمت المرأة ، وكان لها القول الفصل ، وحل تحليل المشاعر محل مشاكل السياسة وبطولات الحرب ، وتخلت الملهاة الرجولية عند موليير عن مكانها أمام الملهاة الانثوية التى سيطرت على المسرح الفرنسى (معترضـــة الطريق) إلى أيام سكرايب وديماس الابن وساردو .

٣ — القصة الفرنسية

إن ماريفو هذا هو نفسه الذى أضفى على القصة فى فرنسا شكلا جديدا . وفى ١٧٣١ أصدر الجزء الأول من « حياة ماريان » . وتقبلها القراء قبولا حسنا . واستمر يقدم أجزاء أخرى حتى عام ١٧٤١ ، حتى بلغت أحد عشر جزءاً ، ولم يكملها (ولو أنه عمر حتى عام ١٧٦٣) ، لأن هدفه لم يكن أن يقص حكاية بقدر ما كان أن يحلل شخصية ، وبالذات شخصية المرأة ، وبصفة خاصة فى الحب . ولم يكن ثمة شىء رائع أخاذ أكثر من المشهد الافتتاحى ، عصابة من اللصوص تسطو على مركبة للبريد والمسافرين ، وتقتل كل من فيها ، باستثناء ماريان التى عاشت لتقص القصة فى شيخوختها .

وتحتفظ البطلة والمفروض أنها مؤلفة القصة ، بعدم ذكر اسمها ، وهذا عمل كيدى ، إلى النهاية . وتحمل المخطوطة إلى صديق لها مع تحذيره « لا تنس أنك وعدتنى ألا تبوح باسمى أبدا ، أنا أود ألا يعرفنى أحد إلا أنت . »(١٤)

ولما كان أبوها من بين الضحايا ، فقد تولى تربيتها رجل برجوازى محسن كريم ، حتى أصبحت بائعة فى محل لبيع ملابس النساء . وازدادت فتنة وجمالا إلى حد أثار مسيو دى كليمال . وصار يقدم لها هدايا صغيرة ثم هدايا ثمينة ، وأخيرا طلب يدها جراء ما قدم . ولكنها رفضته ، وأعادت إليه هداياه بعد ترددات يصفها ماريفو فى ذكاء لطيف . وكان جديرا بنا أن نقول إنها فى نفس الوقت كانت قد التقت بابن أخى كليمال ، وهو مسيو دى فالفيل ، الذى كان أقل من عمه مالا وأصغر سنا . ومهما يكن من أمر فإن فالفيل يترك ماريان معلقة ، لما يقرب من ألف صفحة ، وينصرف إلى سيدة أخرى . وهنا ختام قصة ماريان .

تلك هى القصة النفسية فى فرنسا القرن الثامن عشر ، التى لم تنافسها إلا قصة « اتصالات خطيرة » التى كتبها كودرلوس دى لا كلوس (١٧٨٢). إنها أعادت إلى الأذهان قصة مدام دى لافاييت « الأميرة دى كليف (١٦٧٨) » ، ولو إنها تكاد لا تعادلها فى رقة الشعور وجمال الأسلوب ، ولكن بزتها فى تحليل الدافع والعاطفة ، وهنا نجد امرأة ، مثل باميلا عند ريتشاردسن ، تحتفظ بشرفها لأهميته فى سوق الرواج ، إنها تدرك أنه ليس لدى المرأة إلا قيم هزيلة فانية ، لتقدمها تأييدا لأسادية الرواج للرجل الذى يتجه إلى تعدد الزوجات . وتلك صورة أكثر تهذيبا من الصورة التى أخرجها ريتشاردسن ، الذى بدأ قصة باميلا بعد تسع سنين من ماريان وربما تأثر بها . وفى مقابل ذلك نجد أن قصة ريتشاردسن « كلاريسا (١٧٤٧) » ساعدت روسو فى « هلواز الجديدة » .

وعكس ماريفو خلق الطبقة المتوسطة القوى الجديد ، على حين أولع كربيون الابن بفسق الأرستقراطية وفجورها الطائش . وكانوا يطلقون

عليه كربيون المرح » تمييزا له عن أبيه « كربيون المكتئب » (الذى قال عن ابنه إنه أسوأ إنتاجه الكبير) . نشأ كلود بروسبرجوليوت دى كربيون فى باريس فى عصر الوصاية الذى رجحت أخلاقه التعلم الجزويتى الذى تلقاه كلود ، ولعدة سنين شارك أباه سكنه فوق السطح وغربانه وكلابه وقططه . وفى ١٧٣٤ وهو فى السابعة والعشرين اشتهرته قصته « المنزلق على السطح » . ومن الجائز أن يكون هذا لقب كل أبطاله وعنوان كل كتبه ، لأن الحب فيها — كما قال شامفورت — هو مجرد « ملامسة سطحين »[١٥] . ووقعت أحداث القصة فى اليابان ، ولكنها كانت نقداً لاذعاً أو هجاءا صريحاً للكنيسة والدولة فى فرنسا ، واللدوقة دى مين الصغيرة (الفتاة الجميلة) ، إلى حد أن الكاردينال فليرى أبعد الكاتب — كلود كربيون — عن باريس لمدة خمس سنوات .

ولما عاد المؤلف أصدر فى ١٧٤٠ اسوأ رواياته سمعة « الأريكة » ، وقد أبعد من أجلها أيضا ولكن لمدة أقصر . ووقعت الأحداث فى « أجرا » ولكن الأخلاقيات كانت باريسية . إن السلطان تولاه الضجر والسأم ، ويريد قصصا يسرى عنه . ويتفضل رجل الحاشية الشاب أمانزى ، فيروى كيف أنه تجسد فيا مضى من الزمان على هيئته أريكة ، ويعود بذاكرته إلى بعض الخطايا التى ابتلى بها زنيرك الأريكة . وتعاقبت أحداث الزنى فى تفصيل متزايد . ووجد كربيون متعة بالغة فى قصته (Almohid and Mochles) وهما بعد أن أطنبا فى التفاخر بعفتهما وطهارتهما ، يعترفان بأن أفكارهما غير عفيفة مثل سلوك سائر البشر ، ويخلصان إلى أنه لا يمكن أن يكون فى الفعل إثم أكبر منه فى التفكير ، ومن ثم فانهما يوائمان بين الفعل والقول . وتلك ، على أية حال ، استثنائية . فان نساء كربيون يتطلبن عادة جزاء (عملا) ماليا عن أقوالهن ، ومن ثم أحصت « أمينا » بعناية ما حصلت عليه من مال ، ولم تستجب لرغبة حبيبها إلا بعد أن تأكدت كل التأكد إنه لم يخطئ فى العملية الحسابية .[١٦]

ولقى الكتاب ما كان مقدرا له من نجاح . ووجد قراء فى عدة لغات

أسرفت كلها فى تصرفات شاذة . واعترف لورنس ستيرن بأنه تأثر بقصص كربيون . وفضلها هوراس وولبول على قصص فيلدنج . وكان مفهوم الرجل الفاضل العفيف توماس جراى عن الجنة والنعيم « أن يقرأ إلى الأبد قصصا جديدة من تأليف ماريفو وكربيون » [١٧] . وجاءت من إنجلترا على عجل السيدة هنريتا ستافورد ، وأصبحت خليلة كربيون ، وأم ولده ، ثم زوجته ويروون أنه جعل من نفسه زوجا مثاليا لها [١٨] . وفى ١٧٥٢ انضم إلى الكسيس بيرون وشارل كوللى فى تأسيس « الكاف — الكهف » وهو ناد للموهبين المرحين الذين اشتهروا بالبعد فى الوقار والمزاح . وفى ١٧٥٩ عين « بدليل الخلف » رقيبا ملكيا على الأدب . ولما توفى والده فى ١٧٦٢ ، بعد أن أبطأ به الموت إلى حد مثير ، ورث ابنه معاشه . « والأمور بخواتيمها » .

وفقدت كتب كربيون شعبيتها قبل وفاته بزمن طويل . ولكن فى الوقت نفسه كان أحد رجال الدين العلماء المتقفين قد كتب قصة لا تزال حية مؤثرة إلى يومنا هذا . وكانت حياة أنطوان فرنسوا بريفوست دى أجزيل . المعروف باسم الراهب بريفوست ، متعددة الألوان مرهقة مثل سير الحياة التى أبدعها قلمه . إنه ولد فى أرتوا فى ١٦٩٧ ، وتعلم فى مدارس اليسوعيين ، ثم أصبح راهبا مبتدئا فى طائفة اليسوعيين (١٧١٣) . وتركهم ليلتحق بالجيش ، وارتقى إلى رتبة ضابط ، ووقع فى شراك الحب . وخاب فيه أمله وتحطم قلبه ، وأصبح راهبا بندكتيا (١٧١٩) ، ثم قسيسا ١٧٢٦ ، وقد يبعث على الدهشة والعجب أن نقول إنه منذ ذلك الوقت اعتمد فى حياته كل الاعتماد على قلمه .

وكان بريفوست ، حتى قبل أن يهجر حياة الدير ، قد كتب قصة رومانسية « مذكرات ومغامرات رجل ذى حيثية » ، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منها ١٧٢٨ فى باريس ، وبعد عام قضاه فى إنجلترا قصد إلى هولنده ، وفى ١٧٣٠ بدأ ينشر قصة ثانية « الفيلسوف الانجليزى ، أو تاريخ مستر كليفلند ، الابن الطبيعى لكروامول » وهى من أوائل القصص التاريخية .

وكتبها فى ثمانية مجلدات فى السنوات التسع التالية . وفى ١٧٣١ نشر المجلدات الخامس والسادس والسابع من « المذكرات » سالفة الذكر ونشر المجلد السابع على حدة فى باريس ١٧٣١ تحت اسم « مغامرات الفارس دى جرييه ودى مانون ليسكو » (تأليف مسيو د) . وحظرت الحكومة الفرنسية تداوله ، ومن ثم أقبل عليه الناس اقبالا شديدا متزايدا . ويقال « إنه فى باريس لقى رواجا كبيراً ، وتهافت الناس عليه كما يندفعون إلى النار »[١٩]

وقصة مانون موضوعة فى قالب قبيح غير مصقول من التظاهر والإدعاء ، فثمة اثنتا عشرة بغيا فى مركبة فى طريقهن إلى ميناء الهافر لترحيلهن إلى أمريكا . والمركيز — الرجل ذو الحيثية المجهول ، والمفروض أنه يدون المجلدات السبع من المذكرات ، يأسر قلبه جمال إحدى الفتيات التى وصف وجهها فيما بعد « بأنه يمكن أن يعيد العالم إلى الوثنية »[٢٠] . ويرى كذلك فارس دى جرييه البائس الوحيد الذى يحدق النظر باكيا فى خليلته السابقة ، مانون ، ويستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس ولا يستطيع أن يتبعها إلى منفاها ، وتتحرك مشاعر المركيز ويتأثر تأثرا مزدوجا فيعطى دى جرييه أربعة جنيهات ذهبا ؛ مكنت الفارس من مصاحبة مانون إلى لويزيانا . ويراه المركيز فى كاليه بعد ذلك بعامين ، ويأخذه إلى داره . أما بقية المجلد الصغير فهى رواية دى جرييه لقصة حبه .

وكان شابا نموذجيا كريم المحتد ، مبرزا فى كل شىء فى الكلية فى اميان ، وكان فى عزم أبويه أن يلحقاه بطائفة الفرسان فى مالطة . وفى غمرة آمالهما العريضة « جعلانى أضع الصليب »[٢١] . ولكن مانون مرت أمامى ودخلت حياتى ، وتغير كل شىء . وكانت آنذاك فى الخامسة عشرة وهو فى السابعة عشرة ، « ولم تكن قد تنبهت بعد إلى الفرق بين الجنسين » • وعجل هو هذا التطور المكبوت على الفور . وتبلغه مانون أنها أرسلت إلى اميان ضد رغبتها لتندمج فى سلك الراهبات ، فيعرض عليها أن يخلصها من من هذا ، ويهربان إلى باريس ، وبدا أن اعجابهما المتبادل كان عقداً وميثاقا كافيا » ، وتحللنا من مراسم الكنيسة ، ووجدنا أننا أصبحنا رجلا

وزوجة ، دون أن نفكر فى هذا أو نتنبه له » ويكشف أخوه أمره ويقبض عليه ويعيده إلى والده الذى يخبره بأن مانون أصبحت بالفعل خليلة للسيد « ب » أحد رجال المصارف . ويرى دى جريبه أن يذهب ليقتل السيد « ب » فيحبس الوالد ابنه ، ويأتى أحد الأصدقاء تيبرج ، ويؤكد الزعم بأن مانون خليلة السيد « ب » ويحث دى جريبه على الانتظام فى سلك الكهنوت ، ويلتحق الشاب بمعهد سان سلبيس اللاهوتى ، ويصبح راهبا . « وظننت أنى تطهرت تماما من دنس الحب ، ويذهب بعد عامين لحضور إمتحان عام ومناظرة فى السوربون ، فيفاجأ بمانون بين الحاضرين ، وتشق هى طريقها إليه ، وتعترف بخيانتها ، ولكنها تقسم انها لم تقترف الخطيئة مع السيد « ب » إلا لتوفر المال لدى جريبه . ويهربان من جديد .

ويتخذ الحبيبان مسكنا فى ضاحية شبو ، ويعيشان حياة باذخة على مبلغ الستين ألف فرنك الذى حصلت عليه مانون من السيد « ب » . ويأمل دى جريبه بعد فصله من سلك الرهبنة وعودته إلى الفروسية ، أن يحصل من أبيه على الصفح والمال أو أن يرث مال أبيه بعد موته . ويسطو عليهما أحد اللصوص فيسلبهما مالهما . ويجدان أنهما أصبحا معدمين بين عشية وضحاها . وأدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال دون أن يكون بخيلا . . لقد عرفت مانون . . . . ومهما كانت مخلصة وفية مغرمة بى فى وقت الرخاء ، فلا يمكن الاعتماد عليها فى وقت الشدة . إنها اهتمت كثيراً بالمتعة والثروة لتضحى بهما من أجلى »[٢٢] . وهو يحبها أكثر من حبه للشرف . ويسمح لاخوتها أن يعلموه الغش فى لعب الورق فيكسب بعض المال ، ولكنه يتعرض للسرقة مرة أخرى . وتهجره مانون إلى رجل فاجر عجوز ثرى ، وتركت له رسالة تقول فيها « إنى أعمل لأجعل فارس غنيا سعيدا » . وينضم إليها فى مؤامرة لابتزاز المال من هذا الرجل العجوز ، وينجحان ويختفيان ثم يقبض عليها ، وتوضع هى فى الملجأ العام باعتبارها بغيا ، ويرسل هو إلى الدير . ولكنه يهرب منه باطلاق النار على حارس البوابة : ويقترض نقودا ويرشو القائمين على الأمر فى الملجأ ليسهلوا لمانون سبيل الهرب ، وتقطع على نفسها عهدا بحبه إلى الأبد .

ولما نفد رصيدهما من المال ، أجازت لوريث غنى أن يتخذها خليلة ، ويقبض عليها ثانية ، ويقنع والد جريبه السلطات الرسمية بترحيلها ويحاول دى جريبه انقاذها فى الطريق ، فلما عجز عن ذلك أبحر معها إلى نيو أورليانز ، وهناك تعلمت أن تحتمل مرارة الفقر ، وأن تكون مخلصة كل الاخلاص لدى جريبه ، ويعودان إلى ممارسة الشعائر الدينية ، ولكن ابن حاكم المستعمرة يهيم بحبها . ولما كان مانون ودى جريبه قد أهملا أن يعقدا عقدا شرعيا بالزواج ، فإن الحاكم مارس حقه فى أن يزوجها من أى فرد فى المستعمرة ، ومن ثم أمرها أن تقبل ابنه زوجا لها . واردى دى جريبه لابن قتيلا فى مبارزة ، ويهرب الحبيبان إلى الفيافى والقفار سيرا على الأقدام . وبعد مسيرة عدة أميال مرهقة ، تسقط مغشيا عليها وتفارق الحياة ، « وقضيت يومين وليلتين لا تفارق شفتاى وجه عزيزتى مانون ويديها » . وحفر بيديه جدثا لها ويواريها التراب ، ويرقد على القبر ليقضى نحبه هو الآخر . ولكن صديقه الطبيب تيبرج ، الذى قدم فى نفس الوقت من فرنسا ، يعثر عليه ، ويصحبه ثانية إلى كاليه ، إلى المركيز ليروى حكايته .

وأصبحت « مانون ليسكو » معينا لا ينضب لقصص حب مبللة بالدموع . فإن أية امرأة ، ولو لم تكن « محطمة القلب » تذرف الدمع على موت مانون وحزن دى جريبه ، مغتفرة لها حيلها المالية ، وله جرائمه الخسيسة . وضرب بريفوست على نغمة جديدة حين نسب إلى بطله وبطلته أخطاءا كثيرة إلى هذا الحد ، وجعلها أخطاء حقيقية ، حين كشف عن حب مانون الطاغى للذة والمتعة ، وقدرة حبيبها على التطفل والغش والسرقة والقتل . وهى طراز عتيق للبطلة ، وهو بالتأكيد مثال جديد للبطل . وربما بلغ الكتاب قدرا أكبر من القـــوة لو أن دى جريبه ترك ليموت على قبر مانون »

وربما روى بريفوست القصة بمثل هذا الاحساس والعاطفة لأنه هو نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا فى دى جريبه . ومن ثم كانت

القصة سيرة حياته قبل أن تكون حادثا . ولم يكن تافها متطفلا ، ترجم إلى الفرنسية روايات ريتشارد سن الثلاث الضخمة ، وزادت تلك الترجمات من تهافت فرنسا على ريتشارد سن ، وهو تهافت كان له مظهر مختلف عند روسو وديدرو . وترجم كتاب مدلتون « حياة شيشرون » ، وكتاب هيوم « تاريخ إنجلترا » ، وكتب عدة قصص أقل شأنا ، وعدة مجلدات عن « التاريخ العام للرحلات » . وفي امستردام في ١٧٣٣ ، وقع في غرام عشيقة رجل آخر . ولما نمى إليه أن البندكتيين استصدروا أمراً بسجنه ، هرب إلى إنجلترا مصطحبا هذه السيدة معه . وفي لندن كسب عيشه بإعطاء دروس خاصة . وفي ١٥ ديسمبر قبض عليه بتهمة قدمها ضده أحد تلاميذه بأنه زيف ورقة نقدية من ذات الخمسين جنيها — وهي جريمة عقوبتها القانونية الاعدام . وسرعان ما أطلق سراحه لأسباب مجهولة . وعاد إلى فرنسا (١٧٣٤) وانضم من جديد إلى طائفة البندكت . وفي ١٧٥٣ عين في دير سان جورج — دي جين .

وأدى موته بعد عشر سنين من ذلك إلى أسطورة ترويها حفيدته بيف لسانت بيق وكأنها حقيقة ، تلك هي أنه أصيب بالسكتة أثناء سيره في غابات شانتيللي ، وأن طبيبا ظن أنه مات فقام بتشريحه ليقف على سبب الوفاة ، وأن بريفوست كان لا يزال حيا ، ولكن فحص الجثة هو الذي أودى بحياته[٢٣] . هذه القصة مرفوضة اليوم بصفة عامة[٢٤] .

وكان تأثير بريفوست كبيرا . إنه أسهم في تشكيل رواية روسو « هلواز الجديدة » ، وحرك ديدرو الحاد الذهن الرقيق القلب ليكتب مسرحيات باكية عاطفية . كما اتخذ هذا التأثير اتجاها مثاليا في قصة « بول وفرجيني » للكاتب برناردين دى سانت بيير . وبرز التأثير من جديد في « غادة الكاميليا » لديماس الابن . ولعبت دورا في الحركة الرومانسية ، إلى أن قدم فلوبرت « مدام بوفاري » (١٨٥٧) . ولا تزال مانون تحيا وتموت في الأوبرا .

٤ ــ حكماء أقل شأنا

ونعود إلى الكلام عن راهب آخر ، وينبغى علينا فى هذه المرة أن نوفيه حقه . فقد رأينا كيف أن شارل ايرينى كاستل راهب سان بيير ، روع الدبلوماسيين فى أوترخت بكتابه « مذكرة فى حفظ السلام على الدوام » . (١٧١٢) . وهى التى أسرت لب روسو وكان كلاهما كما رأينا ، بعرض على نادى « أنترسول » خليطا من أفكار واصلاحات تقدمية إلى حد أن الكاردينال فليرى أحس بأنه مضطر إلى اغلاق النادى انقاذاً للدولة (١٧٣١) . فلماذ كانت هذه الأفكار ؟

إن شارل هذا ، على غرار كثير من الثائرين المتمردين ، قد اكتسب ذهنه حدة ومضاء بفضل التعليم اليسوعى . إنه لم يطل به الوقت ليطرح العقيدة السائدة جانبا ، وعلى الرغم من إنه ظل يعلن اعتناقه الكثلكة ، فإنه ألحق بها أذى ماكرا فى « مقالة ضد الإسلام » ، حيث أن ما أورد فيها من حجج — مثل فولتير فى كتابه « محمد » — يمكن تطبيقه بسهولة على المسيحية التقليدية . وواضح أن « تفسيره المادى » للمعجزات المزعومة التى قال بها البروتستانت والمنشقون والمسلمون » قصد به بالمثل التشكك فى المعجزات الكاثوليكية .

وفى ١٧١٧ ثم فى ١٧٢٩ أعاد نشر « مشروع السلام الدائم » بعد التوسع فيه . وناشد ملوك أوربا ، ومن بينهم سلطان تركيا ، أن يعقدوا ميثاقا مقدسا يمكن أن يكفل بالتبادل ممتلكاتهم الحالية ، وأن تنبذ الحرب وسيلة لتسوية الخلافات الدولية ، وأن يخضع هذه الخلافات لاتحاد أوربى تكون له قوة فرض قبول القرارات التى يصدرها . وصاغ نموذجا لدستور لهذا الاتحاد ، مع القواعد التى يمكن اتباعها فى إجراءات اجتماعات هذا الاتحاد . وحدد الانصبة المالية التى تخصصها كل من الدول الأعضاء للاتحاد ، ولم يكن أحد ليتوقع تنبؤه بأن مؤتمر فيينا ١٨١٥ ، سيشكل ، على هذه الأسس « حلفا مقدسا » للابقاء دوما على النظم الملكية والاقطاعية ، وإخماد الحركات الثورية .

ولم يكن ثمة صعوبات يمكن أن تزعزع ثقة الراهب المرن السريع التكيف ، فأقر . فى عبرة دينية الإيمان بالتقدم ، وفى كتابه « ملاحظات على التقدم المستمر فى العقل العالمى » (١٧٣٧) أعلن ، قبل كوندوروسيه بزمن طويل ، إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال غير المحدود بفضل قوة العقل فى رجال العلم والحكومات . إنه فوق كل شيء قال وهو مستغرق فى التفكير والتأمل ، بأن الجنس البشرى وفقا لمراجع موثوقة ، لا يزيد عمره على سبعة أو ثمانية آلاف سنة ، ومن ثم فإنه لا يعدوا أن يكون فى مرحلة « طفولة العقل » ، فما الذى لا نتوقعه منه فى شبابه النشيط بعد ستة آلاف سنة ، وفى الازدهار الرائع فى مرحلة نضج الجنس البشرى بعد مائة ألف عام من الآن ؟ (٢٩) .

إن سان بيير تنبأ بمشكلتنا الحديثة : تلك هى أنه بينما خطت العلوم والمعرفة خطوات واسعة فى طريق التقدم ، لم يحدث فى مجال الأخلاق أو السياسة تقدم متكافئ مع تلك الخطوات ، إن المعرفة تزود الرذيلة بالوسائل والأدوات بقدر ما تهذب الأخلاق وتعمل على تنويرها . وكيف ننحو بنمو المعرفة نحو تقويم أخلاق الأفراد والأمم ؟ وفى رسالته « مشروع لتحسين أوضاع حكومات الدول والبلوغ بها إلى درجة الكمال » (١٧٣٧) اقترح سان بيير تأسيس « أكاديمية سياسية » تتألف من أعظم الرجال عقلا وحكمة فى البلاد ، تكون بمثابة هيئة استشارية للوزراء فى الدولة فى كل ما يتعلق بالاصلاح الاجتماعى والخلقى . وقدم عدة اقتراحات محددة : تعليم عام تحت إشراف الحكومة (لا الكنيسة) ، تسامح دينى ، زواج رجال الدين ، توحيد القوانين الفرنسية ، قيام الدولة برعاية الصالح العام والنظام الاجتماعى ، وأخيرا زيادة الايرادات القومية عن طريق الضرائب التصاعدية على الدخول والتركات(٢٦) . وفى ١٧٢٥ أضاف الراهب إلى اللغة الفرنسية لفظة « الإحسان أو عمل الخير » ليميز الروح الإنسانية التى آثرها على الصدقات التى تقترن بفكرة التنازل والتلطف فى النظام القديم . ووضع قبل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل مبدأ المنفعة : ذلك « أن قيمة أى كتاب

أو قاعدة أو نظام أو عمل عام تقاس بعدد وعظمة الملذات والمتع الفعلية التى تحققها ، وما ينتظر أن تحققها فى المستقبل ، لأكبر عدد من الناس [٢٧].
وبدا معظم الأفكار الأساسية عند الفلاسفة استهلالا أو مقدمة لسان بيير ، بل للأمل فى ملك مستنير ـ كعامل من عوامل الاصلاح . وكان سان بيير بكل بساطته وسذاجته واطنابه ، أحد الأذهان التى حملت بذور عصر الاستنارة .

ولا بد أن شارل بينو ديكلوس قد ازدرى الراهب سالف الذكر لأنه خيالى واهم لا يتفق مع ذهن واقعى . ولد فى دينان بمقاطعة بريتانى ، واحتفظ حتى النهاية بالشخصية الجادة الحذرة العنيدة التى تميز بها البريتون . وكان ابنا لوالد برجوازى ميسور ووالدة ماتت فى السنة الأولى بعد المائة ، فاستطاع أن يقضى شبابه الطائش فى باريس فى عهد الوصاية . وتلقى تعليمه العالى عند اليسوعيين وبنات الهوى ، وانغمس فى حماقات الشباب أيما انغماس . وزاد من حدة ذكائه فى المقاهى ، ومكنت له شهرته بسرعة البديهة من ارتياد المجتمع والصالونات ، وزاد من شهرته بقصة « تاريخ البارونة دى لوز » (١٧٤١) التى كادت أن تكون اتهاما لله . إن البارونة تصد كل هجوم على أمانتها الزوجية ، ولكنها تستسلم لحاكم فاسق فاسد ، لتنقذ حياة زوجها المتورط فى مؤامرة ضد الملك . وتغتصب البارونة مرتين . وفى سورة غضب جنونى تصرخ « أيها الرب القاسى ، كيف استحق كراهيتك لى هل لأن الفضيلة كريهة لديك ؟ [٢٨] » .

وعلى الرغم من مغزى هذا الكتاب وما تضمنه من إثارة جنسية انتخب ديكلوس للأكاديمية (١٧٤٦) بفضل نفوذ مدام دى بمبادور . واشترك بحيوية ونشاط فى أعمالها ، وأعاد تنظيمها ، وربط بينها وبين أدب العصر وفلسفته ربطا بعث فيها الحياة . وفى ١٧٥١ خلف فولتير فى وظيفة مؤرخ الملك وفى ١٧٥٤ سعى لانتخاب دالمبرت لعضوية الأكاديمية ، وفى ١٧٥٥ انتخب سكرتيراً دائماً لها ، وظل الروح المسيطرة عليها حتى وفاته . وكسب الأكاديمية إلى جانب الأفكار المتحررة . ولكنه رثى وأسف لتهور دى هولباخ

هلفشيوس وديدرو « إن هذه العصبة من الملحدين الصغار سوف تنتهى باقتيادى إلى كرسى الاعتراف » .

وإنا لنذكره بصفة خاصة من أجل كتابه « نظرات فى الخير والشر فى هذا القرن » (١٧٥٠) وهو يتضمن تحليلا هادئا دقيقاً مفصلا عن الأخلاقيات والشخصية الفرنسية . وكتبه قبل أن يبلغ الخامسة والأربعين ، واستهله بوقار حكيم مُخرِفْ « لقد عشت ، وأود أن أعيش لأكون ذا نفع لمن سيعيشون » . ويأسف « لأن أعظم الشعوب حضارة ومدنية ليست كذلك أكثرها تمسكا بالفضيلة » : إن أسعد الفترات هى تلك التى لا تعتبر فيها الفضيلة حسنة أو ميزة ، وإذا بدأ اعتبارها كذلك ، فإن العادات بالفعل تتغير . وإذا أصبحت هدفا للسخرية فتلك هى آخر مراحل الفساد[٢٩] .

وفى رأيه أن « أكبر نقيصة فى الرجل الفرنسى ان له على الدوام شخصية شبابية ، ومن ثم فهو فى الغالب أنيس لطيف ، وقلما يكون راسخا متزنا ، ويكاد لا يمر بسن النضج ، بل ينتقل من الشباب إلى عجز الشيخوخة ..... فالرجل الفرنسى هو طفل أوربا[٣٠] — مثلما أن باريس هى ملعبها . ولا يتعاطف ديكلوس كل التعاطف مع عصر العقل الذى يحس أنه دوامة تعصف حوله » « لست متأكداً من إنى أحسن الظن كثيراً بهذا القرن ، ولكن يبدو لى أن تخمرا معيناً فى العقل يتجه نحو التطور والنمو فى كل مكان[٣١] » . إننا فى هذه الأيام ننتقد كثيراً فى عنف بالغ التحيز والتحامل وربما قضينا عليهما إلى حد كبير . إن التحيز ضرب من القانون العام السائد بين البشر . . . وفيما يتعلق بهذا الموضوع . لا أملك إلا أن أنحى بالائمة على الكتاب الذين يريدون مهاجمة الخرافة (وقد يكون من البواعث النافعة الجديرة بالثناء إذا تمت المناقشة على أساس

وأعقب هذا فى سنة ١٧٥١ « مذكرات لالقاء الضوء على النظرات » أما رسالة ديكلوس « مذكرات سرية عن حكم لويس الرابع عشر والخامس عشر لم تنشر إلا فى ١٧٩١ وترجم جزء منها إلى الانجليزية تحت اسم مذاكرات سرية عن عهد الوصاية .

فلسفي) . فيقوضون أسس الأخلاق ويضعفون روابط المجتمع . . . والنتيجة المؤسفة لهذا على قرائهم ، هي أن يصبح الشباب مواطنين سيئين ومجرمين مخزين ، وأن ينتاب الشقاء الذين يتقدم بهم العمر [٣٢] .

وكان جريم المراسل الباريسي للشخصيات الأجنبية وواحداً من كثير ممن استاءوا من هذا التشهير الرقيق بالفلسفة ، الصادر من رجل نهل من منابع كثيرة « إذا كان المرء مجرداً من الشعور فاسد الذوق ، فليس له أن يتحدث عن الأخلاق ولا عن الفنون [٣٣] . ولكن جريم كان يزاحم ديكلوس في الظفر بالحظوة لدى مدام دى ابيناى ، وإن مذكرات هذه السيدة الرقيقة لتصور ديكلوس فظاً مستبداً إذا تمكن ، شديد التهور إذا غلب على أمره . ولكن جريم هو الذى أعد هذه المذكرات للنشر . وإذا كان لنا أن نصدق هذه الصفحات العتيقة الباكية فإن مدام ابيناى طردت من بيتها هذا العربيد الخائن . وهام رجل الأكاديمية العلامة على وجهه بحثا عن مضاجع وأراض أخرى ، وأخيراً رحل عن هذا العالم وهو فى السابعة والستين .

وكان لوك دى كلابيير مركيز دى فوفينارج أجدر بالحب . وفى سن الثامنة عشرة التحق بالجيش ثملا بحب بلوتارك وبالطموح إلى ارتقاء مدارج المجد فى خدمة الملك . واشترك فى مغامرة الماريشال دى بل أيل المنكوبة فى حملة بوهيميا ١٧٤١ — ١٧٤٣ . وفى الانسحاب المهلك من براغ تجمدت رجلاه ، وحارب فى دتنجن ١٧٤٣ . ولكن اعتلت صحته إلى حد إنه ترك الجيش بعدها . وسعى إلى الحصول على منصب دبلوماسى ، وكاد أن يظفر ببغيته بفضل مساعدة فولتير لولا أن مرض الجدرى شوه وجهه . وبدأ بعده يضعف ، وانتابه سعال مزمن قتال أقعده عن ممارسة أى عمل .

وأصبحت الكتب عزاءه ، وشغله الشاغل . وكان يقول « فوق كل شيء ، إن أحسن الأسماء هي أكثرها شيوعا ، فإنك تستطيع أن تشترى ن فولتير مقابل كر ون واحد »[٣٤] وحذر من الحكم على الكتب بثقل ها ، فإن خيرة المؤلفين قد يتحدثون أكثر مما ينبغي وكثير منهم غامضون

إلى حد يبعث السأم والضجر . والوضوح يزين التفكير العميق »[٣٥] . وكان مؤلفه الذى دفع به إلى المطبعة ١٧٤٦ يقع فى خمس وسبعين صفحة مقدمة فى التعرف على الروح الإنسانية » ، وأعقبه « ٦٠٧ من التأملات والحكم » فى ١١٥ صفحة . وبعد ذلك بعام واحد ، وفى فندق حقير فى باريس ، قضى نحبه ، وهو فى الثانية والثلاثين . وهو يمثل موزار وكيتس فى الفلسفة الفرنسية .

وقال فوفينارج « إن للفلسفة أنماطها وأشكالها . مثل الملابس والموسيقى والعمارة[٣٦] » وقبل بضع سنين قليلة من اضفاء روسو المثالية على الطبيعة والمساواة ، صور فوفينارج « الطبيعة بأنها صراع وحشى من أجل الغلبة والسيطرة » ، و« المساواة » على أنها وهم وخداع : السائد بين الملوك ، وبين الشعوب ، وبين الأفراد ، أن الأقوى يرتب لنفسه حقوقا على الأضعف ، ونفس القاعدة متبعة بين الحيوانات والكائنات غير الحية ، وهكذا يجرى كل شىء فى الكون بالعنف . وهذا النظام الذى نعيبه بشىء من شبهة العدل ، هو أعم وأثبت وأهم قانون فى الطبيعة[٣٧] .

إن كل الناس ولدوا غير أحرار و ر مسسوين .

ليس حقاً أن المساواة قانون من قوانين الطبيعة . إن الطبيعة لم تجعل الأشياء متساوية . إن قانونها الأساسى هو الاخضاع والتبعية . . . . ومن ولد ليطيع . فسوف يطيع حتى وهو متربع على العرش[٣٨] .

أما بالنسبة للارادة الحرة ، فهى أيضا أسطورة أو خرافة « فليست الارادة هى العلة الأولى لأى تصرف أو عمل ، بل إنها المنبع الأخير » . وإذا أوردنا المثل التقليدى على الارادة الحرة ، وهو أنك تستطيع أن تختار هذا أو ذلك أ أو ب « بمحض إرادتك » فإن فوفينارج يرد « إنى إذا اخترت ب فإن هذا بسبب أن الحاجة إلى الاختيار تقفز إلى تفكيرى فى اللحظة التى تجول ب بخاطرى فيها[٣٩] . والإيمان بالله أمر لا مفر منه ولا غنى عنه ، على أية حال . وأحس فوفينارج بأنه عن طريق هذا الإيمان وحده يمكن أن يكون للحياة وللتاريخ معنى غير الصراع الدائم والهزيمة فى النهاية[٤٠] .

وأبرز معالم فلسفة فوفينارج دفاعه عن العواطف ، ولا ينبغى القضاء عليها لأنها أصل الشخصية والعبقرية وكل قوة التفكير ونشاطه . « الذهن عين النفس المبصرة ، ولكن ليس قوتها ، لأن قوتها تكمن فى القلب أى فى العواطف . إن أكثر العقول استنارة لا يمدنا بالقوة على العمل والارادة[٤١] .... والأفكار العظيمة تنبع من القلب ... وربما كنا مدينين للعواطف بأعظم منجزات العقل[٤٢] .. إن العقل والوجدان يستشير كل منهما الآخر ويكمله بالتناوب ، وهذا الذى يستشير أحدهما ويغفل الآخر ، إنما يحرم نفسه فى حمق وغباء من بعض الموارد التى منحنا إياها من أجل سلوكنا[٤٣] .

وأقر فوفينارج أن حب الذات عام بين الناس ، ولكنه رفض اعتباره رذيلة ، حيث أنه الضرورة الأولى من ضرورات قانون الطبيعة الأول : حفظ الذات . كما أن الطموح ليس رذيلة ، بل إنه حافز « ان حب المجد والعظمة هو الذى يصنع ما تحرزه الأمم من تقدم ونجاح[٤٤] . ويضيف أن المرء غير أهل للمجد والعظمة إذا لم يع قيمة الوقت[٤٥] . ومهما يكن من أمر فإن هناك رذائل يجب أن تكبح جماحها القوانين والمبادئ الأخلاقية وإن فن الحكومة ليكمن فى توجيه هذه الرذائل إلى الخير العام[٤٦]. وهناك أيضا فضائل حقيقية « إن أولى أيام الربيع أقل روعة وفتنة من نمو الفضيلة فى الشباب[٤٧] .

وعلى الرغم من تسليم فوفينارج بآراء هوبز ولاروشفوكو ، ومن تجربته للشر فى حياته ، فإنه احتفظ بإيمانه بالجنس البشرى . قال صديقه مارمونتل : « إنه عرف الحياة ولم يحتقرها . إنه ، وقد كان صديقا للناس ، اعتبر الرذيلة محنة وسوء حظ ، يبتلى الناس بهما لا جريمة . وحلت الشفقة فى قلبه محل الاحتقار والبغض ... إنه لم يذل إنسانا قط ... إن هدوءاً لم يتبدل أخفى آلامه عن أعين أصدقائه . وما كنا فى حاجة لاحتمال المحنة ، إلا أن تكون لنا فيه أسوة حسنة ، فإنا ونحن نرى رباطة جأشه ، ما كنا لنجرؤ على اظهار حزننا وشقائنا أمامه[٤٨] .

ووصفه فولتير بأنه « أتعس الناس حظا وأكثرهم هدوءاً [٤٩] .

إن من أكرم مظاهر الأدب الفرنسي فى القون الثامن عشر . ذلك العطف السابغ والعون الودى اللذين حبا بهما فولتير « نبي العقل » فوفينارج نصير بسكال و « القلب » . إن الفيلسوف الشاب أعلن عن إعجابه « برجل يشرف قرننا ، رجل لا يقل عظمة وشهرة عن أسلافه » [٥٠] . وكتب إليه الرجل العجوز الأكبر منه سنا فى لحظة من لحظات التواضع : « لو أنك كنت قد رأيت النور قبل مولدك ببضع سنين ، فلربما اكتسبت كتاباتى قيمة أكبر [٥١] إن أفصح قطعة فى مجلدات فولتير المائة هى ما قال فى تأبين فوفينارج عند تشييع جنازته [٥٢] .

مونتسكيو ١٦٨٩ — ١٧٥٥

١ — الرسائل الفارسية :

وجد فولتير أنه من العسير عليه أن يحب مونتسكيو لأن مؤلفه « روح القوانين » (١٧٤٨) اعتبر بصفة عامة أعظم إنتاج عقلى فى هذا العصر . وظهر الكتاب حين بلغ صاحبه التاسعة والخمسين ، وكان ثمرة خمسين عاما من التجربة والخبرة ، وأربعين عاما من الدرس والبحث وعشرين عاما قضاها فى تأليفه .

ولد شارل لويس دى سيكوندا بارون دى لابريد ودى مونتسكيو ، فى لابريد بالقرب من بوردو وفى مقاطعة مونتانى ، فى ١٨ يناير ١٦٨٩ . وكان يفاخر مبتهجا بأنه من سلالة هؤلاء القوط ، وهم الذين بعد أن غزوا الامبراطورية الرومانية ، « أسسوا الملكيات وأقاموا صرح الحرية هنا وهناك فى كل مكان » [٥٣] إنه انتسب على أية حال إلى « نبلاء السلاح ونبلاء الرداء » كان أبوه كبير القضاة فى جوين ، وكان الصداق التى قدمته أمه قصر لابريد وأرضها . وفى ساعة مولده تقدم إلى بوابة القصر سائل مسكين ، فأدخلوه وأطعموه وجعلوا منه عرابا للطفل (أى أباه فى العماد) . زعما منهم بأن شارل لن ينسى الفقراء أبدا [٥٤] . وتربى طوال السنوات الثلاث الأولى من عمره بين فلاحي القرية ، وأرسل فى سن الحادية عشرة

إلى مدرسة طائفة الأوراتوريين فى جويللى على بعد عشرين ميلا من باريس . . ثم عاد إلى بوردو فى سن السادسة عشرة ليدرس القانون . وفى سن التاسعة عشرة حصل على درجته العلمية فى القانون .

وفى ١٧١٣ مات أبوه ، وكان شارل آنذاك فى الرابعة والعشرين من عمره ، تاركا له ممتلكات واسعة وثروة متوسطة . وكان يتحدث بصراحة عما « يملك من أرض وعن اتباعه » وسوف تراه تمسك بشـدة بالنظام الاقطاعى . وبعد ذلك بسنة دخل برلمان بوردو عضوا وقاضيا . وفى ١٧١٦ أوصى له عمه — الذى كان قد اشترى رياسة البرلمان — بثروته ومنصبه ، وقد دافع مونتسكيو فيما بعد عن « بيع المناصب » باعتباره « عملا حسنا فى الدول الملكية ، لأنه يجعل من واجب ابناء الأسرات العريقة أن ينهضوا بالمهام التى قد لا يحصلون عليها عن طريق الدوافع النزيهة غير المغرضة وحدها [٥٦] . وبينما كان يتولى رياسة البرلمان قضى معظم وقته فى الدرس والبحث ، فأجرى تجارب وقدم أبحاثا فى الفيزياء والفسيولوجيا إلى أكاديمية بوردو ، وخطط « تاريخا جيولوجيا للأرض » لم يكتبه قط ولكن المادة التى جمعها له شقت طريقها إلى كتابه « روح القوانين » .

وكان فى الثانية والثلاثين حين ملأ أبصار وأسماع باريس فى عهد الوصاية بأروع كتبه . إنه أغفل ذكر اسمه على كتابه « الرسائل الفارسية » (١٧٢١) لأنه ضم بين دفتيه قطعا لا يليق صدورها عن قاض . وربما أخذ فكرته عن كتاب جيوفنى مارانا « جاسوس السيد الكبير » (١٦٨٤) الذى نقل فيه جاسوس تركى وهمى للسلطان ، فى بذاءة تلفت النظر ، عقائد المسيحيين الفاسدة وسلوكهم فى أوربا ، والمفارقات المضحكة أو القاتلة بين ما يعلنون وما يفعلون ، وثمة أسلوب شبيه بهذا فى تصوير الحضارة الغربية كما يراها الشرقيون ، استخدمه اديسون فى « سبكتاتور » . وكان شارل دفرسنى فى « تسليات جادة وهازلة » قد تصور تعليقات أحد أبناء سيام فى باريس ، كما أن نيقولا جيودقيل كان قد أبرز العادات الفرنسية كما يراها أحد هنود أمريكا . وكانت ترجمة جالاند لكتاب « الف ليلة وليلة » (١٧٠٤ —

١٧١٧) قد زادت من شغف الفرنسيين بالحياة الإسلامية ، كذلك فعلت المحاضرات المصورة عن رحلات سيرجون شاردان وجان تافرنيه . كما أنه من مارس إلى يوليه ١٧٢١ لفت السفير التركى أنظار باريس بفتنة زيه وأساليبه الغريبه . من أجل ذلك كله كانت فرنسا مستعدة لتلقى « الرسائل الفارسية » . وبيع من هذا الكتاب ثمان طبعات على مدى عام واحد .

وقدم مونتسكيو « الرسائل » على أنها مكتوبة بقلم ريكا وأوزبك ، وهما سائحان فارسيان فى فرنسا . ومراسليهما فى اصفهان . إن هذه الرسائل لم تعرض فقط نقاط الضعف والأهواء والتحيز عند الفرنسيين ، ولكنها كشفت أيضا عن حماقات السلوك والمعتقدات الشرقية من خلال الكتاب أنفسهم .

وحين يسخر القارئ من هذه العيوب والأخطاء ، فليس أمامه إلا أن يتقبل عن طيب خاطر السخرية من عيوبه وأخطائه هو . وقد مست هذه العيوب والأخطاء مساً رقيقا . ومن ذا الذى يغضب لهذه الأفكار الساخرة غير المقصودة ، أو الطعنات بسيف مغلف بطريقة مهذبة ؟ وفوق ذلك تضمنت بعض الرسائل أسرارا أو رسائل شخصية سارة من حريم أوزبك فى اصفهان . من ذلك أن زاكى أى محظيته ، تكتب لتبلغة بما تعانى من آلام مبرحة لغيابه عنها . كما أن ريكا تصف مفهوم سيدة مسلمة عن الجنة بأنها مكان يكون فيه لكل سيدة فاضلة مجموعة من الرجال الوسيمين المكتملى الرجولة ، وهنا يطلق مونتسكيو لقلمه العنان فى سرد التفاصيل فى أسلوب الطيش الذى اشتهر به عهد الوصاية .

وكان من غير المستطاع ، اللهم فى فترة خلو العرش هذه ، أن تتفادى الهرطقات السياسية والدينية فى الرسائل عين الرقيب والمؤاخذة الرسمية . لقد قضى الملك القديم نحبه ، والملك الجديد ما زال صبيا ، والوصى رجل متسامح مرح مبتهج . وعند ذاك استطاع مونتسكيو أن يجعل الفارسيين الذين أوردهم فى رسائله يسخرون من حاكم « ساحر » جعل الناس يعتقدون أن الورق نقود (كان نظام لو قد انهار.[٥٧]) كما استطاع أن يفضح فساد

الحاشية ، وخمول النبلاء المبذرين وسوء إدارة أموال الدولة ، وأن يمتدح جمهوريات اليونان وروما القديمة ، والجمهوريات الحديثة فى هولنــده وسويسرا . يقول أوزبك « ان الملكية نظام شاذ غير سوى ، ينزلق إلى حكم استبدادى مطلق » [٥٨] (انظر فيما بعد رأيا مخالفاً) .

وفى الرسائل من ١١ — ١٤ يوضح أوزبك طبيعة الإنسان ومشكلة الحكم بالتحدث عن سكان الكهوف (التروجلوديون) (*) الذين يتخيلهم عربا انحدروا من التروجلوديين الذين وصفهم هيرودوت [٥٩] وأرسطو [٦٠] بأنهم قبائل همجية عاشت فى أفريقية (قبل التاريخ) . وكان تروجلوديو أوزبك يكرهون كل تدخل حكومى ، ومن ثم قتلوا كل حاكم مفكر ، وعاشوا فى جنة من الحرية التامة « اتركه يعمل » واستغل كل بائع حاجة المستهلك ورفع سعر منتجاته . وإذا اغتصب رجل قوى زوجة رجل ضعيف ، فليس ثمة قانون أو حاكم يلجأ إليه . وأفلت القتل والاغتصاب والسلب والنهب دون عقاب ، اللهم إلا الاقتصاص الخاص بالعنف ، وإذا عانى سكان النجاد من الجفاف تركهم سكان الوهاد يموتون جوعاء ، وإذا عانى هؤلاء من الفيضان تركهم سكان النجاد يهلكون . ومن ثم فنيت القبيلة ، وبقى على قيد الحياة أسرتان بفضل الهجرة ، وتبادلتا العون ، ونشأتا أطفالهما على التمسك بالدين والفضيلة واعتبرتا أنهما أسرة واحدة ، واختلطت قطعانهما دائماً تقريباً . [٦١] ولما زاد عددهم وجدوا أن أعرافهم غير كافية لحكمهم فاختاروا ملكا وخضعوا للقوانين . وانتهى أوزبك إلى أن الحكومة ضرورية ولكنها تعجز عن تأدية مهمتها إذا لم تكن قائمة على الفضيلة فى الحاكم والمحكومين . .

وكانت الهرطقات الدينية فى الرسائل أكثر ترويعا وتنفيرا من الهرطقات السياسية . ويرى أوزبك أن الزنوج يتصورون أن الإله أسود وأن الشيطان أبيض . ويوحى (مثل زينوفون) بأنه إذا كانت المثلثات تتحدث عن

(*) قصد بهذه الكلمة فى الأصل سكان الكهوف ، أى الذين يحفرون جحوراً ليقيموا فيها . مثل خصومنا السياسيين .

اللاهوت ، فلا بد أن للإله ثلاثة أضلاع وثلاث نقط حادة . ويعجب أوزبك من ساحر آخر يسمى البابا ، يحث الناس على الاعتقاد بأن الخبز ليس خبزا وأن الخمر ليس خمرا . وألف شيء من هذا الطراز . [٦٢] ويسخر من الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين . وأفزعته محاكم التفتيش فى اسبانيا والبرتغال ، حيث « يتسبب الدومنيكان فى إحراق الناس كما يحرق القش » . [٦٣] ويسخر من المسابح وثياب الرهبان الفضفاضة . وهو يتساءل كم تعمر البلاد الكاثوليكية فى منافسة مع الشعوب البروتستانتية ، لأنه يرى أن تحريم الطلاق وعزوبة الراهبات والرهبان سوف يعوقان ازدياد السكان فى فرنسا وإيطاليا واسبانيا (قارن ايرلنده فى القرن العشرين) ويقدر أوزبك ، على هذا المعدل ، أن الكاثوليكية فى أوروبا لن تعمر أكثر من ٥٠٠ سنة أخرى[٦٤](*). أضف إلى هذا أن هؤلاء الرهبان الخاملين الذين يزعمون انهم مستعصمون زاهدون يستولون على كل ثروة الدولة تقريباً « إنهم عصبة من البخلاء يأخذون دائماً ولا يعطون أبدا . إنهم باستمرار يكنزون دخولهم لتكون لهم مصدر قوة . وتصاب هذه الثروة بالشلل ، فلا تتداول ولا تستغل فى التجارة أو الصناعة أو المصانع » [٦٦] ويقلق أوزبك التفكير فى أن كفار أوربا الجهلة الذين يعبدون المسيح بدلا من عبادة الله والإيمان بحمده سيكون مصيرهم النار ، ولكن يراوده بعض الأمل فى أنهم فى النهاية سيعتنقون الإسلام ويُنقذون [٦٧] .

وفى تخيل رمزى جليل يتأمل أوزبك فى الالغاء (١٦٨٥) مرسوم هنرى الرابع للتسامح المعروف بمرسوم نانت .

أنت تعلم ياميزرا كيف أن بعض وزراء الشاه سليمان (لويس الرابع عشر) دبروا خطة لارغام الأرمن فى فارس (الهيجونوت) على مغادرة المملكة أو الدخول فى الإسلام (الكثلكه) ، اعتقادا منهم بأن امبراطوريتنا

(*) ذهب مونتسكيو فى ١٧٢١ إلى أن عدد سكان أوربا لا يكاد يبلغ عشر عدد سكانها فى عهد الامبراطورية الرومانية[٦٥] وأنه آخذ فى التناقص ، وأن زنوج أمريكا سرعان ما يهلكون .

ستظل ملوثة مدنسة ما دامت تحتضن هؤلاء الكفار . . . إن اضطهاد مسلمينا الغيورين لهؤلاء الكفار عبدة النار اضطرهم إلى الفرار زرافات إلى الهند الشرقية ، وبذلك حرم فارس من هذا الشعب الجاد النشيط . ولم يبق أمام هذا التعصب الأعمى إلا شيء واحد هو تدمير الصناعة ، حتى تنهار لامبراطورية (فرنسا ١٧١٣) ، حاملة معها تلك الديانة التي أرادوا لها النهوض والتقدم .

وإذا كان الحوار النزيه غير المتحيز ممكنا ياميرزا ، فلست متأكدا من أنه من الخير للدولة أن يكون بها عدة ديانات مختلفة . . . والتاريخ زاخر بالحروب الدينية ، ولكن . . . ليس تعدد الديانات هو الذى أدى إلى الحروب ، بل روح التعصب الذى يشجع الديانة التي تعتقد أنها فى صعود[٦٨] .

إن الأفكار التى تضمنتها الرسائل الفارسية تبدو لنا الآن مبتذلة عتيقة . ولكنها كانت للمؤلف حين عبر عنها ، مسألة حياة أو موت ، وعلى الأقل مسألة سجن أو نفى . إنها الآن عتيقة لأننا كسبنا معركة الحرية فى التعبير عن الآراء . إن الرسائل الفارسية فتحت الطريق ، لهذا استطاع فولتير بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أن يصدر « رسائل عن الانجليز » ويلقى ضوءا إنجليزيا على حطام فرنسا . وأعلن هذان الكتابان عن عصر الاستنارة . وعمر مونتسكيو وحريته بعد كتابه ، لأنه كان من طبقة النبلاء ، ولأن الوصى على العرش كان متسامحا ، كما ارتفعت بعض أصوات الاستنكار رسط التهليل والإعجاب ، ومع ذلك لم يجرؤ على الافصاح عن اسمه وهو المؤلف . وذهب دارجنسون الذى انتقد هو نفسه الحكومة فيما بعد إلى أن « هذه تأملات وأفكا يستطيع أن يأتى بها رجل ذكى بسهولة ، ولكن ينبغى على الرجل الحصيف الحذر ألا يسمح بطبعها » . وأضاف ما ريفو الحريص « يجدر أن يضن الإنسان بمجهوده فى مثل هذه الموضوعات » وقال مونتسكيو « عند ما حظيت إلى حد ما بتقدير الجمهور فقدت تقدير الطبقات الرسمية ، وواجهت ألفاً من ألوان الاستخفاف والاستهزاء »[٦٩]

وعلى الرغم من كل شيء قصد مونتسكيو إلى باريس ليرشف كؤوس

الشهرة فى المجتمع وفى الصالونات . وفتحت له الأبواب مدام دى تنسان ومركزة لمبرت ومركيزة ديناند . ولما كان قد ترك زوجته وراءه فى لابريد فلم يكن من العسير أن يقع فى شراك الغرام مع سيدات باريس . وتطلع إلى آفاق بعيدة ، فتاقت نفسه إلى مارى آن دى بوربون أخت الدوق دى بوربون الذى أصبح رئيسا للوزارة فى ١٧٢٣ . ويروى من أنه ألف من أجلها شعراً منثورا « معبد الحب » (١٧٢٥) عامرا بنشوة الوجد والهيام ، وخفف من وطأة خلاعة هذا الشعر بادعائه أن القصيدة مترجمة عن اليونانية ، ومن ثم حصل على ترخيص ملكى بطبعها . وبذل المساعى وبخاصة عن طريق مدام دى رى ، لينضم إلى الأكاديمية ، فاعترض الملك بأنه غير مقيم فى باريس . فأسرع إلى بوردو وتخلى عن رياسته لبرلمانها ، وانضم إلى مجمع الاربعين الخالدين (١٧٢٨) .

وفى أبريل قام برحلة استغرقت ثلاثة أعوام زار فيها بعض أجزاء إيطاليا والنمسا والمجر وسويسرا وأراضى الراين وهولنده ، وإنجلتره . التى قضى فيها ثمانية عشر شهرا (نوفبر ١٧٢٩ — أغسطس ١٧٣١) وهناك عقد أواصر الصداقة مع تشستر فيلد وغيره من وجوه القوم ، واختير عضوا فى الجمعية الملكية فى لندن ، وانضم إلى البنائين الأحرار (الماسونية) ، واستقبله الملك جورج الثانى والملكة كارولين ، وحضر جلسات البرلمان ، وأولع بما ظنه الدستور البريطانى . وعاد أدراجه إلى فرنسا شديد الاعجاب — مثل فولتير — بالحرية ، ولكن ما لمسه من مشاكل الحكومة زاد من رصانته واتزانه . وآوى إلى لابريد ، وحول منتزهه إلى حديقة إنجليزية ، وتفرغ — فيما عدا زيارات طارئة إلى باريس — لأبحاثه وكتاباته التى شغلت بقية أيام حياته .

٢ — لماذا سقطت رومة

فى ١٧٣٤ أصدر مونتسكيو ، دون توقيع . ولكن معترف به عند الجمهور ، « نظرات فى أسباب عظمة الرومان وسقوطهم » . وكان قد دفع بالمخطوطة إلى عالم يسوعى ؛ ووافق على حذف ما يمكن أن يثير ريب الكنيسة . ولكن الكتاب لم يجد ، وما كان له أن يجد النجاح الذى صادفته

« الرسائل الفارسية » لأنه لم يتضمن أية بذاءات أو أية أشياء تجافى الاحتشام ، بل كان يعالج موضوعا قديما معقداً وكان محافظا نسبيا فى سياسته ولاهوته . ولم يستسغ المتطرفون (الراديكاليون) التوكيد على أن يكون الانحطاط الخلقى سببا للاضمحلال القومى ، ولم يكونوا مستعدين ليقدروا عمق التقدير الحكمة الرائعة فى عبارات مثل « أن الذين لم يعودوا يرهبون القوة فى مقدورهم أن يظلوا على احترامهم للسلطة » . (٧٠) وتعتبر هذه الرسالة الصغيرة الآن محاولة رائدة فى فلسفة التاريخ ، ورائعة من روائع النثر الفرنسى تعيد إلى الأذهان ذكرى بوسويه ولكنها تضيف الروعة إلى الوقار .

إن الموضوع جذب نظر المؤرخ الفيلسوف لأنه انتظم السلسلة الكاملة لحضارة عظيمة من الميلاد إلى الفناء ، وعرض فى نظرة شاملة وتفصيل رائع إحدى عمليات التاريخ الأساسية — وهى عملية الفناء أو الانحلال الذى يبدو أنه قدر محتوم أن يعقب كمال التطور فى الأفراد والديانات والدول . وكان ثمة اشتباه فى أن فرنسا بعد انقضاء القرن العظيم ، قد دخلت فى فترة طويلة من الاضمحلال فى الامبراطورية والأخلاق والأدب والفن . إن الثالوث المدنس : فولتير وديدرو وروسو — لم يكن قد بدأ بعد إنهم يتحدون التفوق الفكرى والعقلى فى القرن السابع عشر . ولكن جراءة العصر الجديد المتزايدة برزت فى حقيقة أن مونتسكيو ، فى ايضاحه وشرحه لمجرى التاريخ لم يدرس إلا الأسباب الأرضية ، وطرح جانبا فى هدوء اللهم إلا لمحات من الإجلال الطارئ ، العناية الإلهية التى نجدها فى كتاب بوسيويه « بحث فى تاريخ العالم » قد اتجهت بكل الأحداث إلى نتائج محتومة بقضاء هذه العناية الإلهية . ورأى مونتسكيو أن يفتش عن قوانين التاريخ ، مثلما كان نيوتن يبحث عنها فى الفضاء : « ليس الحظ هو الذى يحكم العالم ، كما نرى من تاريخ الرومان . . . فثمة أسباب عامة معنوية أو مادية ، تعمل عملها فى كل مملكة ، ترفعها أو تحافظ عليها أو تطيح بها ، وكل ما يحدث خاضع لهذه الأسباب . وإذا كان ثمة سبب خاص بعينه ، مثل النتيجة الطارئة لمعركة ما هو الذى قضى على دولة ما ، فهناك

سبب هام جعل سقوط هذه الدولة ينتج عن معركة واحـــدة . وصفوه القول إن الحركة العامة تجر معها كل الأحداث الخاصة غير المتوقعة[٧١] .

وبناء على هذا اختزل مونتسكيو وهبط بدور الفرد فى التاريخ . فالفرد مهما عظمت عبقريته لا يعدو أن يكون أداة « الحركة العامة » . ولا ترجع أهميته إلى قدرته الفائقة بقدر ما ترجع إلى التقائه مصادفة مع ما أسماه هيجل « روح العصر » فلو أن قيصر وبومبى فكرا مثل ما فكر كاتو (سعيا فى الابقاء على سلطة السناتو الرومانى) فربما انتهى آخرون غيرهما إلى نفس أفكارهما . وعند ذاك كانت الجمهورية التى كان مقدراً عليها الفناء لأسباب داخلية ، تنساق إلى الانهيار على أيد أخرى »[٧٢] .

ولكن « القـــدر » ليس توجيها روحيا أو باطنيا ، وليس قوة ميتافيزيقية . انه مجموعة معقدة من عوامل تنتج « الحركة الرئيسية » . والمهمة الأساسية للمؤرخين الفلسفيين ، فى رأى مونتسكيو ، هى الكشف عن كل عامل من هذه العوامل وتحليله وتبيان فعاليته وعلاقته . ومن ثم كان سقوط رومة (فى نظره) يرجع أولا إلى التحول من جمهورية توفر لها توزيع السلطات وتوازنها ، إلى امبراطورية تصلح أكثر ما تصلح لحكم بلاد تابعة لها ، ولكنها تركز كل الحكم فى مدينة واحدة فى يد رجل واحد ، مما يدمر حرية ونشاط المواطنين والأقاليم . وبمرور الزمن انضمت أسباب أخرى إلى هذا السبب الرئيسى : انتشار الخنوع والخمول بين الجماهير ، رغبة الفقراء فى أن تعولهم الدولة ، ضعف الأخلاق بسبب الثروة والترف والفسق والفجور ، تدفق الغرباء الذين تشكلهم التقاليد الرومانية والذين كانوا مستعدين لبيع أصواتهم لمن يدفع أكبر ثمن ، فساد رجال الإدارة المركزيين والمحليين ، خفض قيمة العملة ، فداحة الضرائب ، هجر المزارع ، استنزاف الحيوية العسكرية بسبب الديانات الجديدة وطول أمد السلم ، وفشل النظام العسكرى وسيطرة الجيش على الحكومة المدنية ، إيثار الجيش تنصيب الأباطرة أو خلعهم عن حماية الحدود من هجمات المتبربرين . . . . ومن الجائز أن مونتسكيو — على عكس توكيد بوسويه

على العوامل الخارقة الطبيعية — لم يقم كبير وزن لتغيير الديانات ، الذى أكده جيبون سببا أساسيا لانهيار الامبراطورية .

ولكن مونتسكيو كان دوما يعود إلى ما اعتبره العامل الرئيسى فى اضمحلال رومه — وهو التحول من الجمهورية إلى الملكية . ذلك أن الرومان غزوا بفضل مبادئهم الجمهورية ، كثيراً من الشعوب ، ولكن فى الوقت الذى حققوا فيه هذا ، لم تقو الجمهورية على الصمود ، وتسببت فى الاضمحلال مبادئ الحكم الجديد وهى مخالفة لمبادئ الجمهورية [٧٣] . ومهما يكن من شىء فأننا إذا عدنا إلى الفصل السادس لنتفحص المبادئ الأساسية أو الوسائل التى قهرت بها الجمهورية الرومانية « كل الشعوب » نجد مجموعة منوعة غريبه : الخداع ، نقض المعاهدات ، العنف والقوة ، العقوبات الصارمة ، بذر بذور الشقاق بين العدو ليسهل قهره تدريجيا ، (فرق تسد) ، نقل السكان من مكان إلى مكان بالقوة ، تعكير جو الحكومات المناهضة ومحاولة القضاء عليها بتقديم المساعدات للثورات الداخلية ورشوة القائمين بها . وغير ذلك من الاجراءات المألوفة لدى رجال الدولة . واستخدم الرومان حلفاءهم فى القضاء على أعدائهم ،وسرعان ما استداروا ليدمروا هؤلاء الحلفاء [٧٤] وواضح — أن مونتسكيو — ناسبا هذا الوصف للمبادئ الجمهورية أو مزدردا مكيافللى فى جرعة واحدة — اعتبر فى الفصل الثامن عشر ، الجمهورية مثلا أعلى للعظمة ، ورأى الامبراطورية منزلقا بهيجا للانحلال . ومع ذلك اعترف بفساد السياسة فى الجمهورية وبالعظمة السياسية للامبراطورية فى ظل « حكمة نرفاء ، ومجد تراجان ، وبسالة هادريان وفضائل الاثنين الانطونينين » [٧٥] وهنا وجه مونتسكيو كلا من جيبون وريتان إلى تسمية هذه الحقبة « أكرم وأسعد حقبة فى تاريخ الحكومة » . ولدى هؤلاء الملوك الفلاسفة وجد مونتسكيو أيضا أخلاق الرواقيين التى فضلها بصراحة ووضوح على الأخلاق المسيحية ، وانتقل إعجاب مونتسكيو بالرومان فى عهــد الجمهوية إلى الفرنسيين المتحمسين للثورة ، وأسهم فى تغيير الحكومة الفرنسية ، والنظم العسكرية والفنون فى فرنسا .

ووقع فى الكتاب بعض أخطاء فى عمل علمى عجل به ضغط الوقت والرغبة فى إنجاز مهمة أضخم . فلم يكن مونتسكيو فى بعض الأحيان مدققا فى استخدام النصوص القديمة . من ذلك ، على سبيل المثال أنه أخذ الفصول التى كتبها ليفى عن « نشأة رومه » على أنها تاريخ ، على حين أن فاللا وجلارونوس وفيكو رفضوا هذه الرواية على أنها أسطورة . ويبخس مونتسكيو من قيمة العوامل الاقتصادية وراء سياسة جراتشى وقيصر ، ولكن فى مقابل مواطن الضعف هذه ، فأن نظرة أوسع لا بد أن تحيط ببلاغة الكتاب وقوته وتركيز أسلوبه ، ويعمق التفكير وأصالته ، ومحاولة المؤلف الجريئة فى أن يرسم فى صورة واحدة ارتفاع وسقوط حضارة كاملة ، ويرتفع بالتاريخ من مجرد سجل للتفاصيل إلى تحليل النظم ومنطق الأحداث . وهنا كان ثمة تحد للمؤرخين ، كان على فولتير وجيبون أن يسعيا لمواجهته ، كما كان هنا تلهف على فلسفة للتاريخ قد يحاول مونتسكيو نفسه ، بعد جيل من الكد والجد أن يتبعه بكتاب « روح القوانين .

٣ — روح القوانين :

مضت أربعة عشر عاما بين ظهور كتاب « النظرات » وكتاب « روح القوانين » بدأ مونتسكيو أروع أعماله هذا حوالى ١٧٢٩ ، وهو فى سن الأربعين . وكان موضوع رومه حصيله جانبية أو ثانوية اعتراضية . ووفى ١٧٤٧ حين بلغ السادسة والخمسين لقى من العمل نصبا وكأن به ميلا إلى تركه ، « كثيراً ما شرعت فى هذا الكتاب ، وكثيراً ما طرحته جانبا . وقذفت بالأوراق التى كتبتها ألف مرة . »[٧٦] وأهاب بالموزيات ربات الفنون والعلوم أن يرعينه ويساعدنه : « إن الدرب طويل ، ولقد أضنانى الأسى والارهاق ، أدخلن على قلبى البهجة والفتنة اللتين تدفعان بى إلى السير فى الطريق ، لقد عرفتهما يوما ، ولكنهما الآن تخلتا عنى أنتن لستن مقدسات مطلقا ، إلا حين تتولين قيادنا ، عن طريق اللذة والسرور ، إلى الحكمة والحق »[٧٧] . ولا بد أن هؤلاء الربات استجبن لندائه ، لأنه واصل العمل . ولما انتهت المهمة فى خاتمة المطاف اعترف بتردده واعتداده بنفسه

وزهوه : لقد سلكت طريقى نحو الهدف دون إعداد خطة . ولم أعرف أية قاعدة ولا شواذ وما عثرت على الحقيقة إلا لافتقـدها ثانية . ولكن عند ما وقعت على الأصول والمبادئ ذات مرة واتانى كل ما كنت أفتش عنه ، وفى عضون عشرين عاما ، وجدت أن العمل قد بدأ وخطا خطوات ثم أشرف على الاكتمال ، حتى أنجز . . . وإذا صادف هذا العمل نجاحا ، فانى سأكون مدينا به لعظمة الموضوع وجلاله . ومهما يكن من أمر ، فلست أظن أنى كنت مفتقرا إلى العبقرية كل الافتقار . ولما رأيت كم من عظماء الرجال فى فرنسا وألمانيا طرقوا هذا الموضوع قبلى ، تملكتنى الحيرة إعجابا بهم ، ولكن لم أفقد شجاعتى ولم يزايلنى الاقدام ، وقلت مع كوريجيو « وأنا أيضا رسام »[٧٨] .

وعرض المخطوطة على هلفشيوس وهبنولت وفونتنيل ، ورأى هـذا الأخير أن البحث يفتقر إلى طلاوة الأسلوب الفرنسى .[٧٩] وتوسل هلفشيوس إلى المؤلف ألا يسىء إلى سمعته الطيبة بوصفه متحررا بنشركتاب يتساهل إلى هذا الحد مع كثير من المعتقدات المحافظة المتمسكة بالقديم[٨٠] . وقرر مونتسكيو أن هذه التحذيرات غير ذات موضوع ، وتقدم للطبع . ولما كان يخشى الرقابة الفرنسية فانه أرسل المخطوطة إلى جنيف ، وهنالك صدر الكتاب ١٧٤٨ فى مجلدين ، دون ذكر اسمه . وحين كشف رجال الدين الفرنسيون عن هرطقاته شجبوه وصدر أمر الحكومة بمنع تداوله فى فرنسا . وفى ١٧٥٠ تولى ما لشرب — منقذ دائرة المعارف فيما بعد — شئون الرقابة ، رفع الحظر عن الكتاب ، وسرعان ما شق طريقه وصدرت منه اثنتان وعشرون طبعة فى عامين ، وسرعان ما ترجم إلى لغـات أوربا المسيحية .

وكانت العنونات على أيام مونتسكيو توضيحية حقا ، دقيقة غالبا . ولذا سمى كتابه « فى روح القوانين » أو « فى العلاقات التى يجب أن تقوم بين القوانين وبين دستور كل حكومة ، والعادات والمناخ والديانة والتجارة ، وغيرها » . وكان بحثا فى العلاقات بين القوى المادية والأنماط الاجتماعية ، وفى

العلاقات المتبادلة بين مكونات الحضارة . وحاول أن يضع الأساس لما يمكن أن نسميه الآن علم الاجتماع العلمى » : أى — على غرار البحث فى العلوم الطبيعية — التمكن من الوصول إلى نتائج محققة يمكن اثباتها ، تلقى الضوء على المجتمع الحاضر ، وإلى تنبؤات مشروطة للمستقبل . وكان عسيرا بطبيعة الحال ، على رجل واحد أن يتمه مع قصر العمر ، والأوضاع الحالية للأنثولوجيا (علم الأعراق البشرية) والتشريع والتأريخ .

وبمعنى أدق ، كانت فكرة مونتسكيو أن روح القوانين « — أى أصلها وطبيعتها ونزعتها — إنما يحددها أولا مناخ البلد وتربته ، ثم فسيولوجية الشعب واقتصاده وحكومته ودينه وخلقه وعاداته . وبدأ بتعريف عريض : إن القوانين بأوسع معانيها وأكثرها تعميا هى العلاقات الضرورية التى تنشأ عن طبيعة الأشياء وواضح أنه أراد أن يأتى « بالقوانين الطبيعية » فى العالم المادى ، والاطرادات القياسية فى التاريخ ، تحت مفهوم عام واحد . وعلى غرار جروشيوس وبوفندورف وغيرهما ممن سبقوه ، ميز مونتسكيو بين عدة أنواع من القوانين : ١ — القانون الطبيعى ، الذى عرفه بأنه « عقل إنسانى ، بقدر ما يحكم شعوب الأرض بأسرها » [٨١] أى « الحقوق الطبيعية » لكل الناس بوصفهم كائنات وهبت عقلا . ٢ — قانون الأمم فى علاقاتها بعضها ببعض . ٣ — قوانين سياسية تحكم العلاقات بين الفرد والدولة . ٤ — القانون المدنى علاقات الأفراد بعضهم ببعض .

وذهب مونتسكيو إلى أنه فى الأطوار الأولى للمجتمع البشرى كان العامل الحاسم فى القوانين هو التضاريس الأرضية : أهى غابة أم صحراء أم أرض منزرعة ؟ أهى أرض داخلية أم ساحلية ؟ أهى جبال أم سهول ؟ وما هو نوع التربة وطبيعة الغذاء الذى تنتجه ؟ وصفوة القول ان المناخ أول العوامل وبالدرجة الأولى أقوى العوامل فى تحديد اقتصاد الشعب وقوانينه (وشخصيته القومية) . (إن بودين فى القرن السادس عشر سبق مونتسكيو إلى هذا التوكيد الأولى كما تبعه فيه بكل فى القرن التاسع عشر) . تأمل على سبيل المثال الفوارق المناخية ، ونتيجة لها الفوارق البشرية ، بين الشمال والجنوب :

إن الناس أكثر نشاطا وحيوية فى الأجواء الباردة . . . وهذا التفوق فى القوة لا بد أن ينتج آثاراً مختلفة : وعلى سبيل المثال جرأة أكبر ، أى مزيداً من الشجاعة ، وشعوراً أكبر بالتفوق . أى رغبة أقل فى الإنتقام ، وشعوراً أكبر بالأمن أى مزيداً من الصراحة وقدراً أقل من الأرتياب ومن الدهاء السياسى والمكر . لقد شهدت الأوبرا فى انجلترا وفى إيطاليا حيث رأيت نفس الروايات ونفس الممثلين ، ومع ذلك فإن نفس الموسيقى حدثت آثاراً متباينة فى كل من الأمتين ، فإحداهما فاترة رابطة الجأش ، والثانية نشيطة منتعشة مبتهجة . . . وإذا نحن سافرنا إلى الشمال لالتقينا بأناس قلت رذائلهم وكثرت فضائلهم . . . وإذا نحن اقتربنا من الجنوب لتخيلنا أننا نبتعد كل الابتعاد عن حدود الأخلاق ، حيث تؤدى أقوى الانفعالات والأهواء إلى شتى أنواع الجرائم ، حيث يبذل كل إنسان أقصى الجهد ، إذا واتته الظروف ، أن يحقق رغباته الجامحة . . . » .

وفى البلاد الحارة نجد الماء الموجود فى الدم يضيع إلى حد كبير بسبب العرق ، ومن ثم يجب تعويضه بسائل مماثل ، وللماء هناك فوائد جمة ، وقد تعمل المشروبات القوية على تخثير كريات الدم الذى يتبقى بعد تبخر الرطوبة المائية . أما فى البلاد الباردة فالماء المختلط بالدم قليلا ما يفقد بالعرق ، ومن ثم يجدر أن يستفيدوا من المشروبات الروحية التى بدونها قد يتخثر الدم . . . ومن هنا نجد أن تحريم الشريعة الإسلامية للخمر يلائم بلاد العرب . والقانون الذى حرم على القرطاجيين شرب الخمر قانون مناخى . ومثل هذا القانون لا يصلح للبلاد الباردة حيث يبدو أن المناخ يفرض عليهم لونا من الإدمان على المسكرات بشكل عام . . . وينتشر شرب الخمر على قدر البرودة والرطوبة فى الجو [٨٢] . أو تأمل العلاقة بين المناخ والزواج : إن الإناث فى البلاد الحارة يكن صالحات للزواج فى سن الثامنة أو التاسعة أو العاشرة . . . ويهرمن فى سن العشرين ، ومن ثم فإن عقلهن لا يقترن بجمالهن . وإذا تطلب الجمال السيطرة والتسلط أفسد العقل هذا المطلب . وإذا تحلين بالعقل تجردن من الجمال . . ومن ثم ينبغى أن تكون

هؤلاء السيدات فى حالة من التبعية ، لأن العقل فى الشيخوخة لا يمكن أن يوفر السيطرة التى لم يستطع حتى الشباب والجمال أن يحققاها . ولهذا كان طبيعياً إلى أبعد الحدود فى هذه البلاد ، إذا لم يكن ثمة قانون يمنع ، أن يترك الرجل زوجة ليتزوج بأخرى وأن يباح تعدد الزوجات .

وفى المناخ المعتدل . حيث تحتفظ النساء بمفاتنهن على أكمل وجه ، وحيث يتأخر بلوغهن سن النضج ، وينجبن فى مرحلة متقدمة من الحياة ، نجد أن شيخوخة أزواجهن تتبع شيخوختهن إلى حد ما ، وحيث أنهن كن يتمتعن بقدر أكبر من العقل والمعرفة عند الزواج (أكبر من مثيلاتهن فى الأقاليم شبه المدارية) ، فإن هذا يستوجب وجود نوع من المساواة بين الجنسين ، وقانون الاقتصار على زوجة واحدة تبعاً لذلك . وهذا هو السبب فى أن الإسلام (مع نظام تعدد الزواجات) دخل بسهولة واستقر فى آسيا بقدر ما امتد بصعوبة إلى أوربا ، وأن المسيحية استقرت فى أوربا وتحطمت فى آسيا . وقصارى القول ، هذا هو للسبب فى أن الإسلام أحرز مثل هذا التقدم فى الصين ، على حين لم تتقدم المسيحية إلا قليلا(٨٣) .

وعند هذه النقطة يتبين مونتسكيو أنه أحل المناخ محل العناية الإلهية عند بوسويه ، ويسارع فيضيف أكراما للرب ، احتراسا منقداً : إن عقول البشر على أية حال خاضعة للعلة الأسمى ، الله ، الذى يفعل ما يشاء ، ويخضع كل شيء لإرادته . وظن بعض اليسوعيين أن مونتسكيو قد عراه الخجل .

وسرعان ما تابع تعميماته الطائشة . ففى « الشرق » ، (تركيا وإيران والهند والصين واليابان) يرغم المناخ على حجاب النساء وعزلتهن لأن (الهواء الحار يثير الشهوات) وقد يعرض تعدد الزواجات وأحاد به الزواج على حد سواء للخطر إذا أطلق اختلاط الجنسين كما هو الحال فى (بلادنا فى الشمال حيث عادات النساء فاضلة بطبيعتها وحيث العواطف هادئة ، وحيث يتسلط الحب على القلب تسلطاً وديعاً سوياً إلى حد أن أقل قدر من الحزم والحكمة يكفى لتوجيهه وقيادته)(٨٤) . إنها لمتعة أية متعة أن تعيش فى مثل هــذه

الأجواء التى تبيح الحديث وحيث الجنس اللطيف البالغ للفتنة يبدو أنه يزين المجتمع ، وحيث الزوجات اللاتى تقصر الواحدة منهن نفسها على إسعاد رجل واحد ، ويسهمن فى إدخال السرور والبهجة على الجميع [٨٥]) .

والعادات والأعراف نتائج مباشرة للمناخ أكثر من القوانين ، لأن القوانين ينبغى أن تحاول فى بعض الأحيان مقاومة آثار المناخ . وذلك أنه بتقدم الحضارة تتحكم الضوابط الأخلاقية أو القانونية — وينبغى لها أن تتحكم — فى العوامل المناخية ، مثال ذلك عزل المرأة وحجابها فى الشرق . ويهدف أحكم المشرعين إلى موازنة (الأسباب الطبيعية) . والعادات والأعراف وظيفة الزمان والمكان ، وليس ثمة عادة أو عرف خطأ أو صواب أو أنه الأفضل فى حد ذاته . والعرف . فى الجملة خير قانون ، لأنه تكيف طبيعى بين الشخصية والموقف ، ويجدر بنا أن نتأنى ونسير بخطى وئيدة فى تغيير العادة والعرف . وتأبى العادة أن تتبدل بالقانون عادة [٨٦] .

وحيث أن الموطن يحدد العادة التى تحدد بدورها الخلق القومى فإن شكل الحكومة لا بد أن يختلف من مكان إلى مكان تبعاً لهذا المركب الثلاثى . وهى تتوقف بصفة عامة على مدى سعة الرقعة الحكومية : فالجمهورية تنسجم مع رقعة صغيرة من الأرض ، يستطيع زعماء المواطنين فيها أن يجتمعوا للتشاور وللتداول أو العمل ، فإذا اتسعت الرقعة تطلبت مزيداً من الحروب ، وخضعت للحكم الملكى . وتتحول الملكية إلى استبدادية إذا حكمت رقعة شاسعة أكثر مما ينبغى لأن السلطة الاستبدادية وحدها هى التى تستطيع المحافظة على خضوع حكام المقاطعات لسلطانها [٨٧] . ويجدر أن تركز الملكية على (الشرف) ، أعنى أنه يجب تصنيف سكانها فى مراتب ، كما يجب أن يكون مواطنوها متحمسين غاية التحمس لألقاب الشرف والأوسمة وتفضيلهم أو ايثارهم بالحظوة . أما الجمهورية فيجدر أن تقوم على نشر (الفضيلة) على أوسع نطاق ، ويعرف مونتسكيو الفضيلة على طريقته الخاصة بأنها (حب الإنسان لبلده — أعنى حب المساواة [٨٨] .

وقد تكون الجمهورية أرستقراطية أو ديمقراطية تبعاً لطريقة حكمها : هل يتولاه قسم من المواطنين أو كلهم . ويعجب مونتسكيو بفنيسيا (البندقية) كجمهورية أرستقراطية . ويمدن الدول القديمة على أنها ديمقراطية وهو يعلم ولكن يتجاهل أن المواطنين المحررين ليسوا إلا أقلية . ويمتدح الحكم الذى أقامه وليم بن فى أمريكا . ويمتدح فى حماسة أكبر انشاء المناطق الشيوعية الدينية التى أسسها اليسوعيون فى باراجواى[٨٩] . والحق يقال على أية حال إن الديمقراطية الأمينة الحقة لا بد أن تحقق المساواة الاقتصادية والسياسية معاً ، وأن تنظم المواريث والمهور ، وتعمل على فرض الضريبة التصاعدية على الثروات[٩٠] . أن خير تلك الديموقراطيات هى التى يعترف فيها مواطنوها بعجزهم عن تحديد السياسة التى تنتهجها بلدهم ، ومن ثم يقرون السياسة التى يحددها ممثلوهم الذين انتخبوهم . وينبغى على الدولة الديمقراطية أن تهدف إلى المساواة ولكن يمكن أن تدمرها روح المساواة المتطرفة ، حين يسعد كل مواطن أن يكون فى مستوى أولئك الذين اختارهم ليأتمر بأمرهم . . . وإذا كان هذا هو الوضع فلن تقوم للفضيلة قائمة فى الجمهورية . فهنا يكون المواطنون راغبين كل الرغبة فى ممارسة مهام الحكام الذين لايعود لهم أى توقير أو احترام . وهنا يكون الاستخفاف بمداولات السناتو ، ومن ثم لا يكون هناك احترام لأعضائه ، ولا احترام لكبر السن ، وإذا انعدم التقدير والاحترام لكبر السن انعدم تبعاً لذلك الإذعان للوالدين أو الأزواج والامتثال للرؤساء .

وسرعان ما تتفشى هذه الظاهرة . إن الناس إذ يصابون بهذا البلاء محاولين التستر على فسادهم ، يسعون إلى افساد من وضعوا ثقتهم فيهم ... وعندئذ يقتسمون الأموال العامة فيما بينهم ، فإذا استأثروا بادارة الأمور بالإضافة إلى تكاسلهم وتراخيهم ، انصرفوا إلى مزج فقرهم بشىء من لهو الترف[٩١] .

وهكذا يقول البارون ، مردداً قول أفلاطون عبر ألفين من السنين : تنقلب الديموقراطية إلى فوضى . ثم إلى دكتاتورية ، ثم تنهار .

وهناك فى مونتسكيو أجزاء كثيرة تحبذ الجمهورية الأرستقراطية ، ولكنه خشى الاستبدادية التى ذهب إلى إمكان قيامها فى الديمقراطية إلى حد أنه كان يريد الصبر عليها أو تحملها إذا كانت هذه الجمهورية تحكم وفقاً لقوانين راسخة . ويعالج أقصر فصول كتابه الحكم المطلق الاستبدادى وهو يتألف من ثلاث مقالات قصيرة : « إذا أراد متوحشو لويزيانا ثماراً قطعوا الشجرة من جذورها ليجمعوا الثمار ، وهذا رمز للحكومة الاستبدادية (٩٢) » أى أن الحاكم المستبد يستأصل أعظم الأسرات كفاية ومقدرة ليحمى قوته وسلطانه . وكانت الأمثلة التى أوردها لهذا شرقية بشكل يطمأن إليه ، ولكن كان من الواضح أنه يخشى نزوع ملكية البوربون إلى الاستبداد ، حيث كان الكاردينال ريشيليو ولويس الرابع عشر قد دمرا قوة الارستقراطية السياسية . وتحدث عن ريشيليو وكأنه « مأخوذ بحب السلطة المطلقة (٩٣) » . أنه كره أشد الكراهية بوصف كونه نبيلا فرنسياً ، أن يهبطوا بمكانة طبقته إلى مجرد أفراد فى الحاشية الملكية ، واعتقد أن بعض القوى المتوسطة الخاضعة التابعه ، ضرورة لحكومة صحيحة وكان يعنى بهذه القوى النبلاء مالكى الأرض والحكام الوراثيين ، وكان ينتسب إلى كليهما . ومن ثم دافع عن النظام الإقطاعى بتفصيل شديد (١٧٥٣ صفحة) ، مضحياً بوحدة كتابه وتناسقه . إن مونتسيكيو هو الوحيد من بين فلاسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر الذى امتدح نظام العصور الوسطى ، واتخذ من لفظة « قوطى » ، تعبيراً عن الثناء والاطراء . وفى الصراع الذى استمر طوال حكم لويس الخامس عشر بين الملكية والبرلمانات اتخذ الحكام الذين يعدون للمعركة مصنعاً للحجج والأسانيد فى « روح القوانين » .

إن نفور مونتسكيو من الحكومة المطلقة مطية للحكم المطلق أدى به إلى تحبيذه حكومة مختلطة : فيها ملكية وأرستقراطية وديموقراطية معاً — ملك ونبلاء وجمعية عامة . ومن هنا كان أشهر آرائه ، نظرية الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فى الحكومة (٩٤) . فالسلطة التشريعية تسن

القوانين لكن لا تتولى تنفيذها ، وتتولى السلطة التنفيذية القيام على تنفيذها ولكن لا تسنها . وتقتصر السلطة القضائية على تفسيرها . « وتضم السلطة التشريعية مجلسين ، مجلس يمثل الطبقات العليا ، وآخر يمثل العامة . وهنا يتحدث البارون ثانية .

فى مثل هذه الدولة يوجد دائماً أناس يتميزون بحكم مولدهم وثرواتهم وألقابهم ، فإذا تساووا وخلطوا بعامة الشعب ، فلا يكون لهم إلا صوت واحد مثل الباقين ، فإن الحرية العامة تكون بمثابة استرقاق لهم ، ومن ثم يفقدون اهتمامهم بمساندة الحكم ، وتكون معظم القرارات الشعبية فى غير مصلحتهم . ويجدر أن يتناسب نصيبهم مع سائر امتيازاتهم فى الدولة ، وهذا يحدث فقط حين يشكلون هيئة فى الدولة يكون لها الحق فى مقاومة إساءة استعمال الشعب للسلطة فى الدولة ، كما يكون للشعب الحق فى مقاومة أى اعتداء على حرية الشعب . ومن هنا تكون السلطة التشريعية فى أيدى النبلاء وأيدى الذين ينتخبهم الشعب ، على أن يكون لكل هيئة اجتماعاتها ومداولاتها منفصلة عن الأخرى ، ولكل صلاحيتها وآراؤها [٩٥] » .

وتكون كل من الهيئات الثلاث وكل من المجلسين رقيباً بعضهم على بعض ، وبهذه الطريقة المعقدة تلتئم حريات المواطن مع حكمة الحكومة وعدالتها ونشاطها .

وكانت هذه الأفكار عن الحكومة المختلطة قد انحدرت إلى مونتسكيو من دراسته لهارنجتون وألجرنو وسيدنى ولوك ، ومن الخبرة التى اكتسبها فى انجلترا . إنه ذهب إلى أنه وجد هناك مثله الأعلى مهما كان منقوصاً ، فى ملكية تكبح جماحها ديموقراطية فى مجلس العموم ، كما يكبح جماح مجلس العموم الأرستقراطية فى مجلس اللوردات . وظن أن المحاكم فى انجلترا هى بمثابة كابح مستقل لجماح البرلمان والملك وامتدح ما كان قد رأى فى انجلترا رقابة نشتستر فيلد وغيره من النبلاء ولكنه مثل فولتير استخدم هذا الشكل المثالى حافزاً لفرنسا . ولا بد أنه عرف أن المحاكم الإنجليزية ليست مستقلة تمام الإستقلال عن البرلمان ، ولكنه ذهب إلى أنه من الخير لفرنسا أن

تفكر فى الأخذ بحق المتهمين فى انجلترا تحقيق عاجل ، أو إطلاق سراحهم بكفالة ، ومحاكمتهم أمام محلفين من طبقتهم ، مع تحدى الاتهام ، وإعفائهم من التعذيب ، ولكنه رأى كذلك « ألا يدعى النبلاء للمثول أمام المحاكم العادية بل أمام قضاة من نفس طبقتهم فى هيئتهم . « إنهم كذلك لهم الحق فى محاكمتهم أمام نظرائهم [٩٦] » .

إن مونتسكيو أصبح محافظاً أكثر فأكثر مع تقدمه فى السن . إن روح المحافظة على القديم رسالة والتزام فى الشيخوخة ، كما أن الراديكالية ، (التطرف) رسالة نافعة فى الشباب ، والاعتدال هبة وخدمة فى أواسط العمر ، ومن ثم كان لنا دستور فى ذهن أمة ، بما فيه من سلطات ذات وقيود وضوابط متبادلة وعرف مونتسكيو الحرية مع كل تمجيد لها بوصفها الهدف الصحيح للحكومة . بأنها » حق كل إنسان فى عمل ما تجيزه القوانين فإذا أتى مواطن شيئاً تحرمه القوانين ، فإنه لا يعود يتمتع بالحرية . لأن سائر المواطنين يمكن أن يكون لهم نفس الصلاحية [٩٧] » . واتفق مع زميليه جاسكون ومونتانى . على استنكار الثورات . « إذا ثبت شكل الحكومة واستقر منذ أمد بعيد ، وبلغت الأمور حداً معيناً من الثبات والاستقرار ، فإنه من الحكمة تقريباً أن تترك الأمور كما هى ، لأن الأسباب — هى غالباً معقدة أو غير معروفة — التى هيأت لها الصمود والثبات ، سوف تستمر فى فى الإبقاء عليها (أى على هذه الحكومة [٩٨]) .

ورفض فكرة المساواة فى الملكية أو السلطة ولكنه فكر ، مثل جراتسى فى تركيز ملكية الأرض : « من الأرض التى تكفى لتغذية أمة . . . لا تكاد تحصل عامة الشعب على ما يقوت أسره . . . فإن رجال الدين والأمير والمدن وعظماء الرجال وبعض البارزين من المواطنين يصبحون دون أن يحسوا ملاكاً لكل الأرض التى تبقى غير منزرعة . وتهجر الأسرات التى دمرت مزارعها ، والرجل الكادح معدم فقير . وفى هذا الوضع يجدر بالهيئة الحاكمة أن توزع الأرض بين الأسرات المحتاجة وتوفر لها المواد والأدوات اللازمة لإصلاحها وزراعتها ، وينبغى أن يستمر التوزيع ما دام هناك من يتسلمها [٩٩] .

واستنكر زراعة الأرض من أجل جباة الضرائب لحساب رجال المال الخصوصيين ، واستنكر الرق بشدة فى حماسة أخلاقية وتهكم لاذع [١٠٠] . واعترف بالضرورة الطارئة للحرب ، وامتد بمفهوم الدفاع إلى إجازة — المسارعة إلى الاستيلاء على الأراضى : إن حق الدفاع الطبيعى قد ينطوى أحياناً بالنسبة لدولة ما على ضرورة الهجوم ، كما يرى بعضهم على سبيل المثال أن حفظ السلام قد يمكن دولة أخرى من تدمير هذا السلام ، وعندئذ يكون غزو هذه الأمة الأخيرة هو السبيل الوحيد للحيلولة بينها وبين تدمير السلام [١٠١] .

ولكنه استنكر سباق التسلح : ولقد ساد الاضطراب من جديد كل أوربا ، فأصاب أمراءها وأغراهم بحشد قوات هائلة ، ولهذا مضاعفاته ، ويصبح بالضرورة معديا ، فإنه إذا شرع ملك فى زيادة قواته ، فإن الباقين بطبيعة الحال يحذون حذوه . ومن ثم لا نجنى من هذا إلا الدمار الشامل[١٠٢] .

وعلى الرغم من أنه قدر الروح الوطنية أكبر تقدير إلى حد أنه سوى بينها وبين الفضيلة ، إلا أنه راوده فى بعض الأحيان حلم مبادىء أخلاقية أرحب أفقاً : « إذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصى ولكنه يضر بأسرتى ، فينبغى على ألا أقدم عليه . وإذا علمت أن ثمة شيئاً نافعاً لشخصى . ولكنه يضر بأسرتى ، وليس لوطنى ، فيجدر بى أن أحاول أن أنساه . وإذا رأيت أن شيئاً ذا فائدة لوطنى ، ولكنه يضر بمصلحة أوربا والجنس البشرى فلا بد أن أعتبره جريمة رسمية [١٠٣] » .

إن غاية ما يصبو إليه من مبادىء أخلاقية وديانة خفية هو مذهب الرواقيين القدامى : « لم توجد قط مبادىء أكثر منها إلتئاماً مع الطبيعة البشرية ولا أقوم منها لبناء المواطن الصالح . . . وإذا استطعت أن أتخلى عن المسيحية لحظة لوصفت القضاء على مذهب زينون مؤسس مذهب الرواقيين محنة من بين المحن التى ابتلى بها الجنس البشرى . . . إن هذا المذهب وحده هو الذى صنع المواطنين . وهو وحده الذى صنع عظماء الرجال وهو وحده الذى صنع الأباطرة وإذا نحينا جانبا الحقائق التى

كشف عنها لحظة ، وفتشنا فى الطبيعة كلها فإننا لن نجد شيئاً أسمى من الانطونيين ، حتى ولا جوليان نفسه (وهو إطراء انتزع منى أرجو ألا يجعلنى شريكاً فى جريمة الردة) .

كلا ، لم يوجد قط منذ عهده أمير أجدر بحكم الجنس البشرى [(١٠٤)]

وواضح أن مونتسكيو حرص فى « روح القوانين » على مسالمة المسيحية إنه اعترف بوجود الله — فأى حمق أفظع من قضاء وقدر أعمى خلق كائنات ذكية [(١٠٥)] . ولكنه تصور هذا العقل الأسمى كما عبرت عنه قوانين الطبيعة ، وهو لا يتدخل فيها مطلقاً . قال فاجيه « إن الله بالنسبة لمونتسكيو هو روح القوانين [(١٠٦)] » ، وقبل المعتقدات الخارقة للطبيعة دعامة ضرورية لقانون أخلاقى لا يلتئم مع طبيعة الإنسان . « ومن الخير أن يكون هناك بعض كتب مقدسة لتكون شريعة مثل القرآن عند المسلمين ، وكتب زردشت عند الفرس ، والفيدا عند الهنود ، والكتب القديمة عند الصينيين . إن الشرائع الدينية تكمل القوانين المدنية ، وتحدد مدى السيطرة الاستبدادية [(١٠٧)] » . وينبغى أن تكون الدولة والكنيسة رقيبة كل منهما على الأخرى ، كما ينبغى أن تظل كل منهما منفصلة عن الأخرى . وهذا التفريق الكبير بينهما هو أساس هدوء الأمم [(١٠٨)] » . ودافع مونتسكيو عن الدين ضد بيل [(١٠٩)] . ولكنه أخضعه ، مثل أى شىء آخر لتأثير المناخ والخلق القومى : « إن حكومة معتدلة هى أصلح ما يكون للعالم المسيحى ، والحكومة المستبدة أصلح للعالم الإسلامى . وإذا اختيرت ديانة تلائم مناخ بلد ما ، تتعارض مع مناخ بلد آخر فإن هذه الديانة لن تقوم فى هذا البلد الثانى ، وإذا أدخلت كان ما لها النبذ والرفض [(١١٠)] . . . . والمذهب الكاثوليكى أكثر ما يكون توافقاً مع الملكية ، والبروتستانتية مع الجمهورية . . . . وإذا انقسمت المسيحية لسوء الحظ إلى كثلكة وبروتستانتية ، فإن أهل الشمال يعتنقون البروتستانتية ، على حين يظل أهل الجنوب متمسكين بالكاثوليكية والسبب واضح . فإن أهل الشمال يتمسكون ، وسيظلون يتمسكون إلى الأبد بروح الحرية والاستقلال ، وهذا ما لا يتمتع به أهل الجنوب . فإن الديانة التى لا يكون لها رئيس بارز هى أكثر ملاءمة لهم [(١١١)] .

وعلى حين سلم مونتسكيو بمزايا الدين إجمالا فإننا نراه يسهب فى نقده، واستنكر شراء رجال الدين فى فرنسا [١١٢] . ودون « أفظع احتجاج على محاكم التفتيش فى اسبانيا والبرتغال ، لوقف احراق المهرطقين ، وحذرهم من أنه « إذا تجرأ أحد فى الأجيال القادمة أن يثبت أن الناس فى أوربا فى عصرنا كانوا متحضرين ، فإنه لابد أن يمثل أمام القضاء ليثبت أنهم كانوا متبربرين [١١٣] » وسخر بوصفه قوطياً محباً لوطنه ، من عصمة البابا من الخطأ وألح فى أن تكون الكنيسة خاضعة للسلطة المدنية ، واتخذ بالنسبة للتسامح الدينى موقفاً وسطاً : « إذا كان للدولة مطلق الحرية فى اعتناق أو نبذ أى دين جديد ، فينبغى أن ترفضه ، فإذا اعتنقته وجب عليها أن تتسامح معه [١١٤] . ومع كل احترامه للرقيب ظل مونتسكيو عقلانياً « فالعقل هو أكمل وأكرم وأجمل ملكاتنا [١١٥] » . وماذا يقدم عصر العقل شعاراً أفضل من هذا ؟ .

٤ — النتيجة :

ما أسرع ما اعترف الناس « بروح القوانين » حدثاً ضخماً فى الأدب الفرنسى ، ولكن النقاد تلقفوه عن اليمين وعن الشمال . فالجانسنيون واليسوعيون ، وهم على طرفى نقيض عادة ، اتفقوا على مهاجمته على أنه رفض ماكر خبيث للمسيحية . وقالت جريدة « أخبار الكنيسة » وهى لسان حال أتباع جانسن : « إن الجمل المعترضة التى يضعها المؤلف ليقول لنا إنه مسيحى تؤكد لنا توكيداً هزيلا أنه كاثوليكى ، وإن المؤلف ليسخر من سذاجتنا إذا حسبناه على غير ما هو عليه » . وختم المحرر حديثه بنداء وجهه إلى السلطات المدنية باتخاذ إجراء ضد الكتاب [١١٦] . واتهم اليسوعيون مونتسكيو باتباعه فلسفة سبينوزا وهوبز ، بافتراضه وجود قوانين فى التاريخ مثلما هى فى العلوم الطبيعية ، ولم يترك مجالا لحرية الإرادة . ودافع الأب برتييه فى صحيفة « تريفو » اليسوعية عن أن الحق والعدل مطلقان ، وليسا نسبيين تبعاً للمكان والزمان ، وإن القوانين يجب أن ترتكز على مبادىء عامة من الله ، لا على تنوعات المناخ والتربة والعرف والخلق القومى [١١٧]

ورأى مونتسكيو أنه من الحكمة أن يصدر فى ١٧٥٠ « دفاعاً عن روح القوانين » ، تتصل فيه من الحاد والمادية والجبرية ، وأكد من جديد مسيحيته . ولكن رجال الدين ظلوا غير مقتنعين »

وكان الفلاسفة الناشئون فى ذات الوقت مستائين ، حيث اعتبروا روح القوانين كتيباً فى المحافظة على القديم ، واستاءوا من ورعه العارض وإعتدال إصلاحاته المقترحة ، ومفهومه الهزيل الفاتر عن التسامح المينى [١١٨] . وكتب هلفشيوس إلى مونتسكيو يعنفه على تركيزه الشديد على أخطار التغيير الاجتماعى والمصاعب التى تعترضه [١١٩] . أما فولتير الذى كان يعد كتابه عن فلسفة التاريخ فى بحث « فى الاعراف » ، فإنه لم يكن متحمساً لعمل مونتسكيو . ولم يكن قد نسى معارضة السيد الرئيس لإنضمامه إلى الأكاديمية بقوله : عار على الأكاديمية أن يكون فولتير عضوا فيها ، وسيكون العار عليه يوما ما ألا يكون عضواً فيها [١٢٠] » .

وتوقف نقد فولتير تحت ضغط الظروف ، وتحول إلى إطراء غير متحمس واعترض بأن مونتسكيو كان مبالغاً فى تأثير المناخ . ولاحظ أن المسيحية نشأت فى أرض اليهود الحارة ، وأنها لاتزال مزدهرة فى النرويج القارصة البرد ، ورأى أنه من الأرجح أن انجلترا تحولت إلى البروتستانتية لأن آن بولين كانت جميلة ، لا لأن هنرى الثامن كان فاترا [١٢١] . وإذا كانت روح الحرية نشأت — كما ذهب إليه مونتسكيو ، فى الأقاليم الجبلية ، فكيف تفسر قيام الجمهورية الهولنــدية القوية ، أو « حق اعتراض » اللوردات البولنديين (وفى القاموس الفلسفى) دون صفحات كثيرة تتضمن أمثلة تدل على أن للمناخ بعض الأثر ، ولكن للحكومة أثراً كبر منه مائة مرة ولكن للديانة والحكومة معا ، أثراً أكبر من هذا بكثير [١٢٢]) . إننا لنسأل الذين يؤمنون بأن المناخ يفعل كل شىء (لم يزعم مونتسكيو هذا) لماذا يقول الإمبراطور جوليان فى رسائله إن الذى سره فى الباريسيين هو خلقهم الوقور وعاداتهم الصارمة ، ولماذا نرى الباريسيين الآن ، دون أدنى تغيير فى المناخ ، أطفالا لعوبين هازلين ، وهو أمر تعاقبهم عليه الحكومة وتسخر

منهم من أجله ، فى نفس الوقت ، كما أنهم هم أنفسهم يسخرون ، فى لحظة تالية من سادتهم ويهجونهم هجاء لاذعاً [١٢٣] .

ووجد فولتير الجواب :

إنه الانقباض أو الاكتئاب ، وهو عكس ما يرددونه فى كثير من الاستشهادات والحكم والأمثال ، ولكنه دائماً الحقيقة تقريباً . . . « فالناس فى المناطق الحارة جبناء مثل العجائز ، أما فى المناخ البارد فهم شجعان مثل الشبان » . « إننا يجدر بنا أن نكون على حذر من أن بعض القضايا العامة . تفلت منا ، وما كان فى مقدور أحد أن يجعل من سكان لابلند أو الأسكيمو محاربين على حين أن العرب فتحوا فى ثمانين عاما من الأقاليم ما فاق فتوحات الإمبراطورية الرومانية بأسرها [١٢٤] .

ثم يمتدح فولتير « روح القوانين » فيقول : « بعد أن أقنعنا أنفسنا على هذا النحو بأن الأخطاء كثيرة فى ، « روح القوانين . . . » وأن هذا العمل ينقصه النهج ، كما تعوزه خطة العمل والنظام ، فقد يليق بنا أن نتساءل ما الذى اضفى عليه هذه القيمة الكبيرة ، وأدى إلى شهرته العظيمة . إنه فى المقام الأول مكتوب بذكاء عظيم ، على حين أن من ألفوا فى هـذا الموضوع كانت كتاباتهم مملة تبعث على السأم والضجر . وعلى هذا الأساس رأت إحدى السيدات (مدام دى ديفان) وهى تتمتع بذكاء مثل ذكاء مونتسكيو أن الكتاب هو « الذكاء فى القوانين » ، وهو أصح تعريف له . وثمة سبب أقوى وهو أن الكتاب يعرض وجهات نظر أو آراء عظيمة ويهاجم الطغيان والخرافة والضرائب الفادحة . . . إن مونتسكيو كاد أن يكون على خلاف مع العلماء لأنه ليس عالما ، ولكنه كان دائما على حق تقريباً ضد المتعصبين ومتعهدى الرقيق . أن أوربا مدينة له بالشكر والامتنان على الدوام [١٢٥] .

وأضاف فى موضـع آخر : « إن الإنسانية كانت قد ضيعت أعمالها المجيدة (من أجل الحرية) واستردها مونتسكيو [١٢٦] .

واتفق النقد المتأخر مع فولتير إلى حد كبير على حين اعترض على

مبالغاته (١٢٧) . حقاً إن أسلوب الكتاب كان ضعيفاً ، مع قليل من المنطق في ترتيب الكتاب وتسلسل موضوعاته ونسيان للفكرة الأساسية التي تحكم الربط بين أجزائه . وفي تحمس مونتسكيو ليكون عالما ، يجمع الحقائق ويفسرها ، لم يعد فناناً . أنه ضيع الكل في الأجزاء ، بدلا من تنسيق الأجزاء في كل منسق . وكان قد قضى في جمع مادة الكتاب أكثر من نصف عمره ، وكتبه في نحو عشرين عاماً ، وأساء التأليف المتقطع إلى وحدة الكتاب ، وتسرع في الوصول إلى أحكام عامة من أمثلة قليلة ولم يفتش عن أمثلة تنقضها — مثال ذلك أيرلندة الكاثوليكية في الشمال البارد ومن ثم يجب أن تكون بروتستانتية وتخلى من منهجه حين قال : « لقد وضعت المبادىء الأولى ووجدت أن الحالات الخاصة لابد أن تكون صحيحة بالضرورة بشكل طبيعي ، وأن تاريخ كل الأمم ليس إلا نتائج لهذه المبادىء » فهذا هو خطر تناول التاريخ بفلسفة يثبتها عن طريق هذا التاريخ وعند جمع مادة الكتاب قبل مونتسكيو كل بيانات السائحين دون تحقيق ولا تدقيق ، وفي بعض الأحيان أخذ الخرافات والأساطير على أنها تاريخ ، بل أن ملاحظاته المباشرة كان يمكن أن تكون خاطئة ، ومن ذلك أنه رأى « فصلا بين السلطات » في حكومة انجلترا على حين أنه كان من الواضح أن السلطة التشريعية هناك كانت تغطي على السلطة التنفيذية .

وإلى جانب هذه الأخطاء لابد أنه كان للكتاب مزايا أدت إلى الترحيب به وتأثيره . إن فولتير حدد أسلوبه بحق ، على أن الأسلوب أيضاً عاني من من شظايا المعلومات لا المعلومات الكاملة المستوفاة . وأولع مونتسكيو بالفصول القصيرة وربما كان هذا وسيلة للتركيز ، مثال ذلك الفصل الذى كتبه عن الحكم الاستبدادى المطلق ، مما أدى إلى التقطع وعدم الترابط مما عوق تدفق الفكرة . وربما كان جزء من عدم استيفاء البحث راجعاً إلى تفاقم ضعف بصره مما إضطره إلى الإملاء بدلا من الكتابة . وعندما كان يتمتع بكامل قوته وحيويته حقق في عبارات قوية واضحة بعضاً من الاشراق والروعة في الرسائل الفارسية . ويروى فولتير أن في « روح القوانين من العبارات الساحرة أكثر مما يليق بكتاب في القانون . يقول

مونتسكو « إن الناس فى فينيسيا مقترون غاية التقتير إلى حد أنه من أجل المومسات وحدهن يستطيع الرجال أن يغادروا البيت ومعهم نقود [١٢٨] » . وهذا ، على الرغم من كل شيء ، أسلوب وقدر معتدل هادىء وهو فى بعض الأحيان غامض ولكنه يعوض عن حل الألغاز .

وكان مونتشكيو متواضعا كما كان مصيبا فى أنه أرجع جزءا من قيمة الكتاب إلى موضوعة وهدفه . أنك لكى تعثر على قوانين فى القوانين ، وعلى نظام فى تنوعها تبعا للمكان والزمان ، ولكى تعمل على تنوير الحكام والمصلحين عن طريق دراسة مصادر التشريع وحدوده بالنسبة لطبيعة ومكان الدول والناس — فهذا عمل جليل ضخم تقتضى ضخامته وجلاله الصفح عن الزلات . وأخفق هربرت سينسر فى نفس هذا العمل بعد ذلك بمائة وثمانية وأربعين عاما ، وعلى الرغم من عدد كبير من من المعاونين فى البحث ، وبسبب نفس الرغبة فى استخلاص أحكام عامة ، ولكن كلنا المحاولين كأننا زيادة فى الحكمة . ولكن كتاب مونتسكيو كان . أفضل وهناك أناس سبقوه ولم يكن هو البادىء (*) بالتأليف فى هذا الموضوع ، ولكنه عجل بوضع المنهج التاريخى بقوة للدراسة المقارنة للنظم . ولقد سبق فولتير فى وضع فلسفة للتاريخ مستقلة عن الأسباب الخارقة للطبيعة وبلغ آفاقا واسعة ونزاهة فى الرأى لم يبلغها فولتير . إن بيرك أطلق على مونتسكيو « أعظم عبقرية نورت هذا العصر [١٣٠] واعتبره بين تين أعقل وأحكم وأكثر الرجال اتزانا فى هذا العصر [١٣١] ورأى هوراس ورلبول أن روح القوانين أحسن كتاب ظهر على الاطلاق [١٣٢] وقد لا يكون هذا صحيحا ولكنه أحسن كتاب ظهر فى هذا الجيل .

لقد أنهك هذا الكتاب مؤلفه . وكتب إلى أحد الأصدقاء : أعترف لك أن هذا الكتاب قتلنى . سأخلد إلى الراحة ولن أعمل شيئا بعد الآن [١٣٣]

(*) أبقراط : الهواء والماء والأماكن . ارسطو : دساتير أثينا . ميكافيللى : المقالات . بودين منهج لتيسير بعض المعلومات التاريخية .

وعلى الرغم من ذلك استمر يدرس ويبحث . وكان يقول « الدراسة بالنسبة لى هى خير علاج لكل خيبة أمل فى الحياة . ولم أجد ضيقا إلا فرج من كربته ساعة قضيتها فى القراءة [١٣٤] .

وزار باريس من حين لآخر وسعد بشهرته هناك التى كانت تضارع شهرة فولتير آنذاك (١٧٤٨) . ويقول رينال لقد جذب كتاب روح القوانين انتباه كل الشعب الفرنسي . اننا نجده فى مكتبات علمائنا ودارسينا وعلى منضدة زينة سيداتنا وعند كل شبابنا المتأنق [١٣٥] ورحبوا بالمؤلف من جديد فى الصالونات واستقبلوه فى البلاط الملكى ، ولكنه قضى معظم الوقت فى لابريد حيث قنع بأن يكون سيدا عظيما . وسر الانجليز بالكتاب أيما سرور حتى أنهم طلبوا منه أعدادا وفيرة . وفى سنيه الأخيرة كاد أن يصاب بالعمى ، وكان يقول « يبدو لى أن الأثر الخفيف من البصر الذى بقى لى ليس إلا فجر اليوم الذى تغلق فيه عيناى إلى الأبد [١٣٦] وفى ١٧٥٤ قصد إلى باريس لانهاء إيجار بيته هناك ، ولكنه أثناء تلك الزيارة أصيب بالتهاب رئوى وقضى نحبه فى ١٠ فبراير ١٧٥٥ وهو فى السادسة والستين وتناول الأسرار المقدسة الكاثوليكية . وكان الأديب الوحيد للذى شيع جنازته هو ديدرو وهو من أتباع مذهب اللا أدرية [١٣٧] وذاع صيته وامتد أثره على مر القرون . وكتب جيبون : « على مدى الأربعين عاما منذ صدور روح القوانين لم يقبل الناس على قراءة كتاب أو نقده أكثر منه . وليست روح البحث والتحيق التى أثارها أقل مآثر الكاتب علينا [١٣٨] » وكان جيبون وبلاكستون وبيرك من بين من أفادوا من روح القوانين وعظمة الرومان واضمحلالهم وعده فودريك الأكبر أحسن كتاب بعد كتاب الامير ، ورأت كثرين الكبرى أنه ينبغى أن يكون كتاب الصلوات اليومية لدى الملوك [١٣٩] واقتبست فقرات منه للرجال الذين عينتهم لمراجعة القوانين الروسية . ولم ينقل واضعوا مسودة الدستور الامريكى عن مونتسكيو نظرية فصل السلطات فحسب بل استبعاد أعضاء الوزارة من الكونجرس كذلك.

وتضمنت كتاباتهم كثيرا من الاقتباسات من الكتاب . وأصبح روح القوانين الكتاب المقدس عند الزعماء المعتدلين فى الثورة الفرنسية تقريبا ونشأ عن كتاب عظمة الرومان واضمحلالهم بعض أعجابهم بالجمهورية عند الرومان . ويقول فاجيه أن كل الأفكار الحديثة العظيمة بدأت بمونتسكيو [١٤١] وعلى مدى جيل من الزمان كان مونتسكيو ، لا فولتير ، هو صوت العقل وبطله فى فرنسا .

الفصل الحادي عشر

فولتير فى فرنسا

١ – فى باريس : ١٧٢٩ – ١٧٣٤

لدى عودة فولتير من إنجلترا فى أواخر عام ١٧٢٨ أو أوائل عام ١٧٢٩ اتخذ مسكنا مغمورا فى حى سان جرمان – ان لى – على بعد ١١ ميلا إلى الشمال الغربى من باريس ، وحشد أصدقاءه لينشروا أنباء غير رسمية عن إلغاء قرار نفيه من فرنسا ثم من العاصمة ، ونجحوا فى هذا ، بل فى استعادة معاشه الملكى كذلك . وما حل شهر أبريل حتى ظهر فجأة ، وأخذ يجول خلال العاصمة . وفى أحد الاجتماعات سمع أن العالم الرياضى كوندا مين حسب أن من يشترى كل أوراق « اليانصيب » التى تصدرها باريس لا بد أن يحقق ثراء ، فأسرع فولتير واقترض نقودا من رجال المصارف من أصدقائه ، واشترى كل الأوراق ، فكان ما تنبأ به العالم الرياضى ، ولكن المراقب العام للحسابات رفض الدفع ، فرفع فولتير دعوى أمام القضاة وكسب القضية وتسلم المبلغ (١) وفى أخريات عام ١٧٢٩ قطع ١٥٠ ميلا فى ليلتين ونهار واحد من باريس إلى نانسى ليشترى أسهما فى مشروع دوق اللورين ، وعادت عليه هذه المغامرة بأرباح طائلة . وهكذا أعان فولتير مدبر الأعمال المالية فولتير الشاعر الفيلسوف .

ونراه فى ١٧٣٠ مرة أخرى فى باريس مفتونا إلى حد الجنون بالمغامرات والمشروعات . وكان لديه عادة عدة أعمال أدبية قيد الانجاز فى وقت واحد ، يتنقل من واحد إلى الآخر ، ولذة الهوى فى التنقل ، دون أن يضيع وقتا . وكان آنذاك يكتب رسائل عن الانجليز وتاريخ شارل الثانى عشر « موت الآنسة ليكوفرير » ، والصفحات الأولى فى الغادة العذراء . وذات يوم ١٧٣٠ اقترح عليه زوار الدوق دى ريشيليو وهم

يتحدثون عن جان دارك أن يكتب لها تاريخا ، ولم يكونوا بعد فى فرنسا قد اعترفوا بها قديسة حامية لفرنسا . وبدا للمفكر الحر فولتير أن العناصر الخارقة للطبيعة فى أسطورة جان دارك تشد انتباهه إلى معالجة تاريخها معالجة فكاهية . فتحداه ريشيليو أن يحاول ذلك ، وكتب فولتير المقدمة فى تلك الليلة ، ولم تكن مرثيته فى ليكوفرير قد نشرت بعد ، ولكن صديقه الأخرق نيقولا ثيوريو كان قد قرأها على الملأ على أوسع نطاق . وأستأنفت الأصوات اللاهوتية البغيضة طنينها المزعج حول رأس فولتير .

وفى ١١ ديسمبر وكأنما كان فولتير ظمآنا إلى كسب الأعداء ، أخرج قصته لوسيوس جينيوس بروتوس الذى أطاح طبقاً لرواية ليفى بعرش الملك تاركينيوس وأسهم فى إقامة الجمهورية الرومانية ، وأنكرت المسرحية على الملوك قدسيتهم وعدم جواز انتهاك حرماتهم ، ونادت بحق الشعب فى تغير حكامه . وشكا الممثلون من أن الرواية خاليه من فكرة الحب ووافقت باريس على أنها بدعة خرقاء سخيفة . وسميت المسرحية بعد عرضها ١٦ مرة . وبعد اثنين وستين عاما أعيد تمثيلها من جديد ، لأن باريس كانت آنذاك تواقه إلى مشاهدة مقصلة لويس السادس عشر .

وفى نفس الوقت كان فولتير قد حصل على ترخيص ملكى بنشر « تاريخ شارل الثانى عشر ملك السويد » . وهنا كان الموضوع لا يكاد يسئ إلى لويس الخامس عشر أو الكنيسة ، كما يسر الملكة ، لأن الرواية تناولت موقف أبيها ستانسلاس بشكل لائق كريم . وظهرت طبعة من ٢٦٠٠ نسخة فى الوقت الذى ألغى فيه الترخيص الملكى دون سابق إنذار ، وصودرت كل النسخ فيما عدا واحدة احتفظ بها فولتير . واحتج فولتير لدى حامل الاختام فأبلغ أنه قد حدث تغيير فى السياسة الخارجية مما كان لزاما معه ارضاء غريم شارل الثانى عشر وضحيته ، وهو أوغسطس « القوى » الذى ما زال ملكا على بولنده . وقرر فولتير أن يتجاهل أمر الحظر وانتقل متنكراً إلى روان وباشر طبع تاريخه سراً . وفى أكتوبر ١٧٣١ تداوله الناس فى حرية مطلقة وأقبلوا على قراءته وكأنه قصص .

وذهب بعض النقاد إلى أنه محشو بالخيال ، وأسماه بعض المؤرخين الواسعي الاطلاع رومانسية « فى أسلوب مشرق بارع فى السرد القصصى ، ولكنه غير دقيق فى التفاصيل[٢] ولكن فولتير كان قد أعد الكتاب على طريقة الباحث المدقق إنه لم يطلع على وثائق الدولة فحسب بل إنه كذلك توقف ليستقى المعلومات من مصادرها الأصلية : الملك السابق ستانسلاس ، ماريشال دى ساكس دوقة مالبرو ، بولنجبروك ، آكسل سبار (الذى اشترك فى معركة نارفا) فونسيكا (طبيب برتغالى كان يعمل فى تركيا أثناء وجود شارل هناك) والبارون فابريس (سكرتير شارل سابقا) . وأكثر من هذا فإن فولتير كان قد أقام فترة مع البارون فون جورتز وزير شارل ذى الحظوة لديه . وربما حول إعدام البارون ١٧١٩ نظر فولتير إلى دراسة أسد الشمال « وفى ١٧٤٠ أشار جوران نورد برج الذى كان قسيس شارل إلى الأخطاء التى وقع فيها فولتير ، وقام فولتير بتصويب هذه الأخطاء فى الطبعات اللاحقة . وكانت هناك أخطاء أخرى وبخاصة فى الوصف التفصيلى للمعارك . وجادل النقاد المتأخرون[٣] فى أن فولتير بالغ فى تقدير شارل على « إنه الرجل الاكثر استثناء وخرقا للعادة الذى ظهر على الأرض » وجمع فى شخصيته بين أعظم مناقب أسلافه . ولا عيب فيه ولا ينغص عليه حياته إلا أنه جمع بين هذه المناقب فى إفراط زائد[٤] وربما تخفف الكلمة الأخيرة من حدة النقد ، فقد أوضح فولتير أن شارل جاوز الحد وأفرط فى التحلى بهذه المناقب البطولية حتى أصبحت عيوبا وعددها ، ومنها التبذير والتهور والقسوة وعدم القدرة على المغفرة والصفح . كما أوضح كيف أن أخطاء الملك قد أضرت بالسويد . وانتهى إلى أن شارل « كان رجلا شاذا استثنائيا لا رجلا عظيما[٥] » وعلى أية حال لم يكن الكتاب عملا ثقافيا فحسب ، بل عملا فنيا كذلك — من حيث التركيب والشكل والحيوية والأسلوب — وسرعان ما أقبل كل المتعلمين فى أوربا على قراءة شارل الثانى ملك السويد وذاعت شهرة فولتير إلى حد لم يسبق له مثيل .

وأصبح فولتير بعد عودته من روان (٥ أغسطس ١٧٣١) ضيفا مقيما

على الكونتيس دى فونتين مارتل فى قصرها بالقرب من « الباليه رويال » ، وقد وجدت فى رفقته سعادة بالغة حتى ظلت تؤويه وتطعمه حتى مايو ١٧٣٣ وترأس فى حيوية شديدة ولائم العشاء الأدبية التى كانت تقيمها ، ومثل المسرحيات وبخاصة مسرحياته هو على مسرحها الخاص . وفى أثناء إقامته هناك كتب نص « أوبرا شمشــون » لرامو — وهو ملحن فرنسى فى القرن الثامن عشر (١٧٣٢) — ومن المحتمل أنه شهد من مقصورة الكونتيس فى « المسرح الفرنسى » سقوط روايته « اريفيل » (١٧٣٢) كما شهد النجاح الباهر الذى لقيته مأساة زائير (١٣ أغسطس ١٧٣٢) فكتب إلى صديق له : « ما مثلت رواية بمثل الروعة التى مثلت بها زائير فى عرضها الرابع . وكم وددت لو أنك كنت معى لتشهد أن الجمهور لم يسخط على صديقك ، وظهرت فى المقصورة ، واتجهت كل الأيدى بالتصفيق لى ، فأستحييت وخبأة نفسى . ولكنى أكون مرائياً إذا لم اعترف لك بأنى قد اهتزت مشاعرى وتأثرت كثيراً [٦] .

وظلت هذه المسرحية أحب مسرحياته إليه حتى النهاية . إنها كلها ليس لها وجود الآن ، قضى عليها تغير الأذواق والأمزجة والأسلوب ، ولكنا يجدر بنا أن نبعث أحداها على الأقل من قبرها ، لأنها لعبت جميعاً دوراً مثيراً كبيراً فى حياته . وزائير طفلة مسيحية أسرها المسلمون فى صباها فى الحروب الصليبية ، ونشأوها على العقيدة الإسلامية ، وهى لا تعرف إلا القليل عن فرنسا اللهم إلا أنها مسقط رأسها ، وهى الآن غادة فاتنة فى حريم السلطان أوروزمان فى بيت المقدس . وهام بها السلطان وهامت هى به حباً . وفى مستهل الرواية كانت على وشك أن تصبح زوجة له . وتؤنبها أسيرة مسيحية أخرى اسمها فاتيما على نسيانها أنها كانت مسيحية . وفى رد زائير توضيح لأثر الجغرافيا فى تحــديد العقيدة الدينية : « إن أفكارنا وعاداتنا وعقيدتنا الدينية إنما تشكلها الأعراف والتقاليد والنزعة القومية السائدة فى أيامنا الأولى . فإذا رأت النور على ضفاف نهر الكنج لعبدت أوثان الهند . وإذا ولدت فى باريس لكنت مسيحية . وأنا الآن مسلمة سعيدة . إننا لا نعرف إلا ما تلقناه إن أبدى الأبوين اللذين يتوليان تربيتنا

وتعليمنا هى التى تنقش على قلوبنا الغضة تلك الأحرف التى ينقحها الزمن ويصقلها . وتعمل القدرة على تثبيتها عميقة فى عقولنا ، ولا يقدر على محوها إلا الله [٧] .

ويصور فولتير أوروزمان رجلا يتحلى بكل الفضائل بشكل واضح إلا الصبر . إن المسيحيين ليصعقون ويذهلون إذ يرون مسلما وقوراً مهذباً مثل المسيحيين . وتتولى السلطان الدهشة إذ يرى مسيحية فاضلة ، ويرفض أن يحتفظ بحريم، ويعد بالاقتصار على زوجة واحدة . ولكن فولتير كان منصفاً لشخصياته المسيحية كذلك ، فهو ينظم أبياتاً عامرة فى جمال الحياة المسيحية الحقة . وهناك أسير مسيحى آخر هو نير ستام ، وقع فى الأسر فى طفولته كذلك ، ونشأ مع زائير ، وفك أساره حين تعهد بالرجوع ليفتدى بالمال عشرة من الأسرى ، ويذهب ثم يعود ليدفع مبلغ الفدية المطلوب من ماله الخاص . ويكافئه أوروزمان بإطلاق سراح مائة لا عشرة فقط من المسيحيين . ولكن نير ستام بحزن لأن زائير ولوسنيان لم يكونا من بين من أطلق سراحهم ، ومكان هـذا ملك بيت المقدس (١١٨٦ — ١١٨٧) . وتناشد زائير السلطان أوروزمان أن يطلق سراج لوسنيان ، فيجيبها إلى طلبها . إن الملك العجوز يعتبر زائير فى منزلة ابنته ونيرستام فى منزلة ابنه . إنها الآن موزعة بين حبها للسلطان الكريم وولائها لأبيها وأخيها وعقيدتهما المسيحية . ويهيب بها لوسنيان أن تتخلى عن السلطان والإسلام معاً : « أواه يا إبنتى ، فكرى فى الدم الزكى الذى يجرى فى عروقك ، دم عشرين ملكاً كلهم مسيحيون مثلى ، دم الأبطال ، دم المدافعين عن العقيدة ، دم الشهداء والقديسين . إنك لا تعرفين مصير أمك ، إنك لا تعرفين أنه فى نفس اللحظة التى ولدت فيها ذبحها أولئك المتبربرون الذى تعتنقين دينهم البغيض على مرأى منى . إن إخوتك والشهداء الأعزاء بمدون إليك أيديهم من السماء ، يريدون أن يحتضنوا أختا لهم . آه يا ابنتى ! تذكريهم ! إن الرب الذى خنث عهده . لفظ النفس الأخير من أجلنا ومن أجـل البشر جميعاً . انظرى إلى الجبل المقدس الذى قتل عليه مخلصنا ، والمقبرة التى نهض منها ظافراً منتصراً . فى كل طريق تمشين فيه ستجدين خطوات الرب ، هل

تنكرين خالقك ؟ زائير : . . . يا إلهي العظيم . . . تكلم يا أبتاه ماذا أفعل ؟ لوسنيان : . . . أذهبي عني العار والحزن بكلمة منك ، وقولي أني مسيحية . زائير : إذن يا إلهي ، أنا مسيحية . . . . .

لوسنيان : أقسمي بأنك ستحفظين هذا السر الخطير » .

زائير : اقسم لك على ذلك [٨] .

ولما علم نيرستام بإصرارها على الزواج من أوروزمان ، راوده التفكير في قتلها ، ولكن رق قلبه ، وألح في قبولها التعميد فوافقت ، وبعث إليها برسالة يحدد فيها مكان وزمان الاحتفال بتعميدها ، وحسب أوروزمان الذي لم يكن يدري أن نيرستام أخوها ، إنها رسالة حب وغرام ، ويفاجيء زائير في الموعد المضروب ، ويطعنها . ثم يكتشف أن العشيقين المزعومين ليسا إلا أخاً وأختاً ، فينتحر .

إن حبكة الرواية موضوعة ببراعة ، مبسوطة بطريقة مسرحية متماسكة وهي تمثل في شعر سلس موسيقي . وإننا لندرك من خلال القطع العاطفية التي تبدو الآن ثقيلة مبالغاً فيها ، والسبب في أن باريس أغرمت بزائير وأوروزمان ، وفي أن الملكة الصالحة الحزينة ذرفت الدموع عند تمثيل المسرحية للحاشية في فونتنبلو . وترجمت المسرحية إلى الإنجليزية ومثلت بسرعة في انجلترا وإيطاليا وألمانيا . ونودي آنذاك بفولتير أعظم شاعر على قيد الحياة في فرنسا ، وخلفاً صالحاً لكورني وراسين . ولكن هذا لم يرق في عيني جان بابتست روسو ، وهو شاعر فرنسي مقيم في المنفى في بروكسل ، فحكم على زائير بأنها « مسرحية تافهة فاترة . . . مزيج كريه من التدين والفجور » . فرد عليه فولتير شعراً في معبد الذوق » يشهر فيه بروسو ويمجد موليير .

وبلغ فولتير ذروة المجد وعانق النجوم ، ولكنه لم يكف عن العمل . ففي شتاء ١٧٣٢ — ١٧٣٣ درس الرياضيات كما درس نيوتن ، مع صحبته مستقبلا موبرتوي Moupertuis ، وأعاد كتابة « ايريفيل Eriphile » ونقح زائير وشارل الثاني عشر ، وجمع مادة كتابه « قرن لويس الرابع

عشر » ووضع اللمسات الأخيرة على كتابه « رسائل عن الإنجليز » وأخرج مسرحية أخرى (أليد) كما كتب أشياء صغيرة لا تحصى : رسائل ، قصائد مدح ، اقتراحات ، بعض الحكم الساخرة ، بعض أغانى الحب — وكلها تتسم بالظرف فى نظم رقيق مصقول . وعندما ماتت مضيفته السخية ، مدام دى فونتين مارتل ، انتقل إلى داره فى شارع (لونج بزان) واشتغل بتصدير القمح . ومذ جمع بين التجارة والقصص ، فإنه التقى (١٧٣٢) بالسيدة جبرييل اميلى لى تونلييه دى برتيل مركيزة دى شاتيليه ، وارتبطت حياته بحياة السيدة الفذة المغامرة حتى وافاه الأجل المحتوم .

وكانت آنذاك فى السادسة والعشرين (وهو فى الثامنة والثلاثين) ، وكانت حياتها بالفعل حافلة متعددة الجوانب فهى ابنة البارون دى برتييه ، ولذلك تلقت تعليما غير عادى . حتى أنها فى سن الثانية عشر تعلمت اللاتينية والإيطالية وغنت غناء رخيما ، وعزفت على البيان الصغير ، وبدأت فى سن الخامسة عشرة تترجم الإلياذة إلى الفرنسية شعراً ، وأضافت إلى هذا اللغة الإنجليزية ودرست الرياضيات على يدى موبرتوى . وفى التاسعة عشرة تزوجت المركيز فلورنت كلود دى شاتيليه لومونت ، وكان فى الثلاثين من العمر . وأنجبت له ثلاثة أطفال . ولكن فيما عدا هذا لم يكن للواحد منهما يرى الآخر إلا لماماً ، حيث كان هو عادة مشغولا مع فرقته ، أما هى فبقيت قريبة من الحاشية وقامرت بمبالغ طائلة ، وجربت الحب . فلما هجرها عشيقها الأول تناولت سماً ، وأنقذوها على كره منها بواسطة عقار مقيىء ، واحتملت فى رباطة جأش جربتها من قبل ، هجران عشيق ثان هو الدوق دى ريشيليو ، لأن كل فرنسا عرفت قصة تقلبه بين النساء .

والتقى فولتير بالمركيزة على مائدة العشاء فلم ينزعج ، بل سرته قدرتها على التحدث فى الرياضيات والفلك والشعر اللاتينى . ولم تكن مفاتنها طاغية لا سبيل إلى مقاومة إغرائها ، ولكن سيدات أخريات أسرفن ، فى وصفها ، استمع إلى مدام دى دفان وهى تقول : (امرأة ضخمة متحفظة لا أوراك لها ، صدرها هزيل ؛ . . . ذات ذراعين ضخمين ورجلين

كبيرين ، وقدمين ضخمتين ، ورأس صغير جداً ، وقسمات حادة ، وأنف محدد وعينين صغيرتين خضراوين تميلان إلى الزرقة . سمراء البشرة أسنانها رديئة [٩] » واتفقت معها المركيزة دى كريكى فقالت « إنها عملاقة — ماردة ، ذات قوة جبارة ، وكانت فضلا عن ذلك آية فى القبح والبشاعة ، وكان جلدها فى لون مبشرة جوزة الطيب الداكنة ، إنها تشبه فى جملتها جندياً طويل القامة قبيح الصورة . ومع ذلك تحدث فولتير عن جمالها [١٠] » . أن سانت لامبرت الوسيم أحبها سراً عندما كانت فى الثانية والأربعين . وليس لنا أن نثق فى رأى السيدات بعضهن فى البعض الآخر . وقد يتبين من صورها الشخصية أن اميلى كانت طويلة القامة مسترجلة ، ذات جبهة مديدة ونظرة متعجرفة ، ولم تكن قسمات وجهها غير جذابة ، وقد نشعر بشىء من الاطمئنان إذا علمنا أن (لها صدراً شهوانياً ولكنه راسخ [١١]) .

ويمكن أن تكون أميلى قد كان فيها ما يكفى من الرجل ليكمل المرأة فى فولتير . ومهما يكن من أمر فإنها لجأت إلى كل الحيل والوسائل الأنثوية لتصلح ما أفسد الدهر من جمالها — مستحضرات التجميل والعطور والمجوهرات والحلى والمخرمات . وسخر فولتير من ولعها بالتزين . ولكنه أعجب بتحمسها للعلوم والفلسفة . فهنا سيدة استطاعت حتى فى غمرة الصخب والضوضاء فى باريس وفرساى أن تنسحب من مائدة القمار ، لتدرس نيوتن ولوك ، إنها لم تقرأ نيوتن فحسب بل أنها استوعبته كذلك وهى التى ترجمت قوانين نيوتن إلى الفرنسية ، ووجد فولتير أنه من اللائق أن يتخذ من نفس المرأة رفيقة دراسة وعشيقة فى وقت معاً . وفى ١٧٣٤ اعتبر نفسه بالفعل الرجل الذى ترتضيه عشيقاً لها : (يا إلهى ! أية لذة ومتعة أجدها بين ذراعيك كم أنا سعيد بالإعجاب بالمرأة التى أحبها [١٢] !

٢ — رسائل عن الإنجليز

فى عامى ١٧٣٣ و ١٧٣٤ نشر فولتير بعد عناء شديد أول إسهامه فى عصر الاستنارة ، وكان عبارة عن ٢٤ رسالة موجهة من انجلترا إلى تيريو

وترجمت إلى الإنجليزية وصدرت فى لندن (١٧٣٣) رسائل متعلقة بالأمة الإنجليزية . ولكن كان فى طبع الأصول فى فرنسا مغامرة بحرية المؤلف وصاحب المطبعة كليهما . وخفف فولتير من بعض الأجزاء ، وحاول أن يحصل على إذن من الحكومة بطبع البقية ، فرفضوا منحه الترخيص ، وهنا لجأ ثانية إلى نشرها سراً فى روان . وحذر الناشر جور من تسرب أية نسخة للتداول لبعض الوقت على الأقل ، ولكن فى أوائل ١٧٣٤ ، وصلت عدة نسخ إلى باريس تحت عنوان « رسائل فلسفية » . وحصل أحد قراصنة الناشرين على نسخة ، وأصدر منها طبعة كبيرة العدد دون علم فولتير . وفى نفس الوقت كان فولتير ومدام دى شاتيليه قد قصدا إلى قصر مونتجى بالقرب من أوتون على مسافة ١٩٠ ميلا من باريس ليحضرا حفل زفاف ريشيليو .

وبدأ الكتاب بأربع رسائل عن جماعة الكويكرز الإنجليزية ، وأوضح فولتير أن هؤلاء الكويكرز ليس لهم تنظيم كنسى ولا قساوسة ولا أسرار ولا قرابين مقدسة ، ومع ذلك مارسوا الشعائر المسيحية فى إخلاص وإيمان أكثر من أى مسيحيين عرفهم . ووصف أوتخيل زيارة قام بها لواحد منهم وقال : « سألت واحداً منهم : سيدى العزيز ، هل عمدوك ؟ فأجاب « لا لم أعمد لا أنا ولا إخوتى » . وصحت فى وجهه : عجباً كيف يكون هذا إذن أنتم لستم مسيحيين ! فأجاب فى صوت هادىء خفيض يابنى ، لا تقسم ، نحن مسيحيون » « ونحن نحاول أن نكون مسيحيين صالحين ، ولكننا لا نرى أن المسيحية مجرد صب ماء بارد مع قليل من الملح على الرأس وعارضته . (يا إلهى ! لا تتحدث بهذا الضلال ! هل نسيت أن يوحنا عمد المسيح ؟) فرد قائلا : يا صاحبى ، لا تقسم بعد ذلك ، إن يوحنا عمد المسيح ولكن المسيح لم يعمد أحداً . . . ونحن أتباع المسيح لا أتباع يوحنا فقلت له : (واحسرتاه أيها المسكين جزاؤك الحريق فى بلاد محاكم التفتيش وسألنى (هل أجروا لك عملية الختان ؟) .

فأجبته (لم يكن لى شرف الختان) .

فقال : (حسناً ، أنت مسيحي دون ختان ، وأنا مسيحي دون تعميد)

وقال الكويكرز إن التعميد مثل الختان من العادات السابقة على المسيحية وقد أبطلها إنجيل السيد المسيح الجديد . ثم استطرد فولتير يتحدث عن الحرب (لن نذهب أبداً إلى الحرب ، لا لأننا نخشى الموت ، بل لأننا لسنا ذئاباً ولا نموراً ، ولا كلابا نحن رجال مسيحيون . أن إلهنا الذى أمرنا نحب أعداءنا يقينا لا يريد منا أن نعبر البحر لنقتل إخوة لنا ، لمجرد أن السفاحين الذين يرتدون ثيابا فى لون الدم وقبعات عالية ترتفع إلى قدمين يجندون المواطنين بينما يحدثون جلبة باثنتين من العصى ممدتين على جسم حمار . وبعد النصر تتألق لندن كلها فى الأضواء وتلتهب سماؤها بالألعاب النارية وطلقات المدافع ، على حين نرثى فى صمت للمذبحة التى أدت إلى مثل هذا الابتهاج العام[١٣] .

لقد أوذيت فرنسا أيما إيذاء ، وكادت أن تدمر نفسها لمحاولتها فرض عقيدة واحدة على جميع الفرنسيين . وأسهب فولتير فى وصف التسامح بالنسبة للخلافات الدينية فى إنجلترا . « هذه بلد الطوائف . والرجل الإنجليزى ، باعتباره حرا يسلك إلى السماء الطريق الذى يختاره . »[١٤] ووازن فولتير بين أخلاق رجال الدين الإنجليز وأقرانهم الفرنسيين ، وهنأ الإنجليز بأنهم ليس لديهم رهبان . إن الانجليز ليحمدون الله ويشكرونه على أنهم بروتستانت حين يعلمون أن الشبان الفرنسيين المعروفين بفسقهم وفجورهم يرقون إلى مناصب الأساقفة والمطارنة بفعل الدسائس ، ويؤلفون الأغانى الرقيقة ويقيمون ولائم العشاء الباذخة كل يوم تقريباً ، ويطلقون على أنفسهم أنهم خلفاء الرسل .[١٥] وفى الرسالة الثامنة أدار فولتير الخنجر إلى صدر الحكومة فى فرنسا : « إن الأمة الانجليزية وحدها هى التى عرفت كيف تحدد سلطة الملوك بوقوفها فى وجههم . . . وأخيرا أقامت هذه الحكومة الرشيدة ، وفيها يتمتع الملك بكل القوة والسلطة فى أن يفعل الخير ، على حين تغل يداه عن الإتيان بأى شر أو سوء . (وهنا يردد فولتير عبارة مشهورة مأثورة عن رواية فنيلون « تليماك » . ان إقرار الحرية فى إنجلترا تطلب ثمناً غالياً

ولا ريب ، فقد أغرق صنم الحكم الاستبدادى المطلق فى بحر من الدماء ، ولكن الإنجليز لا يرون أنهم اشتروا القوانين العادلة الصالحة بثمن باهظ ، فهناك أمم أخرى مرت بمحن وأوقات عصيبة لا تقل عما عاناه الإنجليز ، ولكن الدماء التى أريقت دفاعا عن قضية الحرية لم تكن إلا تثبيتاً لعبوديتها[٢١]

إن حق التحقيق فى قانونية حبس التهم فى إنجلترا يحرم السجن دون قضية محددة ، ويتطلب محاكمة علنية ، بواسطة المحلفين ، أما فى فرنسا فهناك « الأوامر السرية المختومة » . وقبل مونتسكيو بأربعة عشر عاما ، رأى فولتير « فصل السلطات فى الحكومة الانجليزية وامتدحه وبالغ فيه ، كما رأى تنسيق العمل بين الملك ومجلس اللوردات ومجلس العموم . وأشار فولتير إلى أنه لا يمكن فرض ضرائب إلا بموافقة البرلمان » « وأنه لا يعفى أحد من ضرائب معينة . . . لأنه نبيل أو كاهن . »[١٧] وفى إنجلترا يشتغل صغار أبناء النبلاء بالتجارة وبمختلف المهن ، أما فى فرنسا فإن التاجر غالبا ما يسمعهم يتحدثون عن مهنته فى ازدراء واحتقار ، حتى يبلغ به الحمق إلى حد الشعور بالخزى والعار من الاشتغال بالتجارة . ولست أدرى أيهما أنفع للدولة ــ نبيل متأنق يعرف بالضبط متى يصحو الملك من نومه أو يأوى إلى فراشه ، ويستشعر العظمة حين يقوم بدور العبد الرقيق . . . أو رجل أعمال (مثل فوكنر مضيف فولتير فى لندن ، يثرى وطنه ويصدر الأوامر من مكتبه إلى سورات والقاهرة ، ويسهم فى اسعاد العالم بأسره[١٨] وأخيرا فى قطعة تضمنت برنامجا لفرنسا ذهب فولتير إلى : "أن الدستور الإنجليزى بلغ قمة التفوق وكان من نتيجة ذلك أن كل الناس استعادوا حقوقهم الطبيعية ، على حين أنهم محرومون منها فى سائر الملكيات تقريبا . وهذه الحقوق هى الحرية الكاملة فى أشخاصهم وفى ممتلكاتهم : حرية الصحافة حق المحاكمة بناء على نص صريح فى القانون ، وحق كل إنسان فى اعتناق العقيدة التى يرتضيها دون إزعاج . [١٩]

ولا بد أن فولتير عرف أن فريقا من الناس فقط هم الذين تمتعوا بهذه الحقوق الطبيعية » وأن الحرية الشخصية لم تتحرر من خطر الرقابة الصحفية ،

وينصرفوا إلى دراسة نيوتن . إن حكم الرأى العام فى إنجلترا على هذين المفكرين هو أن أولهما كان حالما والثانى حكيما . وقدر فولتير أعظم تقدير إضافات ديكارت إلى الهندسة ، ولكنه لم يستسغ الدوامات الكونية عند ديكارت . إنه أقر بأن ثمة شيئاً وهميا غامضا ، أو على الأقل مخدرا فى مقالات نيوتن عن الكرونولوجيا القديمة (تقسيم الزمن إلى فترات وتعيين تاريخ الأحداث) وسفر الرؤيا ، وأوحى فولتير بشكل لطيف بأن نيوتن كتب هذه المقالات ليعزى البشرية عن تفوقه البالغ عليها [٢١] إنه وجد أن نيوتن ما زال عويصا يصعب فهمه ، ولكن اجتماع الرجال البارزين فى الحكومة وفى ميدان العلوم لتشييع جنازته ترك فى نفسه أثرا عقد معه العزم على دراسة قوانين نيوتن ، وعلى أن يكون رسول نيوتن إلى فرنسا ، وهنا أيضا غرس فولتير بذور دائرة المعارف وعصر التنوير .

وأخيرا صدم فولتير الفكر الدينى فى فرنسا بنقد لاذع وجهه إلى آراء بسكال . إنه لم يقصد تضمين هذا فى رسائله ، فليس لهذا علاقة بانجلترا : ولكنه كان قد أرسله من إنجلترا إلى تيير ١٧٢٨ ، فألحقه الناشر اللص بالرسائل باسم الرسالة رقم ٢٥ ، وكانت النتيجة أن الجانسنيين — الذين قدسوا بسكال إلى حد العبادة ، وسيطروا على برلمان باريس — ، فاقوا الآن اليسوعيين (الذين لم يحبوا بسكال قط) فى استنكار فولتير وشجبه وكان فولتير غير قابل أساساً للاتفاق مع بسكال حيث كان فى هذه المرحلة (اللهم إلا فى رواياته) عقلانيا متشدداً لم يكن قد وجد بعد مجالا للوجدان فى فلسفته . وكان لا يزال شابا ممتلئا حيوية ونشاطا ينعم بالحياة وسط محنه البطولية ، ومن ثم عارض التشاؤم الجزوع الكئيب عند بسكال « ولسوف أتجاسر فأقوم بدور الجنس البشرى ضد هذا المبغض للبشر المهيب » [٢٢] ورفض « رهان » بسكال (أى أنه من الأحكم أن نراهن على وجود الله لا العكس) باعتباره عملا صبيانيا يجافى الحشمة والوقار . . . إن اهتمامى بالاعتقاد بشىء ليس برهاناً على أن هذا الشىء موجود » [٢٣] ولم يعرض بسكال الرهان (على أنه برهان) وسلم بأنه ليس فى مقدورنا أن نفسر الكون أو نعرف قدر

وأنه كانت هناك حدود وقيود على حرية الكلام فى الدين وفى السياسة ، وأن المنشقين والكاثوليك كانوا مستبعدين من الوظائف العامة . وأنه كان من الميسورة فى إنجلترا رشوة القضاة ليتجاهلوا القانون . إن فولتير لم يدون وصفا نزيها لواقع إنجلترا . أنه كان يستخدم إنجلترا سوطا يحرك به الثورة فى فرنسا ضد ظلم الدولة أو الكنيسة . أن كون كل هذه الحقوق تقريبا أصبحت الآن قضية مسلما بها فى البلدان المتحضرة يضفى على ما أنجزه القرن الثامن عشر روعة وجلالا .

ولا يقل عن هذا أهمية فى أثره على الفكر الحديث امتداح فولتير لبيكون ولوك ونيوتن . إنه قال عن بيكون الذى اتهموه وجرحوه ما حكم به بولنجبروك على مالبرو « إنه رجل بلغ من العظمة حدا لا أستطيع معه أن أتذكر هل كان له أخطاء أم لا » [٢٠] ثم أردف يقول « إن هذا الرجل العظيم بيكون هو أبو الفلسفة التجريبية لا من أجل التجارب التى قام بها ، بل بما وجه من نداءات قوية للنهوض بالبحث العلمى . وتلك هى الفكرة التى حدت بديدرو ود المبرت إلى القول بأن بيكون هو أول من أوحى إليهم بدائرة المعارف التى وضعوها .

وخصص فولتير لجون لوك كل الفصل الثالث عشر تقريبا . إنه لم يجد فيه مجرد علم العقل بدلا من أسطورة النفس ، بل وجد فلسفة كامنة كاملة حتى انه بارجاعه كل المعرفة إلى الشعور ، حول الفكر الأوربى عن الإلهام الإلهى إلى الخبرة الإنسانية ، باعتبارها المصدر الوحيد للحقيقة وأساسها . ورحب برأى لوك فى انه يمكن تصور إن المادة يمكن تمكينها من التفكير وغصت بهذه العبارة بالذات حلوق رجال الرقابة الفرنسية ، وكان لها أثر كبير فى الحكم على الكتاب وادانته . ويبدو أنهم تنبأوا فيها بمادية لامترى وديدرو . ورفض فولتير ان يسلم نفسه إلى المادية ، ولكنه عدل عبارة ديكارت « أنا أفكر إذن أنا موجود » إلى « أنا جسم وأنا أفكر ولا شىء غير هذا » .

وأشارت الرسالة الرابعة عشرة على الفرنسيين أن يتخلصوا من ديكارت

الإنسان ، ولـكنه ارتاب فى أننا نستطيع من هذا الجهل أن نستنتج صدق قانون الإيمان المسيحى الذى جاء به الرسل . كما أنه لم يحس فى هذا العصر المرح المفعم بالحيوية بأى تعاطف مع تطلع بسكال إلى الراحة والدعة ، حيث نادى بأن الإنسان « خلق ليعمل . . . فعدم العمل وعدم الوجود سيان بالنسبة للإنسان (٢٤) » .

وليست « ملاحظات على أفكار بسكال » أفضل ما كان يمكن أن تجود به قريحة فولتير . إنه لم يكن قد أعدها للنشر ، ولم يكن لديه الفرصة لمراجعتها وتنقيحها . وقضت الأحداث اللاحقة — مثل زلزال لشبونه — على نضارة تفاؤله الفتى . وعلى الرغم من هذا الملحق غير المدروس وغير الجدير بالاعتبار ، فإن « الرسائل الفلسفية » كانت أحد المعالم البارزة فى الأدب الفرنسى والفكر الفرنسى . فهنا لأول مرة ظهرت الجمل الموجزة الدقيقة والوضوح المبين والذكاء المرح والتهكم اللاذع ، وأصبح كل هذا منذ الآن طابعا أدبيا مميزا يتجاوز ويتجاهل الحرص على إنكار اسم المؤلف . إن هذا الكتاب ، وكتاب الرسائل الفارسية حددا أسلوب النثر الفرنسى من عهد الوصاية إلى عصر الثورة . وفوق هذا فانها أحكمت حلقة من أقوى الحلقات فى الربط بين المفكرين الفرنسيين والإنجليز ، وهى كما قدر بكل « أهم حقيقة إلى حد بعيد فى تاريخ القرن الثامن عشر » (٢٥) إنها كانت بمثابة إعلان حرب ومخطط شن حملة . وقال روسو عن هذه الرسائل انها قامت بدور كبير فى إيقاظ عقله . ولا بد أن آلافا من شباب فرنسا دانوا لها بمثل هذا الفضل . وقال عنها لافاييت انها صيرته جمهوريا وهو فى التاسعة من عمره . ورأى هين « إنه لم يكن لزاما على رقيب المطبوعات أن يصادر هذا الكتاب حيث كان لا بد من قراءته بغير هذا الإجراء » (٢٦)

وأحست الكنيسة والدولة والملك والبرلمان أنهم لم يعودوا يطيقون صبراً على مثل هذه الجراح الكثيرة فى صمت ، فأرسل صاحب المطبعة إلى سجن الباستيل ، وصدر أمر سرى مختوم بالقبض على فولتير أينما وجد . وفى ١١ مايو ١٧٣٤ ظهر أحد رجال الشرطة يحمل أمرا بالقبض عليه . ولـكن من

المحتمل أن موبرتوى ودار جنتال كانا قد حذرا فولتير فغادر فرنسا قبل ذلك بخمسة أيام . وبناء على أمر من البرلمان فى ١٠ يونيه أحرق كل ما وجد من نسخ الكتاب بيد مأمور التنفيذ العام فى فناء قصر العدل باعتباره عملا شائناً ينافى الدين والأخلاق القوميــة ويتعارض مع الاحترام الواجب للسلطات العامة .

وقبل معرفة المركيزة دى شاتيليه بوصول فولتير سالما إلي اللورين كتبت إلى صديق لها : « أنا لا أطيق صبراً على مجرد علمى بأنه فى السجن وهو فى مثل هذه الصحة والعافية وقوة الخيال . وأنا لا أحبذ ذلك مطلقاً » . وأجمعت هذه السيدة و الدوقة دى بشيليو وغيرهما من السيدات ذوات المكانة الرفيعة أمرهن على العمل معاً للحصول على عفو عنه . ووافق حامل الاختام على إلغاء أمر القبض إذا أنكر فولتير تأليفه للكتاب . لكن تلك كانت خدعة لأنه علم علم اليقين أن فولتير هو المؤلف . وكان حامل الأختام هذا أحد موظفى الحكومة الذين لطفوا من حدة الرقابة من آخر بالأعضاء عما فى الكتاب من مآخذ . ووافق فولتير فوراً على إنكار أنه المؤلف . وهذه كذبة بيضاء من الممكن الصفح عنها بسهولة . فضلا عن أن الكتاب الذى برئ من تأليفــه وزع دون موافقتة . وكتب فولتير إلى الدوقة دى ايجوبون :

يقولون إنه يجب على أن أتراجع . . . بكل سرور . . سأعلن أن بسكال على حق دائماً وأن القساوسة مهذبون وديعون منزهون عن الغرض ، وإن الرهبان ليسوا متغطرسين ولا منصرفين إلى تدبير الدسائس ، ولا حقراء وأن محاكم التفتيش المقدسة هى انتصار للإنسانية والتسامح [٢٧] .

وألغى أمر القبض على شرط أن يبقى فولتير بعيداً عن باريس . فتنقل من قصر إلى قصر قرب حدود المدينة ورحب به النبلاء الذين لم يتمسكوا كثيراً بأهداف الدين، كما لم يميلوا مطلقاً إلى الحكومة الملكية المركزية المستبدة وتلقى دعوة بالإقامة فى بلاط هولشتين مع معاش قدره عشرة آلاف فرنك سنوياً ولكنه رفض [٢٨] وفى يوليه أوى إلى قصر مدام دى شاتيليه فى سيرى

فى شمبانيا . وهناك وهو الضيف الذى يتحمل نفقات عشيقته وروجها بدأ أسعد سنى حياته .

٣ - أنشودة الحب فى سيرى ١٧٣٤ - ١٧٤٤

سيرى الآن قرية عدد سكانها ٢٥٠ شخصاً فى مقاطعة المارن الأعلى فى شمال شرق فرنسا على بعد بضعة أميال من اللورين ، وصفتها مدام دنيس ابنة أخى فولتير ١٧٣٨ بأنها منعزلة موحشة على بعد أربعة فراسخ من العمران فى منطقة لا يرى المرء فيها شيئاً غير الجبال والأرض غير المزروعة [٢٩] وربما أحبها فولتير لأنها بقعة هادئة حيث يستطيع أن يتفرغ فيها للدراسة العلوم وكتابة التاريخ والفلسفة ، وتنساه الحكومة الفرنسية . أما إذا لاحقته فإنه يستطيع الانطلاق منها هربا إلى اللورين فى ظرف ساعة واحدة .

وكان القصر طللا متهدما من مخلفات القرن الثالث عشر . قلما أقام فيه آل شاتيليه ولم يكن يصلح للسكنى منذ أمد بعيد ، ولم يهتم المركيز باصلاحه ، أو لم يكن لديه المال لهذا الغرض ، فأقرضه فولتير ٤٠ ألف فرنك بفائدة قدرها ٥ ٪ للقيام بالاصلاحات اللازمة ولم يطالب المركيز قط بسداد هذا القرض . وأعدت بعض غرف شغلها فولتير ، وأمر ببناء جناح جديد ، وأشرف على ترميم بقية القصر . وفى نوفبر وصلت المركيزة ومعها مائتا حقيبة من الأمتعة ، وعدلت من إصلاحات فولتير بما يتناسب مع ذوقها الخاص ، وأقامت هناك - وهى التى كانت قضت معظم سنى شبابها بين الحاشية الملكية أو قريباً منها - منصرفة إلى الدراسة مع زوجها وعشيقها فى وقف معا . وأقام المركيز اللطيف معها ومع فولتير بين الحين والحين حتى ١٧٤٠ ، محتفظا لنفسه فى لباقة بشقة خاصة به وبمواعيد خاصة لتناول الطعام وحده . وبعد ذلك قضى معظم وقته مع كتيبته . وكانت دهشة فرنسا وإعجابها بكياسة الزوج أقل منها باخلاص العشيقين .

وفى ديسمبر عادت مدام شاتليه إلى باريس وزارت الدوقة رويشيليو فى معتقلها ، وأقنعت الحكومة بإلغاء الأمر باقصاء فولتير عن العاصمة (٢ مارس ١٧٣٥) فقصد إلى باريس وأقام فيها عدة أسابيع مع خليلته ،

ولكن ماضيه لاحقه . فإن أجزاء من شعره الفاجر كان يتناقلها الناس . ولم يتمالك هو نفسه قراءة بعض قطعه القوية على أصدقائه . كما نشر أحد الناشرين اللصوص « رسالة إلى أورانيا » . وكان فولتير قد كتبها قبل ذلك بخمس عشرة سنة . وقد هاجم فيها المسيحية ، فأنكر أنه مؤلفها بطبيعة الحال ولكنها كانت تحمل بصمات أسلوبه وفكره . ولم يصدق إنكاره أنه المؤلف ، فهرب ثانية إلى اللورين ، ومنها فى حيطة وحذر إلى سيرى . وتلقى من الحكومة تأكيدات عن طريق غير مباشر بأنه إذا ظل هناك دون أن يرتكب أية مخالفة أخرى فلن يعكر صفوه أحد . ولحقت به مدام دى شاتيليه مع ابنتها وابنها ومعلمهما ، وكان طفلها الثالث قد مات . وهنا أخيرا بدأ شهر عسل فلسفى .

وكان لكل من الفيلسوفين مجموعة غرف خاصة به على جانبى القصر . وكانت شقة فولتير تتكون من حجرة انتظار ومكتب ، مكتبة وحجرة نوم وكسيت الجدران بنسيج من المخمل الأحمر المنقوش ، وازدانت باللوحات التى اقتنى منها فولتير مجموعة ثمنة منها لوحة من رسم تيشيان وعدة لوحات من رسم تنيير . كما كان هناك تماثيل فينوس وكيوبيد وهركيوليز . ولوحة كبيرة لصديقها الجديد الأمير فردريك ولى عهد بروسيا . وعلى حد تعبير مدام جرافينى . كانت النظافة تامة فى هذه الحجرات إلى حد « يمكن معه تقبيل الأرض » [٣١] أما جناح المركيزة فكان مختلفاً عن هذا ذوقا : اللون الأصفر الفاتح واللون الأزرق الباهت مع لوحات من رسم فيرونيز وواتو ، وصورة السقف وارضيته من الرخام . ومائة من الصناديق والزجاجات الصغيرة والخواتم والمجوهرات وأدوات الزينة متناثرة هنا وهناك فى حجرة ملابسها الصغيرة . وبين مجموعتى الغرف كانت هناك قاعة كبيرة أعدت لتكون معملا للفيزياء والكيمياء . فيها منفخات هواء ومقاييس حرارة وأفران وبوتقات ومنظار مقرب (تلسكوب) ومجهر (ميكروسكوب) ومنشورات وبوصلات وموازين . وكان هناك عدة غرف للزوار ، لم تكن مؤثثه تأثيثاً جيدا . وعلى الرغم من القماش المنقوش على الجدران كانت رياح الغابات

تتسال إلى القصر من خلال الشقوق والنوافذ والأبواب . وكان لزاما لتدفئة هذا القصر إلى حد مقبول وجود ٣٦ مدفأة تستهلك فى اليوم الواحد ستة (كوردات) من الخشب (الكورد = ٢٨ قدما مكعبا من الخشب) . ويمكن أن نتخيل عدد الخدم اللازمين له ، أضف إلى ذلك مسرحا لأن فولتير كان يحب أن يمثل وبخاصة فى رواياته هو وإنه ليؤكد لنا أن المركيزة كانت ممثلة بارعة ، وكان الضيوف والمعلم والخدم يحيطون بشخصيات الرواية، ويغنوا بالأوبرا ، أحيانا لأن المركيزة (كما يؤكد فولتير مرة أخرى) كان صوتها ملائكيا . كما كان هناك عروض لمسرح العرائس وعروض بالفانوس السحرى ، قرنهـا فولتير بتعليقات أغرقت الحاضرين فى الضحك .

ولكن اللهو كان طارئا أما العمل فكان نظاما يوميا . وكان العاشقان عادة ، يعملان منفصلين كل فى نطاقه ، ولو أنهما تعاونا أحيانا فى العمل ، وقلما كان الواحد منهما يرى الآخر فى أثناء النهار إلا فى وجبة الطعام الرئيسية عند الظهر تقريبا . وكان المركيز يترك المائدة قبل أن يبدأ الحديث . وغالبا ما انسل فولتير أيضا إلى مكتبه تاركا الآخرين يتسامرون . وكان له هناك أدوات مائدته الخاصة به لأنه يتناول طعامه وحده أحيانا . وإنا لنرى فيه بحق محدثا متعاملا بالحيوية ، ويمكن أن يكون محط الأنظار ومبعث الحياة فى أى اجتماع يشهده ، ولكنه كان يكره الحديث التافه . وكان يقول « هذا الوقت الذى نقضيه فى الحديث يزعجنى كثيرا ويجدر بنا ألا نضيع دقيقة واحدة ، إن أكثر ما نضيع هو الوقت »[٣١] وكان يخرج أحيانا لصيد الغزال حبا فى الرياضة .

وجدير بنا ألا نصور الرفيقين الفلسوفين على أنهما ملاكان ، فيمكن أن تكون السيدة جافة مستبدة بل قاسية بخيلة بعض الشىء عنيفة مقترة مع خدمها وكانت تحتج إذا تقدم فولتير أجراً أكبر ، ولم يكن بها استحياء من شىء فى جسمها ، فلم تكن تأبه كثيرا لخلع ملابسها جميعا أمام سكرتيرهما لو نجشامب ، أو تكليفه بصب الماء الساخن عليها وهى فى الحمام . وكانت

تطلع خفية على الرسائل التى يكتبها ضيوفها أو ترد إليهم ، وليس لدينا دليل على هذا إلا شهادة سيدة أخرى [٣٣] أما فولتير فكان له مئات الأخطاء التى ستتكشف فى الوقت المناسب . كان شاعرا مزهوا وكان سريع الغضب والتجهم كأنه طفل ، وكثيراً ما هاجم عشيقته وتشاجر معها ، وما كان هذا الشجار على أية حال إلا سحب صيف تؤكد سادة أيامهما ، وسرعان ما كان فولتير يعود إلى هدرثه وابتسامته وابتهاجه . وما كان يمل الحديث عن سعادته وعن حبه لرفيقته بطريقته الحادثة . ونظم لها مائة قصيدة حب قصيرة كل منها تصوير بارع فى فن محكم . وكانت إحدى هذه الدرر الأدبية مع خاتم من حجر كريم نقشت عليه صورته : « بنقش يبرز هذه القسمات ليقع عليها بصرك . أنظرى إليها لتقرى عينا بها . أما صورتك فهى منقوشة فى أعماق قلبى بيد صناع أكثر حذقا وبراعة . [٣٤] » .

أما هى فقالت لا أطيق فراقه لمدة ساعتين دون أن يمزقنى الألم [٣٥] .

ومن بين العشيقين الفيلسوفين كانت هى أكثر انصرافا إلى العلم وانكبابا عليه منه . ونفذت قانون سيادة المرأة غير المسطور فى إخفاء مخطوطة كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » الذى لم يكمل بعد ، ووجهته بشدة إلى دراسة العلوم بوصفها الدراسة الحقة لرجل العصر الحديث . ووصفتها مدام دى جرانينى ، وكانت ضيفاً عليها فى ١٧٣٨ ، بأنها أكثر مثابرة على أبحاثها العلمية من فولتير ، حيث كانت تقضى معظم النهار وجزءاً كبيراً من الليل فى مكتبها . وفى بعض الأحيان حتى الساعة الخامسة أو السابعة صباحاً . [٣٦]
وكان موبرتوى يأتى من حين لآخر إلى سيرى ليتابع دووسه لها فى الرياضيات والفزياء . وربما كانت هذه الزيارات بالاضافة إلى إعجاب المركيزة السافر بسعة علم موبرتوى ، هى التى أثارت الغيرة فى قلب فولتير الشديد الحساسية ، فأدت إلى الملاكمة والشجار بينهما فى برلين .

وهل كانت دى شاتيليه عالمة باحثة حقاً ، أم أنها اتخذت من العلم سبيلا للأناقة ومجاراة مقتضيات العصر . ورأت مدام دى ديفان وبعض سيدات أخريات أن دراستها وأبحاثها كانت مجرد مظهر كاذب ، وزعمت المركيزة

دى كريكي « أن الجبر والهندسة اقتربا بها من حافة الجنون ، على حين أن تحذلقها وكلفها الشديد بموضوع دراستها جعلاها لا تحتمل . والواقع أن ذهنها تشوش بكل ما تعلمته أو عرفته [٣٧] ولكن استمع إلى مدام دى جرافينى وهى تصف لنا جلسة فى سيرى .

« فى هذا الصباح قرأت علينا ربة البيت عملية هندسية لمؤلف إنجليزى حالم ... وكان الكتاب باللغة اللاتينية ؛ وقرأته علينا بالفرنسية ، وترددت لحظة عند كل عبارة ، وكأنى بها تتفهم العمليات الهندسية ، ولكن لا ، إنها ترجمت بسهولة المصطلحات الهندسية والأرقام والألفاظ الغريبة ، ولم تتوقف فى شيء . ألا يثير هذا الدهشة حقاً ؟ [٣٨] .

وأكد فولتير لتيريو أن مدام دى شاتيليه كانت تعرف الانجليزية جيداً ، وأنها عرفت كل مؤلفات شيشرون الفلسفية ، وكانت مولعة جداً بالرياضيات والميتافيزيقا [٣٩]. وذات مرة بزت العالم الفيزيائى وعضو الأكاديمية دى ميران فى مناقشة عن الطاقة الحركية [٤٠] وقرأت شيشرون وفرجيل فى الأصل اللاتينى وأريستو وتاسو بالإيطالية ، ونيوتن بالانجليزية ، وعندما زار الجاروتى سيرى تحدثت معه بالإيطالية . وكتبت ولكن لم تنشر كتابا من ستة مجلدات عن دراسة « سفر التكوين » ، مبنية على أعمال الربوبيين الانجليز عرضت فيه للمتناقضات والأشياء البعيدة الاحتمال والأعمال غير الأخلاقية والأفعال الظالمة فى الكتاب المقدس . وكانت رسالتها عن السعادة بحثاً أصيلا عن أسس السعادة ، حيث رأت أن هذه الأسس هى الصحة والحب والفضيلة والانغماس الذاتى العقلانى ، ثم طلب العلم والمعرفة . وترجمت قوانين نيوتن من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأشرف على طبعها كليرو ، ونشرت بعد وفاتها بست سنوات (١٧٥٦) . وألفت عرضا موجزا لنظام العالم لشر فى ١٧٥٩ وأعلن فولتير ربما من قبيل الشهامة والود ، أنه يفوق كتابه « مبادىء فلسفة نيوتن » (١٧٣٨) [٤١] وعندما أعلنت أكاديمية العلوم (١٧٣٨) عن جائزة لأحسن بحث عن طبيعة النار وانتشارها ، ودخل فولتير المسابقة كتبت هى سرا البحث وقدمته دون ذكر اسمها ، وكتبته فى الليل لتخفيه عن فولتير (حيث أنى فى بحثى عارضت كل آرائه تقريبا [٤٢]) ولم يفز أى منهما بالجائزة التى حصل

أولر . ولـكن الأكاديمية طبعت مقاليهما ، وامتدح كل منهما مقال الآخر في نشوة الحب العقلي .

ومن أجل موضوعه هو . قام بعدة تجارب بعضها في معمله وبعضها في مسبك في شوموت المجاورة [٤٣] ودرس فولتير التكلس وكان قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف الأوكسجين[٤٤] . ونراه في مايو ١٧٣٧ يكتب إلى الراهب موسينو في باريس يطلب إليه كيميائيا للحضور إلى سيرى لقاء مائة جنيه سنويا مع الإقامة الكاملة . ولـكن كان على هذا الكيميائي أيضا أن يتلو القداس في أيام الآحاد والعطلات في كنيسة القصر [٤٥] . أنه من جانبه آمن الآن بالعلم وحده . وكتب في ١٧٤١ ينبغي أن نعتقد في صحة ما تكشف عنه لنا عيوننا وما تكشف عنه الرياضيات . أما فيما عدا هذا فيجلس أن أن نكتفي بالقول بأننا لا نعرف [٤٦] . فالفلسفة كانت تعني عنده آنذاك خلاصة العلم :

وبهذا المعنى استخدم فولتير هذا الاصطلاح في مؤلفه « مبادىء فلسفة نيوتن أملا في الترخيص الملكي بنشره ، ولـكنه لم يجب إلى طلبه ، وظهرت منه طبعة في أستردام (١٧٣٨) دون موافقته . وصدرت طبعته هو هناك في عام ١٧٤١ ،وكانت عبارة عن مجلد ضخم يضم ٤٤٠ صفحة، نموذجا رائعا لما يسميه الفرنسيون «دون تعمد الانتقاص من قدره» تبسيطا، أي محاولة لتيسير فهم العويص الصعب منه إلى أكبر حد ممكن . وأضاف المشرف على الطبع عنوانا فرعيا وضع ليكون في متناول الجميع . وغير الراهب ديفونتين هذا العنوان الفرعي في نقد غير ودي إلى « عويص على كل الناس» وعلى النقيض من ذلك امتدح الجميع الـكتاب بل أن اليسوعيين تقبلوه بقبول حسن في صحيفة تريفو [٤٧] . وهنا طردت الجاذبية الـكونية التي كشفها نيوتن دوامات ديكارت من أذهان الفرنسيين . وشمل كتاب فولتير عرضا لبصريات نيوتن ، وتحقق من التجارب في معمله الخاص ، وحاول إجراء تجارب أخرى من عندياته ، وحاد عن طريقه قليلا ، ليؤكد اتساق فلسفة

نيوتن مع الإيمان بالله . وفى نفس الوقت أكد شمولية القانون فى العالم المادى .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود لم يكن لفولتير روح رجل العلم ولا تحديداته وقيل أنه أخفق فى أن يكون رجل علم . وينبغى بنا أن نرجح القول بأنه كان شخصا ثريا متعدد الجوانب إلى حد لا يستطيع معه أن ينصرف إلى العلم كل الانصراف بصفة نهائية . أنه استخدم العلم وسيلة لتحرير العقل ، حتى إذا تم له ما أراد انصرف إلى الشعر والمسرحية والفلسفة بأوسع معانيها ، والانهماكات الانسانية فى الشئون الأساسية فى عصره «يجب أن نهيء الطريق فى حياتنا لكل أساليب المعرفة والوجدان ونفتح أمامها الأبواب لتنفذ إلى نفوسنا ، فإذا لم تتبدد هذه شذر مذر فإن هناك مكانا فسيحا لكل شيء[48]» وهكذا كتب فى ذاك الوقت (١٧٣٤) بحث فى الانسان ردد فيه إلى حد كبير آراء بوب فى نفس الموضوع ، حتى إلى درجة أجازة فكرة غير فولتيرية «كل شيء صواب[49]» . ونظم فى هذه السنوات معظم غادة أورليان (جان دارك) . وربما كان هذا انتجاعا لبعض الراحة من عناء نيوتن . وشرح فلسفته فى رسالة فى الميتافيزيقا . وقد رأى من الحكمة أن يحجم عن نشرها .

وكانت رسالة فذة مثل سائر انتاجه ، وبدأها بأن تخيل نفسه زائراً وافدا من كوكب المشترى إلى كوكب المريخ ، ومن ثم رأى أنه لا يتوقع منه أن يوفق بين آرائه وبين ما جاء به الكتاب المقدس . وحط رحاله بين كفار جنوب أفريقية . وينتهى إلى أن الانسان حيوان أسود الجلد شعره شبيه بالصوف ، ثم ينتقل إلى الهند ليجد أناسا صفر اللون ذوى شعر سبط غير مجعد ، فيستنتج أن الانسان جنس يتألف من عدة أنواع متميزة لا تنحدر كلها من أصل أو سلف واحد[50] ويحكم من مظاهر النظام فى العالم ومن التركيب الهادف ذى المعنى فى أعضاء الحيوان بأن هناك ربا ذكيا يصمم أو يركب صور الجميع . ولا يرى دليلا على وجود نفس خالدة غير فانية

فى الانسان ، ولـكنه يشعر بأن ارادته حرة . وقبل هيوم وآدم سميث بزمن طويل نرى فولتير يستمد روح الأخلاق من التعاطف بين الناس بعضهم مع بعض ، وقبـل هلفشيوس وبنتام بزمن طويل أيضا نرى فولتير يحدد الفضيلة والرذيلة بمـا هو مفيد وغير ضار بالمجتمع [٥١] وسنعود إلى هذه الرسالة فيما بعد .

وكم اختلفت هذه الرسالة عن الشعر المرح الذى نظمه فولتير فى تاريخ جان دارك وأنا إذا فتحنا هذه الملحمة الساخرة اليوم فلا بد لنا أن يقفز إلى ذاكرتنا أن الـكلام الفرنسى والأدب الفرنسى كانا أكثر تحررا آنذاك منهما فى النصف الأول من القرن العشرين . ولقد رأينا نموذجا فى الرسائل الفارسية للحاكم مونتسكيو ، بل أن ديدرو كان أكثر حرية لا فى الجواهر المنظومة فحسب ، بل فى جاك المؤمن بالقضاء والقدر كذلك . فإذا قورنت جان دارك بهذين الـكتابين كما نشرها أخيرا فولتير فى ١٧٥٦ ، لوجدناها معتدلة بشكل محمود . ومن المحتمل أن الأصل الذى جرى تداوله سرا كان أقرب إلى أسلوب رابيليه ، ودافع كوندرسيه الوقور الرزين عن القصيدة وروى أن مالشرب وهو أحد كبار موظفى الحكومة الفرنسية حفظها عن ظهر قلب [٥٢] ، ووجد فى القسم الحادى والعشرين من القصيدة بعـد بحث مجهد ، بعض أبيات معتدلة فى فسقها وشهوانيتها يمكن التجاوز عنها مثل الصور الشبيهة بها عند آريوستو ، وقد عوض عنها بقطع كثيرة تقدم وصفا رائعا وسردا بارعا ، وكان فولتير مثل كثير من الفرنسيين فى زمانه يرى فى جان دارك بنتا فلاحة بريئة ساذجة ، وربما كانت ابنه غير شرعية استسلمت للخرافات واعتادت سماع (الأصوات) ، وارتاب فى أن فرنسا كان لا بد أن تنقذ من الغزو الانجليزى حتى ولو لم تولد هى قط . وفيما عدا هذا ومع التسامح فى بعض الأخطاء التاريخية ، فإنه روى القصة بأمانة مع تمليحها ببعض الدعابه ومال الملك برأسه نحو جان الباسلة التى لا تهاب شيئا ، وقال فى صوت مهيب يرهبه الجميع إلا هى وحدها ، أنصتى إلى ياجان ، إذا كنت عذراء حقا فأقسمى اليمين ، فأجابت : مولاى العظيم ،

أصدر أوامرك الآن إلى الأطباء الحكماء الخبيرين بأسرار النساء ونظاراتهم على أنوفهم، ورجال الدين والصيادلة وكبيرات الممرضات الخبيرات ليجتمعوا على الفور للفصل فى الأمر، فليدققوا النظر ويروا ومن هذا الجواب الحكيم عرف شارل أنها لا بد أنها ملهمة تلقت وحيا، وأنها تتمتع بنعمة العذوية المقدسة المباركة، ثم قال الملك حسنا يا ابنة السماء، ما دمت تعرفين كل شىء فأخبرينى ماذا حدث بينى وبين زوجتى فى الفراش فى الليلة الماضية؟ أتوسل إليك تحدثى بصراحة. فقالت جان لا لم يحدث شىء. فدهش الملك وركع وصاح بصوت عال: أنها معجزة، ثم رسم علامة الصليب وانحنى احتراما واجلالا [٥٣].

وقرأ فولتير على ضيوفه مقطعاً أو مقطعين من جان دارك رغبة فى تسليتهم، وليبعث الدفء فى أمسيات الشتاء الباردة. وكانت مدام دى شاتيليه تحتفظ بالمخطوطة الضخمة فى خرز أمين، وسمح فولتير فى استخفاف وإهمال بتداول بعض الأجزاء بين أصدقائه ونسخ بعضها وتناقلها المجتمع غير المهذب على نطاق أوسع مما كان من الحكمة أن يكون. وكان الخوف من أن تقاضيه الحكومة الفرنسية — لا بسبب فحش القصيدة بل بسبب الهجاء اللاذع فى بعض أجزائها للرهبان واليسوعيين والأساقفة والبابوات ومحاكم التفتيش — من بواعث القلق والهموم التى أقضت مضجعه وعكرت عليه صفو حياته.

وكان فولتير أكثر جدية ووقارا فى الزير Alzire « التى بدىء بعرضها بشكل يدعو إلى السعادة والابتهاج على المسرح الفرنسي فى ٢٧ يناير ١٧٣٦. وحققت التاريخ المسرحى بارتداء الممثلين الثياب التى كانت سائدة فى الزمان والمكان المحددين لأحداث الرواية — الغزو الأسبانى لدولة بيرو وسلبها ونهبها. ويتوسل الفاريت الحاكم الأسبانى للبلد المغلوب على أمره إلى المنتصرين أن يضعوا حداً لقسوتهم وجشعهم فيقول « نحن سوط العذاب الذى انصب على هذه الدنيا الجديدة، نحن عابثون جشعون ظالمون . . . نحن المتبربرون وحدنا هنا أما المتوحشون السذج البسطاء، ولو أنهم عنيفون

بطبيعتهم . فانهم شجعان بواسل مثلنا ، ولـكنهم يفوقوننا فى الميل إلى الخير وطيبة النفس [٥٤] . وصفقت باريس لهذه الرواية لمدة عشرين ليلة متوالية ودفعت ٥٣٦٤٠ جنيها ، وتنازل فولتير عن نصيبه من دخـــل الرواية للممثلين .

وفى ٨ أغسطس ١٧٣٦ تلقى فولتير أول رسالة من فردريك ملك بروسيا ، ومن هنا بدأت مراسلات مشهورة وصداقه فاجعة . وفى نفس العام نشر قصيدة « الرجل الدنيوى » وكأنما كانت رداً مسبقاً على رسالة روسو « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥١) أن فولتير ضاق ذرعاً بالحالمين الواهمين الذين يضفون المثالية على الإنسان البدائى غير المتمدن الودود الصاعد « أو يحبذون الرجوع إلى الطبيعة » هربا من الانفعال وتوتر الأعصاب والنفاق والخداع فى الحياة الحديثة . إنه هو نفسه كان مستريحاً وسط ما يعانى من بلايا ومحن ، ورأى أنه كان لزاماً عليه أن يقول كلمة طيبة فى المدنية انصافاً لها . إنه لم يجد أية فضيلة أو ميزة فى الفقر ، أو أى انسجام بين الجرائيم والحب وربما كان البدائيون شيوعيين ، وهذا فقط لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً . وإذا اتسموا بالاعتدال والقصد والرزانة فما ذاك إلا لأنهم لم يكن لديهم خمور « وأنا من جانبى أحمد للطبيعة الحكيمة أنها من أجل سعادتى أنجبتنى فى هذا العصر الذى يحط من قدره نقادنا الذين تعروهم الكآبة والانقباض . إن هذا الزمن الدنس ملائم كل الملاءمة لحياتى فأنا أحب الترف والبذخ بل الحياة الناعمة وكل الملذات والفنون على اختلاف أنواعها ، والنظافة والذوق والزينة والزخرفة وبدا له كل هذا مفضلا لديه بشكل واضح على جنات عدن « أبى العزيز آدم ، اعترف أنك ومدام حواء كانت لـكما أظفار طويلة سوداء بما فيها من أقذار ، وان شعره كما كان أشعث أغبر إلى حد ما . . . . وعبثا حاول العلماء أن يعينوا مكان جنة عدن . . . إن جنة الأرض هى التى أعيش فيها أنا الآن .

ولم ترق فى أعين رجال الدين الصورة التى رسمها فولتير لآدم وحواء، وأصروا على أن سفر التكوين تاريخ صحيح ، ولم يقروا فولتير على ما جاء

به عن أظافر آدم وشعر حواء ، وتعالت الأصوات مطالبة بالقبض على شيطان سيرى الكافر . وحذره الأصدقاء مرة ثانية ، فاعتزم الرحيل . وفى ٢١ ديسمبر ١٧٣٦ غادر سيرى واميلى ، قاصدا بروكسل متنكرا فى زى التاجر ريفول . وسخر المعجبون به هناك من تنكره ومثلوا مسرحية آلزير تكريماً له . وحذر جان بابتست أهل بروكسل من أن فولتير جاء إليهم ليبشر بالإلحاد ، فانتقل إلى ليدن حيث احتشدت الجماهير لرؤيته ، ثم إلى امستردام حيث أشرف على طبع كتابه عن نيوتن ، وساور المركيزة آنذاك الخوف من أنه لن يعود إليها مطلقاً ، فكتبت إلى دار جنتال : « منذ اسبوعين فقط كنت أتعذب لعدم رؤيته لمدة ساعتين اثنتين ، وكنت أكتب إليه من غرفتى إلى غرفته ، ومضى الآن أسبوعان لا أعرف أين هو ولا أعرف ماذا يفعل . . . أنا فى حالة يرثى لها » وأخيراً عاد (مارس ١٧٣٧) وهو يقسم أنه لولا حبه لها لما أقام فى فرنسا التى تلاحقه وتطارده على هذا النحو .

وفى مايو ١٧٣٩ عاد العشيقان إلى بروكسل حيث استخدم فولتير كل مواهبه القانونية وغيرها فى قضية تتعلق بممتلكات المركيزة . ثم قصد هو وزوجها إلى باريس حيث قدم فولتير روايتى محمد وميروب إلى مسرح الكوميدى فرانسيز ، وحيث رأت السيدة شاتيليه فى المطبعة مجلداتها الثلاثة عن « قوانين الفيزياء » وفى هذه الدروس « تهربت من فولتير ونيوتن كليهما مؤثرة عناصر الوجود الأولية فى فلسفة ليبنتز . وفى سبتمبر عادوا إلى سيرى ، ثم قصدوا بعدها إلى بروكسل لاقامة طويلة ، ومنها فى سبتمبر ١٧٤٠ أسرع فولتير إلى كليف Cleves لأول لقاء له مع فردريك ، وكان قد أصبح ملكا ، ورفض أن يدعو إميلى معه . وفى نوفمبر قطع مسافة ١٥٠ ميلا مرهقة قاصداً برلين ليقوم بمهمة دبلوماسية للكاردينال فلبرى ، وسنعود إلى تفصيل هذه المهمة فيما بعد . وذهبت اميلى فى نفس الوقت إلى فونتنبلو حيث بذلت جهداً كبيراً فى الحصول على إذن لفولتير بالإقامة فى باريس ، وواضح أن سيرى أصبحت عبئاً لا يطاق . وفى ٢٣ نوفمبر

كتبت إلى دارجنتال : لقد لقيت جزاء سنمار على كل ما فعلت فى فونتنبلو ، لقد ذللت كل العقبات ، وحصلت لفولتير على حق العودة إلى بلده دون قيد أو شرط ، ووفقت بينه وبين الوزارة ، ومهدت الطريق لقبوله فى الأكاديمية ، وصفوة القول أنى فى ثلاثة أسابيع أستطعت أن أعيد إليه كل ما فقده فى ستة أعوام . فهل تعلم كيف كافانى على مثل هذا الاخلاص والغيرة ؟ أنه أبلغنى فى رسالة جافة أنه قصد إلى برلين ، وهو يعلم علم اليقين أنه يحطم قلبي ويعذبنى عذابا لا يوصف ... لقد انتابتنى الحمى . . . وآمل أن أفارق الحياة وشيكا ... وهل تصدق أن الفكرة التى تستبد بعقلى حين أحس بأن الحزن سيقتلنى ، هى فكرة الأسى العميق الذى ينتاب فولتير لموتى ؟... أنى لا أطيق أن أفكر فى أن ذكراى سوف تسبب له يوما الشقاء والألم ، ويجدر بكل الذين أحبوه أن يكفوا عن لومه .

وانتزع فولتير نفسه من جو النفاق الملكي ليلحق بعشيقته ، وفى طريق عودته بعث إلى فردريك برسالة يوضح فيها وجهة نظره فى الموضوع :

« إنى أترك ملكا عظيما يكرم ويشجع فنا أعجب به إلى حد التأليه ، لألحق بسيدة لا تقرأ شيئا إلا ميتا فيزيقا وولف المسيحى (شارح ليبنتز) . أنى أنتزع نفسى من أعظم حاشية أمتاعا وإيناسا فى أوربا من أجل قضية قانونية . أنى لم أترك حاشيتك الفاتنة الجديرة بالحب لأتنهد وأتأوه مثل أحمق معتوه بين يدى امرأة ، ولكن هذه المرأة يا مولاى هجرت من أجلى كل شىء ، مما يتخلى سائر النساء عن أصدقائهن من أجله . أننى أسير فضلها فى كل شىء أن الحب غالبا ما يكون سخيفا مضحكا ، ولكن الصداقة الخالصة والود الصافى لهما حقوق يرتبط المرء أكثر مما يرتبط بأوامر الملك (٥٦) .

والتقى ثانية باميلى فى بروكسل التى أصبحت بلدهما الثانى بسبب طول الاجراءات فى قضيتها . وفى مايو ١٧٤١ شهدا العرض الأول لرواية محمد فى ليل ، ولقيا ترحيبا حماسيا . وعادا إلى بروكسل مزهوين مبتهجين ، ولكن عكر صفوهما شعور بأن جذوة الغرام قد بدأت تنطفئ . وكان حبها

لا يزال قويا . ولو أن جوهر هذا الحب كان الرغبة فى التسلط والسيطرة . ولكن شعلة الحب عند فولتير بدأت تتحول إلى قلمه . وفى يولية ١٧٤١ اعتذر لها عن غيرته التى أخذت تذوى وتذبل : « إذا وددت أن أستمر على الحب فعليك أن تعيدى إلى مسافات من زمان الحبيبين ، أعيدى إلى إذا كان فى مقدورك ، فجر الحياة ، وهى فى غسق المساء ، نحن نموت مرتين ، وأنا الحظ هذا جيدا . إنه موت لا يطاق أن نتوقف عن الحب ونحن جديران به ، أما توقف الحياة نفسها فهو أمر تافه لا قيمة له » .

وفى أغسطس ١٧٤٢ قصدا إلى باريس ليشهدا العرض الأول لرواية « محمد » فى المسرح الفرنسى . وكان فولتير قد سعى للحصول على إذن رسمى من الكاردينال فلبرى بتمثيلها ، فأجابه إلى طلبه . وكان هذا العرض الأول (١٩ أغسطس) الحدث الأدبى لذاك العام ، وشهده كثير من الحكام ورجال الدين والشعراء بالإضافة إلى الجمهور الذى اكتظ به المكان . وبدا أن الجميع راضون عن المسرحية باستثناء نفر من رجال الدين الذين زعموا أن الرواية ليست إلا « هجوما عنيفا على المسيحية » وانضم فريرون وديفونتين وغيرهم إلى هذه الشكوى . وعلى الرغم من أن الكاردينال أحس بأن هؤلاء النقاد يسيئون إلى قضيتهم ، فإنه بعث إلى فولتير برسالة سرية ينصحه فيها بسحب الرواية ، وتم هذا بعد العرض الرابع من إقبال شديد على الرواية . وعاد فولتير واميلى أدراجهما إلى بروكسل ، وقد استبد بهما الغضب لخيبة أملهما .

وهل كانت رواية « محمد » هجوما على المسيحية ؟ ليس الأمر إلى هذا الحد . أنها كانت تهاجم التعصب الأعمى والتزمت ولكنها صورت الرسول فى صورة غير ودية ربما أثلجت صدرور المسيحين الأبرياء من التاريخ ومن سوء النية فيه . أنه صور الرسول مخادعا تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل أيمانهم فى استثارة هممهم فى القتال ، ويغزو مكة ، بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذى يقاوم هذا الغزو وعند ما يتردد سعيد يؤبه محمد فى عبارات بدت

لبعض المتحمسين وكأنها تعريض برجال الدين المسيحيين : فهو يقول : «وأنت أيضا تتردد ؟ أنها الشباب الجرئ ، إنه لمما يتنافى مع الدين أن تتردد . إن الذين يستخدمون عقولهم لا يميلون إلى الأيمان . بمحمد ، إن عليك ن تمتثل . إن إرادة الله تقضى بذلك . ألا تعلمون أن إبراهيم الخليل ولد هنا وأن جثمانه الطاهر يرقد هنا ، وهو الذى امتثل لصوت الله وأخمد صيحات الطبيعة بين جنبيه ، وتخلى عن ولده العزيز !! أن الله العلى القدير نفسه هو الذى يطلب إليكم أن تضحوا ، ويهيب بكم أن تنفروا إلى القتال ، ومن ذا الذى يتجرأ فيتردد فى تنفيذ أمر الله إذا دعاكم إلى القتال ؟ فاضربوا إذن فوق الأعناق . أن دم الشيخ زبير يخولكم النعيم المقيم فى الدار لآخرة [٥٨] (*) .

ويقتل سعيد الشيخ العجوز الذى يتبين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن القاتل ابنه . وهذا بطبيعة الحال هجوم من فولتير على استخدام الدين ذريعة لسفك الدماء واشعال نار الحرب . وهذا ما قصد إليه فولتير . وفى رسالة إلى فردريك ضرب أمثلة لجرائم ارتكبت بأسم الدين ، منها قتل وليم أورانج وهنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا . ولكنه أنكر أن المشرحية هجوم على الدين ، بل أنها دعوة إلى استمساك المسيحيين بمبادىء المسيحية الحقة .

وفى سبتمبر ١٧٤٢ واساه الكردينال فليرى بإيفاده إلى فردريك ليحاول توجيه سياسته إلى الصداقة مع فرنسا . وقصد فولتير مزهوا بدبلوماسيته لزيارة الملك فى آخن . وتبين الملك أهدافه ومراميه ، فرد على حديثه السياسى شعرا ، وأعاد فولتير إلى باريس مع عشيقته أميلى والمسرحية . وفى ٢٠ فبراير ١٧٤٣ أخرجت على الكوميدى فرانسيز أعظم رواياته ميروب حيث لاقت نجاحا أخرس ألسنة أعدائه بعض الوقت .

---

(١) أثبتنا هنا ما ورد فى الأصل الانجليزى من رواية فولتير . وواضح أنه أبعد ما يكون عن جوهر الإسلام وتاريخه الصحيح ومشروعية القتال . ولكنا حرصنا على الأمانة فى النقل . (المترجم)

وكانت عدة مسرحيات قد كتبت بالفعل فى نفس الموضوع ، منها مسرحية يوريبيدس التى لم يبق منها إلا شذرات قليلة وفى خطاب تمهيدى أقر فولتير بالفضل والعرفان لمركيز فرانشسكو سبيون دى مافى (وهو من فيرونا) الذى كان قد أخرج ميروب فى ١٧١٣ . وكانت هذه المسرحيات تتميز بتحول الاهتمام فيها إلى حب الوالدين لا إلى الحب الجنسى ويروون أن معظم الحاضرين سالت دموعهم فى المشهد الأخير . ولأول مرة فى تاريخ المسرح الفرنسى تعالت الأصوات تنادى بظهور المؤلف على خشبة المسرح ، وقيل إنه وافق وبذلك أوجد سابقة أسف لها لسنج أشد الأسف . وطبقاً لبعض المصادر الأخرى يقال أن فولتير رفض الظهور على المسرح على الرغم من حث الدوقتين اللتين جلس فى مقصورتهما ، وكل ما فعله أنه نهض واقفاً فى مكانه لحظة رداً على التحية[٥٩] ، وحكم فردريك بأن هذه المأساة من أحسن ما كتب من مسرحيات[٦٠] . وذهب جيبون إلى أن الفصل الأخير يضارع أى فصل فى مسرحيات راسين[٦١] .

وقلل من قيمة نجاح « ميروب » اخفاق فولتير فى الفوز بمقعد فى الأكاديمية الفرنسية . إنه سعى له سعيا متواصلا إلى حد أنه أعلن نفسه كاثوليكيا حقاً ومؤلف عدة أبحاث أقرتها الكنيسة [٦٢] . وأيده لويس الخامس عشر فى بداية الأمر ولكن وقف فى طريقه وزيره الجديد موريباس الذى احتج بأنه لا يليق أن تشغل نفس شريرة دنسة المقعد الذى خلا بوفاة الكاردينال فليرى . وشغل المقعد أسقف ميربوا . واستحث فردريك فولتير أن يترك البلد الذى لا يلقى فيه عباقرته سوى هذا القدر الضئيل من التكريم ، ويحضر ليقيم معه فى بوتسدام . فاعترضت مدام دى شاتيليه وأشارت عليه الحكومة الفرنسية بقبول الدعوى لبعض الوقت والقيام بعملية التجسس فى برلين . وهفت نفسه إلى الاشتغال بالسياسة ، فقبل الدعوى وقام ثانية بالرحلة المرهقة راكبا عبر فرنسا وبلجيكا وألمانيا ، وقضى فى هذه المغامرة ستة أسابيع (٣٠ أغسطس — ١٢ أكتوبر ١٧٤٣) ومرة أخرى سخر فردريك من سياسته وامتدح شعره ، وعاد فولتير إلى اميلى

فى بروكسل . وفى أبريل ١٧٤٤ استأنفا مقامهما فى سيرى محاولين بعث غرامهما الميت إلى الحياة من جديد .

وفى «رسالة السعادة» كانت المركيزة ترى أن الرغبة فى المعرفة هى إحدى الرغبات التى تسهم أكبر اسهام فى سعادة الإنسان لأنها تجعلنا أقل اعتمادا بعضنا على بعض ومع ذلك تقول عن الحب : « إنه أعظم الأشياء الطبيعية التى هى فى متناول أيدينا ، وهى الشىء الوحيد الذى نضحى من أجله بلذة الدرس والتحصيل . والمثل الأعلى فى هذا المجال شخصان يفتتن الواحد منهما بالآخر إلى حد لا تفتر معه عواطفهما ولا تصاب بالتخمة أبدا ، ولكن لا يمكن لإنسان أن يأمل فى مثل هــذا التآلف والانسجام بين شخصين ، لأن هذا شىء يفوق حد الكمال . فالقلب الأهل لمثل هذا الحب والنفس الوقية بالمحبة إلى هذا الحد يجوز أن تخلق مرة واحدة كل قرن من الزمان [٦٣] .

وفى رسالة مؤثرة لخصت تخليها عن هذا الأمل :

« قضيت عشرة أعوام سعدت فيها بحب الرجل الذى غزا قلبى . وقضيت هذه الأعوام العشرة فى ارتباط وثيق به . . . وعندما انتقص امتداد العمر والمرض من تعلقه بى لم ألحظ هذا إلا بعد مرور فترة طويلة . إنى أحببته لسببين ، قضيت حياتى كلها معه واستمتع قلبى الواثق بنشوة الحب ، بالإضافة إلى توهمى أننى أيضا جديرة بالحب ، وأفلت من يدى هــذا الظرف السعيد [٦٤] .

وماذا حول فولتير من الحب والهيام إلى هذا الوفاء المتقطع ؟ ويبدو أنه كان صادقا فى التذرع باعتلال صحته . ولكنا سنجده فى بحر عام واحد يتأوه ويتنهد كالمعتوه بين يدى امرأة » والحق أنه كان قد استنزف جانبا من حياته واهتمامه — مدام دى شاتيليه والعلم . إن العزلة فى سيرى ربمــا أورثت السأم والملل بسرعة ذهنا يافعا . ولم تكن نعمة وبركة إلا عند ملاحقة الشرطة له ؛ وعندما كان يدعوه العلم إلى التفرغ له ، ولكنه كان آنذاك قد تذوق ثانية ملذات باريس ومباهجها ، واستمتع بمشاهدة افتتاح

مسرحياته . بل كان يلعب دورا فى السياسة القومية ، وأحس بسحر الحاشية ولو من بعيد . وأصبح صديقه المركيز دارجنسون الوزير الأول ، كما أصبح صديقه ومدينه الدوق دى ريشيليو الأمين الأول للملك . وكان لويس قد رق له ولأن جانبه . وفى ١٧٤٥ كان الدوفين على وشك أن يتزوج من الأميرة الأسبانية ماريا تيريزا رافاييلا . ولا بد أن تقام احتفالات ضخمة لهذا الغرض ، فكلف ريشيليو فولتير بكتابة مسرحية لهذه المناسبة . وكان على رامو أن يكتب الموسيقى ، فيتعاون الملحن والشاعر فى العمل معا ، وكان لزاما أن يحضر فولتير إلى باريس ، وفى سبتمبر ١٧٤٤ ودع العاشقان سيرى وانتقلا إلى العاصمة .

٤ - رجل البلاط : ١٧٤٥ - ١٧٥٨

بلغ فولتير آنذاك سن الخمسين وكان لوقت غير قصير يحتضر فى كل عام مرة . وكتب إلى تيبريو فى ١٧٣٥ « من المؤكد أنه ليس أمامى إلا سنوات قليلة أعيشها »(٦٥) . وكان قد بلغ آنذاك الحادية والأربعين ، وكان أمامه ثلاث وأربعين سنة أخرى ، فكيف تسنى له هذا ؟ عندما انتابته علة خطيرة فى شالون فى أعالى المارن (١٧٤٨) ، ووصف له أحد الأطباء بعض الأدوية ، قال فولتير ، كما يروى سكرتيره ، إنه لن يتبع شيئا من هذه التعليمات ، لأنه يعرف كيف يعالج نفسه فى أيام الصحة والمرض على حد سواء . وسيظل طبيب نفسه كما كان دائما . وفى مثل هذه الأوقات كان فولتير يصوم لبعض الوقت ، ثم يأكل قليلا من الحساء الرقيق والخبز المحمص والشاى الخفيف والشعير والماء . ويستطرد سكرتيره لو نجشامب فيقول : « تلك هى الطريقة التى عالج بها فولتير نفسه فبرىء من سقمه الذى ربما أدى به إلى نتائج خطيرة لو أنه أسلم نفسه إلى أطباء شالون . كان مبدؤه أن صحتنا تتوقف علينا نحن ، وركائزها الثلاث هى القصد فى الطعام والشراب وضبط النفس والاعتدال فى كل شىء ، والتمرينات والرياضية البسيطة . ففى كل الأمراض التى لا تكون نتيجة لأحداث خطيرة أو تكون لخلل أساسى فى أعضاء الجسم الداخلية ، يكفى أن تساعد الطبيعة التى

تسعى جاهدة فى شفائنا ، وأن نلتزم فى الغذاء بنظام دقيق لفترة طويلة إلى حد ما ، فنتغذى على السوائل المناسبة والأغذية الخفيفة الأخرى . ورأيته دائما يلتزم بهذه القاعدة طيلة وجودى معه[٦٦] .

وكان بارعا مثل رجال المصارف فى إدارة أمواله واستثمارها . وكان مستوردا وشاعرا ومقاولا وكاتبا مسرحيا ورأسماليا وفيلسوفا ومقرضا للنقود وصاحب معاش ووارثا . وساعده صديقه دارجنسون على جمع ثروة من تموين الجيش[٦٧] ، وكان قد ورث جزءا من ثروة أبيه وترك له موت أخيه أرمان (١٧٤٥) دخل بقية أملاك أبيه . وأقرض الدوق ريشيليو ودوق دى فلبار والأمير دى جيز وسيرهم مبالغ كبيرة ، ووجد عناء كبيرا فى استرداد الديون ، ولكنه عوض عنها بالأرباح[٦٨] . وفى ١٧٣٥ كان ريشيليو مدينا له بمبلغ ٤١٧ ر٤٦ من الجنيهات دفع عنه الدوق أرباحا سنوية قدرها ٤٠٠٠[٦٩] جنيه » وفى حالة مسيودى بريزى غير الموثوق به كان فولتير يطلب فائدة قدرها ١٠ ٪ ، واستثمر فولتير أكثر أمواله فى سندات مدينة باريس التى تدر ربحا قدره ٥ ٪ أو ٦ ٪ . وكثيرا ما أعطى تعليماته إلى وكيله للالحاح على مدينيه بالسداد : « أنه من الضرورى يا صديقى أن تطالب مرة ومرتين وتلح وتراقب وتلحف فى الطلب — ولكن لا تعذب المدينين من أجل إيرادى السنوى ومتأخراتى[٧٠] » وفى ١٩٧٩ قدر سكرتير فولتير أن دخله السنوى بلغ ٨٠ ألف جنيه[٧١] . ولم يكن فولتير ينبش الأرض بحثا عن المال ، ولم يكن بخيلا مقترا ، وكثيرا ما منح الأموال وقدم سائر المساعدات لشباب الطلبة ومد يد المعونة قولا أو فعلا إلى فوفينارج ومارمونتل ولا هارب . وقد رأيناه يتنازل عن عائدات رواياته للممثلين ، وعند ما ضاع عليه أربعون ألف جنيه بسبب افلاس ملتزم عام كان قد أقرضه المبلغ واجه الأمر فى هدوء ، ولم يثر أو يغضب . وذكر العبارات التى تعلمها فى صغره «أعطانا الله ، وأخذ الله فليتقدس اسم الله » .

ولو أن فولتير أوتى مالا أقل ليستغله ويعنى به ، وكان أكثر بدانة أو اكتنز لحما أكثر فوق عظامه ، فلربما كان أقل حساسية وعصبية وأقل نزقا

وانفعالا . وكان كريما حذرا حريصا على مشاعر الناس وحقوقهم . وكان عادة مرحا ودودا طلق المحيا مفعماً بالحيوية والنشاط ، وكان أهلا للصداقة الحميمة الوثيقة . وما أسرع ما كان يغتفر أية اساءة لا تجرح كبرياءه ، ولكنه لم يكن يحتمل فى صبر أى نقد أو عمل عدائى (وكان يقول أنى أحسد الحيوانات على شيئين ، جهلها بما قد ينتابها من مصائب بما يقال عنها[٧٢]) وأثار ذكاؤه الحاد حفيظة كثير من الأعداء ، فحمل عليه فريرون وبيرون وديفونتين وهاجموا آراءه فى عنف أشد من عنف رجال الدين فى مهاجمته . ولسوف نسمع منهم شيئا فشيئا . ورد عليهم فولتير الضربات بمثلها على الرغم من نصح مدام شاتيليه له بالتزام الصمت ، ووجه إليهم أقذع السباب والشتائم ، وجند أصدقاءه لشن الحملات عليهم . وكم وجدت المركيزه مشقة فى منعه من الذهاب إلى باريس ليعنف ديفونتين أو يتحداه ، بل أنه فكر فى مناشدة الرقابة أن يحظر نشر ما يكتبه ألد أعدائه . لقد كان فى فولتير كل شوائب مناقبة ومزيد من الشوائب .

ووجد فولتير فى رامو (الموسيقار) شخصا نزقا مزهوا سريع الغضب مثله . وكان تعاونهما فى العمل امتحانا قاسيا لكل منهما ؛ ولكن أخيرا اكتمل نص الأوبرا والموسيقى وقام الممثلون والموسيقيون بعمل تجربة للرواية . وفى ٢٣ فبراير ١٧٣٥ عُرضت « أميرة نافار » — ولقيت ما كان مقدرا لها من نجاح . وبعد ذلك بشهر خصصت لفولتير حجرة فى فرساى تقارب ما وصفه فى رسائله الخاصة بأنها « أقذر حجره فى فرساى » وتبوأت مركيزة شاتيليه من جديد فى الحاشية مكانها الذى كانت قد ضحت به من أجل فولتير . وحصلت آنذاك على الامتياز المذهل وهو الجلوس فى حضرة الملكة . وكان فى صعود نجم مدام دى بمبادور تدعيم لمركز فولتير فقد تعرف عليها حين كانت مدام دتوال ، وزارها فى دارها ، وكتب فى مديحها شعرا تافها ، وبناء على الحاح منها عينه الملك (أول ابريل) مؤرخ الملك براتب قدره ألفى جنيه فى العام .

وسرعان ما اقتضت الظروف أن يثبت جدارته ووجوده . ذلك أنه فى ١١ مايو ١٧٤٥ هزم الفرنسيون الانجليز فى فونتنوى فطلب دار جنسون قصيدة

غنائية تخلد هذا الانتصار . ونظم فولتير ٣٥٠ بيتا من الشعر فى ثلاثة أيام طبعت خمس طبعات على مدى أسبوعين . وأحب الملك فولتير افترة وجيزة ، وأصبح فولتير شاعر حرب . وزيادة فى تخليد ذكرى النصر كلف فولتير ورامو باعداد أوبرا المهرجان . وأبرزت أوبرا « معبد المجد العظيم » أى تراجان — أى لويس الخامس عشر — عائدا من المعركة ظافروا منتصرا ، وخصص لفولتير فى تلك الأمسية مكان على مائدة الملك ، وأكلا معا طعاما شهيا ، ولكن فولتير سأل ريشيليو فى لهفة : هل تراجان راض ؟ ولكن الملك سمعه مصادفة ورأى أنه وقح جرىء بعض الشىء فلم ينبس إليه ببنت شفه .

وثمل فولتير بمزيج من الشهرة والانتساب إلى الحاشية الملكية ، فبدأ حملة جديدة للانضمام إلى مجمع الخالدين (الأكاديمية الفرنسية) ولم يأل أى جهد فى تحقيق مأربه . وفى ١٧ أغسطس ١٧٤٥ أرسل نسخة من رواية « محمد » إلى البابا بندكت الرابع عشر ، يسأله أن يهديها إليه . وفى ١٩ سبتمبر رد البابا اللطيف : سعدت الليلة الماضية بروايتك « محمد » التى قرأتها بشغف وسرور عظيم . وإنى لأقدر مواهبك أكبر التقدير ، وهذا أمر يعترف به الجميع ... وأنى لأكبر كل الأكبار نبلك واخلاصك ... وإنى هنا أمنحك بركتى الرسولية (٧٣) » .

واغتبط فولتير بهذا الوسام أيما اغتباط حتى أنه كتب إلى البابا تقديرا حارا ختمه بقوله : بكل اجلال وتقدير واحترام أقبل قدميك المقدستين (٧٤) وأعلن إلى باريس تمسكه بالمذهب الكاثوليكى وإعجابه باليسوعيين ، وأطنب فى مدائحه لمدام بمبادور والملك . وتوسلت بمبادور إلى الملك وقبل الملك رجاءها . وأخيرا فى ٩ مايو ١٧٤٦ وافقت الأكاديمية على انضمام أمير الشعراء فى هذا العصر والكتاب المسرحيين فيه إليها . وزيادة فى تكريمه وتدعيم مركزه عين فى ٢٢ ديسمبر موظفا فى الحاشية الملكية مخصصا للقيام على شئون الملك .

وربما تسنى له فى أيام النجاح والعيش الرغيد هذه أن يكتب رواية « بابوك أو الدنيا كما هى » وبابوك رجل من سكيزيا (إقليم قديم فى جنوب شرقى أوربا وجنوب غربى آسيا) يجول ليرى الدنيا ، وبخاصة كيف تسير الأمور فى فارس (أى فرنسا) وأصابه الذهول والفزع لما رأى من الحروب والفساد السياسى وشراء الوظائف وجباية الضرائب وثراء رجال الدين . ولكن ترحب به سيدة (مدام دى بمبادور) استماله جمالها وثقافتها وكياستها إلى « المدنية » ويرى بابوك هنا وهناك بعض مظاهر الكرم ونماذج للأمانة . ثم يزور رئيس الوزراء (تذكيرا بالكاردينال فليرى) ويجده يعمل جاهدا لانقاذ فارس من الفوضى والمزائم ، ويخلص إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا بقدر ما تسمح به الظروف الراهنة للطبيعة البشرية للتعليم ، وأن الدنيا بوضعها الحاضر لا تستحق التدمير بعد ، وأن الاصلاح خير من الثورة ، أما بالنسبة لشخصه هو على أية حال فإنه سيقلد الحكماء الحقيقيين الذين يعيشون بينهم وبين أنفسهم فى عزلة وهدوء[٧٥] . فهل شعر بالوحشة والشوق إلى سيرى فعلا ؟

إنه على أية حال لم يكن لائقاً ليعمل فى البلاط . فإنه بطريقة تعوزها اللباقة إلى حد لا يصدق احتفل بانتصار الفرنسيين فى برجن آوب زوم بقصيدة صور فيها الملك لويس الخامس عشر طائراً من ميدان المعركة إلى أحضان بمبادور ، وعهد إليهما معا بمهمة الاحتفاظ بالفتوحات واستبد الغضب بالملكة وبأبنائها ، واستنكر نصف أفراد البلاط وقاحة الشاعر ، وفى الوقت عينه كانت دى شاتيليه قد انغمست فى لعب الميسر ، وفى ليلة واحدة خسرت ٨٤ ألف فرنك ، وأنذرها فولتير بالإنجليزية وهو واقف إلى جوارها بأنها تغش فى اللعب . وفهم بعض اللاعبين ذلك واحتجوا وترامت أنباء هذه الصراحة المخزية إلى أفراد الحاشية ، فلم تترك للشاعر صديقاً فى فرساى أو فونتنبلو ، وهرب فولتير واميلى إلى سكو (١٧٤٧) ليقيما لدى الدوقة دى مين التى ما زالت على قيد الحياة ، وهناك بقى لمدة شهرين فى جناح منفرد (منعزل) بعيد عن أنظار الناس ، وهناك حاول أن ينسى ورطته

ومحنته بالانصراف إلى كتابة بعض القصص الرومانسية المرحة التى ساعدت على أن تجعل منه أعظم المؤلفين شعبية فى الأدب الفرنسى . وواضح أنه قرأها ذات يوم على الضيوف المقربين الذين تألفت منهم حاشية الدوقة الخاصة . ومن هنا كان إيجاز هذه القصص وما فيها من هجاء مرح وسخرية لطيفة .

وأطول هذه القصص التى كتبت فيما بين عامى ١٧٤٦ ، ١٧٥٠ هى « زاديج أو سر القدر » وزاديج شاب بابلى لطيف غنى تلقى أحسن تعليم ، عاقل قدر ما يمكن أن يكون الإنسان عاقلا واسع الاطلاع على علوم قدامى الكلدين . فهم أصول ومبادئ الفلسفة الطبيعية ، وعرف من الميتافيزيقا ما يمكن أن يعرف فى أى عصر ، أى القليل منها أو لا شىء على الاطلاق[٧٦]. وكان على وشك أن يتزوج من سمينا الجميلة حين هاجمه بعض قطاع الطرق ، وأصابوه بجرح تحول إلى خراج فى عينه اليسرى ، واستدعى هرمز الطبيب المشهور من ممفيس وفحص الجرح ، ثم أعلن أن زاديج لا بد أن يفقد عينه ، ولو أنه فى العين اليمنى لأمكن علاجه بسهوله ، ولكن الجروح فى العين اليسرى غير قابلة للشفاء . وأعلنت سمينا أنها تنفر نفورا لا سبيل إلى مقاومته من الرجال ذوى العين الواحدة ، ومن ثم هجرت زاديج وتزوجت من غريمه . وفى ظرف يومين التأم الجرح من تلقاء نفسه وشفيت العين تماما ، ويؤلف الطبيب هرمز كتابا يثبت فيه أن هذا مستحيل ، ويدخل زاديج السرور على قلب الملك موابدار بنصائحه الغالية ، وعلى قلب الملكة آستارت بنظراته الحانية فتقع فى شراك غرامه ، ويهرب زاديج إلى مدينة نائية . وفى الطريق يرى رجلا يضرب امرأة ، ويستجيب فى شجاعة لصرخاتها طلبا للمساعدة ، فيتدخل بينهما ويهاجمه الرجل بعنف ولكنه يرد به قتيلا . وتسبه المرأة بألفاظ جارحة لأنه قتل عشيقها . ويمضى زاديج فى طريقه ويؤخذ ويباع بيع الرقيق . عندئذ تصور زاديج « الناس كما هم فى حقيقة أمرهم . . . . . . حشرات يفتك بعضها ببعض من أجل قطرة من طين » .

وقص « ممنون الفيلسوف » حكاية رجل اعتنق يوما الفكرة الجنونية بأنه متعقل كل التعقل ولكنه وجد نفسه قاصرا قصورا يائسا عاجزا يواجه مئات الكوارث ، فيقرر أن الأرض مستشفى كبير للأمراض العقلية تقوم الكواكب الأخرى بترحيل المجانين فيها إليه [٧٧] .

أما رحلات سكارمنتادو فهى تطوف بشاب من كريت من بلد إلى بلد حيث يتكشف له فى كل يوم مشاهد جديدة من التعصب أو الخداع أو القسوة أو الجهل . ففى فرنسا تجتاح الحروب الدينية المقاطعات ، وفى إنجلترا تحرق الملكة مارى خمسمائة من البروتستانت ، وفى اسبانيا ينشق الشعب فى لذة رائحة المهرطقين الذين ألقى بهم فى النار ، وفى تركيا ينجو سكارمتادو من الختان بأعجوبة ، وفى فارس يتورط فى الصراع بين طائفتى السنة والشيعة من المسلمين ، وفى الصين يتهمه اليسوعيون بأنه شخصية بارزة من طائفة الدومنيكان ، وأخيرا يعود إلى كريت « ومذ رأيت الآن كل ما هو نادر أو خير أو جميل على الأرض ، فقد وطدت العزم على ألا أرى فى المستقبل شيئاً غير بلدى ، وتزوجت وسرعان ما داخلنى الشك فى خيانة زوجتى ، ولكنى على الرغم من هذا الشك وجدت أن هذه هى أسعد ظروف الحياة[٧٨] » .

وتوسع ميكرو ميجاس فى أفكار النسبية التى استخدمها سويفت فى رحلات جلليفر . والسيد ميكروميجاس رجل يصلح للاقامة فى نجم الشعرى اليانية ، وطوله ١٢٠ ألف قدم وعرض صدره خمسون ألفا ، وطول أنفه ٦,٣٣٣ قدما . وعند ما بلغ ٦٧٠ عاما من العمر ذهب ليستزيد من التعليم . وبينما هو يحوم فى الفضاء هبط على كوكب زحل فسخر من الأقزام هناك ، حيث بلغ طول الناس هناك ستة آلاف قدم أو نحوها ، وتعجب كيف يتسنى لسكان زحل المعدمين هؤلاء الذين ليس لهم إلا ٧٢ حاسة فقط أن يعرفوا الحقيقة وسأل أحد السكان إلى أى حد من العمر تعيشون ؟ فصاح ساكن زحل واحسرتاه ! قليل جداً منا يعيشون لأكثر من ٥٠٠ دورة حول الشمس (وهى بحسابنا نحن تصل إلى نحو ١٥ ألف سنة) وهكذا ترى أننا بشكل ما نموت فى اللحظة التى نولد فيها . . . . وما أقل ما نتعلمه

حين ينزل بنا الموت قبل أن نستفيد من خبرتنا[٧٩] . ويدعو ساكن الشعرى اليمانية ساكن زحل إلى مصاحبته لزيارة كواكب أخرى ، فتتعثر أقدامهما على كوكب الأرض ، وتبتل قدما ساكن الشعرى ، ويكاد ساكن زحل يغرق وهما يسيران فوق البحر المتوسط . فلما وصلا إلى البر رأيا حشودا من الأهالى صغار الأجسام يتمركزون هنا وهناك فى اهتياج شديد ، وعند ما يتضح لساكن الشعرى اليمانية أن مائة ألف من سكان الأرض هؤلاء يلبسون القبعات وعددا مساويا يضعون العمائم ، يقتلون ويطيح بعضهم برؤوس بعض فى صراع (الحروب الصليبية) حول ركام من التراب (فلسطين) لا يكاد يعلو على عقبيه يصيح ساخطا . مستاءا : أيها الكفار الأوغاد . . . قلبى يحدثنى أن أتقدم خطوتين أو ثلاثا لأسحق تحت قدمى وكر السفاحين الحمقى بأمره[٨٠] .

وكل هذا كان عاما سارا بهيجا ، وكان يمكن أن يمر دون أن يحرك أحد ساكنا . ولكن فولتير فى ١٧٤٨ عكر صفو باريس بنشرة صغيرة « صوت الحكماء وصوت الشعب » هاجم فيها كنيسة فرنسا فى نقطة حساسة ، تلك هى « أملاك الكنيسة فى فرنسا » ، حيث ينمو العقل ويتطور يوما بعد يوم ، فإن العقل يعلمنا انه يجدر بالكنيسة أن تسهم فى نفقات الأمة بنسبة مواردها ، وأن الهيئة التى نصبت نفسها لتلقين مبادىء العدالة يجدر بها أن تبدأ بنفسها لتكون قدوة للعدالة ونموذجا لها ورغم أن الأديار تضيع أقوات الشعب وموارد الأرض فى خمول عقيم ، واتهم « الخرافة » بقتل الحكام وإراقة بحور من الدماء فى الاضطهادات والحروب ، وذكر الملوك بأن أحدا من الفلاسفة لم تمتد يده على مليكه ، وإذا اتحد الملوك مع العقل وجردوا أنفسهم من الخرافة فكم يكون الناس أسعد وأهنأ بالا[٨١] . وقل أن أثارت رسالة موجزة مثل هذه العاصفة الهوجاء . ونشرت خمس عشرة رسالة مضادة للرد على رسالة « صوت الحكماء وصوت الشعب » التى لم يذكر اسم مؤلفها .

وأثناء إقامة فولتير فى فصل الشتاء فى سكو سددت مدام دى شاتيليه

ديون القمار . وهدأت من روع الرابحين . وخففت من استيائهم لما نعتهم به فولتير ، وأعادته إلى باريس حيث أشرف على نشر قصصه الصغيرة ، ووجد من الحكمة على الرغم من المشقة والتعب أن يلبي دعوة ستانسلاس لزكزنسكي لزيارة بلاطه فى لونفيل — على بعد نحو ١٨ ميلا من نانسى عاصمة اللورين . وبعد رحلة مرهقة وصل الحبيبان إلى لونفيل (١٧٤٨) ولكن بعد أسبوعين وصل كتاب من دارجنتال ينبئ فيه فولتير بأن ممثلى الكوميدى فرانسيز على استعداد لتجربة روايته سميراميس ، وأنهم فى حاجة إليه لمعاونتهم فى تفسير أبياتها . وكانت هذه الرواية تعنى الشيء الكثير لديه ، وكانت بمبادور من طيبة نفسها الآثمة قد أعادت إلى المسرح كربيون (الأب) الفقير المعدم وهيأت له سبل النجاح . وكان ماريفو قد تجاسر فاعتبر مسروحيات الشيخ الهرم أعلى مرتبة من مسرحيات فولتير . وكان الشاعر النحيل الجسم قد اعتزم أن يثبت تفوقه بكتابة روايات فى نفس الموضوعات التى كان كربيون قد طرقها . ومن ثم أسرع فولتير إلى باريس تاركا اميلى فى حرية مهلكة فى لونفيل . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٤٨ عرضت سميراميس لأول مرة عرضا ناجحا . وبعد العرض الثانى أسرع متنكراً إلى مقهى بروكوب واستمع إلى تعليقات من شهدو المسرحية . وكانت ثمة تعليقات امتدحت الرواية وأطرتها ، تقبلها فولتير على أنها من حقه ، وثمة آراء أخرى انتقصت من قدرها وهاجمتها . وقد آلمته هذه أيما ايلام ، حيث كان عليه أن يتحملها صامتا ، ولكنه استفاد مما وجه إلى المسرحية من نقد ، فنقحها واستمر عرضها طويلا . وهى تعد الآن من أحسن مسرحياته .

وأسرع ثانية فى جو سبتمبر العاصف عبر فرنسا إلى لونفيل ، وكاد يموت فى الطريق عند شالون ، ولما استحثه فردريك الأكبر على المضى إلى بوتسدام اعتذر بأن المرض أفقده نصف سمعه وعدة أسنان من أسنانه . إلى حد أنه لن يكون إلا مجرد هيكل فى برلين . فأجاب « تعال بلا أسنان وبلا أذنين . إذا لم يكن بد من الحضور على هذه الصورة ، ما دام أن هذا الشيء الذى يتعذر تعريفه ، والذى يمكنك من التفكير ، والذى يوحى بكل ما جميل ، سيحضر معك » [٨٢] ولكن فولتير آثر المقام مع إميلى .

٥ — موت الحبيبة

أحب الملك الصالح ستانيسلاس الأدب ، وكان قد قرأ فولتير وأصابته عدوى عصر الاستنارة ، وفى ١٧٤٩ كان الملك بصدد نشر بيانه « الفيلسوف المسيحى » الذى كانت ابنته ملكة فرنسا قد قرأته فى استياء حزين . وحذرته من أن آراءه يشتم منها أنها نابعة من آراء فولتير إلى حد كبير . ولكن الشيخ الهرم استساغ آراء فولتير كما أعجب بذكائه . وكما أنه كان له أيضا محظية (هى المركيزة دى بوفلرز) فإنه لم يجد تناقضا فى أن يتخذ من الشاعر محظيا له فى بلاطه . كما عين ، فوق ذلك ، زوج اميلى المتحرر الواسع الأفق كبير مديرى قصره براتب قدره ألفا كراون سنويا .

وكان ثمة موظف آخر فى بلاط ستانيسلاس ، هو المركيز جان فرنسوا دى سانت لامبرت ، قائد الحرس . وكانت مدام دى شاتيليه قد التقت به لأول مرة فى ١٧٤٧ ، وكان هو فى الحادية والثلاثين وهى « فى الحادية والأربعين . وكانت تلك سن خطيرة لامرأة لم يعد عشيقها إلا مجرد صديق حميم . وفى ربيع ١٧٤٨ بدأت تكتب للضابط الوسيم رسائل غرام تكاد تتسم بفهاهة البنات الصغيرات وخلاعتهن : « تعال إلى بمجرد أن ترتدى ملابسك » سأطير إليك بعد أن أتناول العشاء . « واستجاب سانت لامبرت مغازلا مترددا . وذات مرة فى أكتوبر فاجأهما فولتير فى خلوة مظلمة يتبادلان أحاديث الحب والهيام . إن أعظم الفلاسفة هو وحده الذى يتقبل هذه الفعلة المكراء ، الخيانة ، فى هدوء وتسامح . ولم يثر فولتير لهذا الوضع على الفور . وأنبهما فى شيء من الهذر والمزاح ، ولكنه أوى إلى غرفته حين عرض سانت لامبرت تسوية الأمر معه — أى يقتله عند الفجر . وقصدت اميلى إلى فولتير فى الثانية صباحا ، وأكدت له حبها الخالد ، ولكنها ذكرته فى رفق « بأنك لزمن طويل شكوت . . . من قواك أن تنهار . . . فهل يسيء إليك أن يحل أحد أصدقائك محلك ؟ » وعانقته ولاطفته ودللته بأسماء الدلال التى كانت تناديه بها ، فخففت سورة غضبه وقال « آه أنت على حق دائماً ياسيدتى . ولكن طالما كان لزاما أن تجرى الأمور على هذا النحو فلا

أقل من ألا تجرى تحت سمعى وبصرى » وفى الليلة التالية قصد سانت لامبرت إلى فولتير واعتذر له عن تحديه . وعانقه فولتير وقال له « أى بنى ، لقد نسيت كل شيء . إنى أنا المخطئ ، أنت فى زهرة عمر الشباب والحب والمتعة ، فاستمتع بهذه اللحظات ، فانها قصيرة . إن هذا العاجز المريض مثلى لا يصلح لهذه الملذات » وفى الليلة التاليـــة تناول ثلاثتهم العشاء معا[٨٣] .

واستمر هذا الثلاثى « حتى ديسمبر حين اعتزمت السيدة دى شاتيليه الذهاب إلى سرى لتدبير شؤونها المالية . وصحبها فولتير ، وجدد فردريك دعوته . وكان فولتير يميل الآن إلى تلبيتها . ولكن المركيزة فور وصولها إلى سيرى أسرت إليه بأنها حامل ، وأنها فى مثل هذه السن وكانت أنذاك فى الثالثة والأربعين ، لا تتوقع أن تعيش بعد الولادة . وكتب فولتير إلى الملك فردريك ألا ينتظر قدومه . كما طلب إلى سانت لامبرت أن يحضر إلى سيرى . وهناك اتفق العشاق الثلاثة على خطة لتأمين شرعية الطفل واستحثت السيدة زوجها على القدوم إلى سيرى للتعجيل بانجاز بعض المهام . ولم ينزعج الزوج لوجود عاشقين آخرين إلى جانب زوجته يكملان شخصه ، بل سعد كل السعادة حين استقبلوه بالترحيب وأكرموا وفادته . وازدانت المركيزة بأبهى زينة وأزهى حلة ، ولاطفته أعظم ملاطفة . وشرب وثمل حتى كان ما كان (ممـــا لست أذكره) وبعد بضعة أسابيع أبلغته أنها قد ظهرت عليها أعراض الحمل . واحتضنها فى زهو وفرح . وأعلن عن الحادث السعيد المرتقب إلى كل الناس ، وتقدم إليه الجميع بالتهنئة . ولكن فولتير وسانت لامبرت أتفقا على « أن يعد الطفل من بين أعمال مدام شاتيليه المتنوعة »[٨٤] وعاد المركيز (الزوج) وسانت لامبرت إلى عملهما .

وفى فبراير ١٧٤٩ عادت اميلى وفولتير إلى باريس وانصرفت هى إلى ترجمة قوانين نيوتن بمعاونة كليرو . وثمة رسالتان إلى سانت لامبرت (١٨ ، ٢٠ مايو) تكشفان عن شخصيتها : « كلا : إنه ليس فى مقدورى أن أعبر عن تقديسى وحبى لك حب عبادة . لا تلمنى على نيوتن ، ويكفينى

عذابي بسببه . وما ضحيت قط بشيء قدر تضحيتي للعقل ببقائي هنا لانجازه . . أنا استيقظ في التاسعة . وأحيانا في الثامنة صباحا . وأتناول القهوة ، واستأنف العمل في الرابعة ، وأتوقف عنه في العاشرة . . . وأتجاذب أطراف الحديث مع فولتير حتى منتصف الليل وهو يتناول معي العشاء . وفي منتصف الليل أعود إلى العمل في نيوتن واستمر حتى الخامسة صباحا . إني أنجز هذا الكتاب من أجل العقل والشرف ولكني أحبك أنت وحدك » [٨٥] .

وفي ١٠ يونيه جدد فردريك بسرعة دعوة فولتير إلى الحضور إلى بوتسدام ظناً من الملك أن سانت لامبرت قد أعفى فولتير من أية مسئوليات أخرى يلتزم بها تجاه دى شاتيليه ، فأجاب فولتير « حتى فردريك الأكبر نفسه لا يستطيع أن يحول بيني وبين القيام بواجب لا يمكن أن يخليني منه أي شيء . . . لن أتخلى عن سيدة قد تعاجلها المنية في سبتمبر . والأرجح أن عملية الوضع ستكون خطيرة جداً عليها ، ولكن إذا كتبت لها النجاة ، فإني أعدك يا مولاي أني أحضر في أكتوبر وأقدم ولائي لجلالتكم [٨٦] » .

وفي يوليه صحبها إلى لونفيل لتكون تحت رعاية طبية خاصة . إن خوف الموت أزعجها كل الازعاج — يختطفها الموت في الوقت الذي وجدت فيه الحب من جديد ، وفي الوقت الذي كانت فيه سني دراستها وبحثها على وشك أن تتوج بنشر كتابها . وفي ١٠ سبتمبر أنجبت طفلة . وفي اليوم العاشر من سبتمبر فارقت الحياة بعد أن عانت كثيراً . واستبد الحزن والأسى بفولتير فزلت قدمه وهو يغادر غرفتها وسقط على الأرض ، وظل فاقد الوعي فترة من الوقت . وساعده سانت لامبرت على الافاقة من غشيته . وقال فولتير عندئذ : « آه يا صديقي أنت الذي قتلتها . . . . يا إلهي ! ما الذي أغراك بأن تصل بها إلى هذه الحالة ؟ ! » وبعد ذلك بثلاثة أيام طلب فولتير من لونجشامب الخاتم الذي خلعوه من يد السيدة المتوفاة . وكانت صورته منقوشة عليه يوما ما ووجده السكرتير في يد لامبرت ، وتعجب فولتير قائلا : « هكذا النساء . لقد خلعت صورة ريشيليو من هذا الخاتم ، ثم جاء سانت لامبرت فطردني . . . هذا هو نظام الطبيعة . . شخص ينتزع مكان آخر .

وهكذا تدبر الأمور فى هذه الدنيا [٨٧] » . ووريت مدام دى شاتيليه التراب فى لوتفيل فى أروع مظاهر المهابة والجلال فى بلاط ستانسلاس ، وسرعان ما تبعتها طفلتها .

وعاد المركيز وفولتير إلى سيرى ومن هناك رد على بعض رسائل التعزية التى تلقاها من باريس : « أنتم عزائى ، يا ملائكة الرحمة أنتم تجعلوننى أحب بقية أيامى التعسة . إننى أعترف لـكم أن البيت الذى أظلها على الرغم مما يثير فى نفسى من أشجان ، ليس كريها عندى . . . أنا لا أهرب من أى شىء يحدثنى عنها ويذكرنى بها . إنى أحب سيرى . . . والأماكن التى زانتها عزيزة على أنا لم أفقد سيدة ، بل فقدت نصف نفسى . فقدت نفسا خلقت لها نفسى ، فقدت صديقة عشرين عاما ، عرفتها فى طفولتها . إن أكثر الآباء عطفا وحنانا لا يحب ابنته الوحيدة إلا كما أحببت أنا هذه السيدة . وبودى أن أجد فى كل مكان ما يذكرنى بها . وأحب أن أتحدث مع زوجها ومع ابنها [٨٨] .

ومع ذلك أدرك فولتير أنه سيذبل ويذوى إذا هو بقى مترملا فى سيرى الموحشة المنعزلة . وأرسل كتبه وأجهزته العلمية ومجموعته الفنيـــة إلى باريس ، وسافر فى أثرها فى ٢٥ سبتمبر ١٧٤٩ . وفى ١٢ أكتوبر استقر به المقام فى العيصمة ، فى قصر واسع الأرجاء فى شارع ترافرسيير .

٦ — مدام دنيس

كان من اليسير على فولتير أن يقنع ابنة اخته بالحضور لتكون ربة البيت حيث كانت لفترة من الوقت خليلته .

ولدت مارى لويز مجنو Mignot (١٧١٢) وهى ابنة كاترين أخت فولتير . وعندما توفيت كاترين (١٧٢٦) تـكفل فولتير برعاية أولادها . وفى ١٧٣٧ . عندما بلغت مارى السادسة والعشرين ، دفع لهـــا خالها صداقا محترما حيث تزوجت من الـكابتن نقولا شارل دنيس ، وكان موظفا صغيراً فى الحـكومة .

وتوفى الزوج بعد ست سنوات من زواجه . فى نفس الوقت الذى انتقل فيه فولتير والمركيزة دى شاتيليه إلى باريس . والتمست الأرملة بعض السلوى والعزاء بين ذراعى فولتير ، ووجد هو بعض الحرارة والدفء بين ذراعيها . وواضح أن حب الخال سرعان ما تحول إلى شىء غير مشروع . وفى رسالة مؤرخة فى ٢٣ مارس ١٧٤٥ خاطب فولتير ابنة أخته بقوله « محبوبتى ، عزيزتى »[٨٩](*) وقد تكون هذه عبارة حب برىء ؛ ولكن فى ديسمبر ، أى قبل عامين من لقاء المركيزة بسانت لامبرت كتب فولتير إلى الأرمله الطروب رسالة يجدر اقتباسها حرفيا حتى يمكن تصديقها : « اقبلك ألف قبلة . روحى تقبل روحك ، إن قلبى مفتون بك . أقبل كل شىء فيك »[٩٠] .

وحذفت مدام دنيس بعض الألفاظ تواضعا وتحجلا ، ولكن المفروض أنها أجابت برسالة غرامية ، لأن فولتير كتب لها من فرساى فى ٢٧ ديسمبر ١٧٤٥ : « عزيزتى ، تقولين إن كتابى إليك بعث السرور والنشوة حتى فى حواسك كلها . وأنا مثلك تماما . فلم أكد أقرأ العبارات الممتعة التى جاءت فى كتابك حتى التهبت مشاعرى من الأعماق . وأوليت كتابك كل الإجلال الذى أحب أن أوليه لشخصك كله ، سأحبك حتى الممات »[٩٢] . وفى ثلاث رسائل بعث بها إليها فى ١٧٤٦ « إنى أقبلك ألف قبلة »[٩٣] . بودى أن أعيش عند قدميك وأموت بين ذراعيك . . [٩٤] « متى يكون فى مقدورى أن أعيش إلى جوارك وينسانى العالم بأسره ؟ »[٩٥] وفى ٢٧

(*) هذه العبارة والمقتطفات التالية مأخوذة عن رسائل خطية اكتشفها تيودور بسترمان فى ١٩٥٧ ، واشترتها مكتبة بييربونت مورجان فى نيويورك من أعقاب السيدة دنيس . ونشر الدكتور بسترمان ، مدير معهد ومتحف فولتير فى لى دليس فى جنيف ، النص الأصلى ، مع ترجمة فرنسية تحت عنوان « رسائل غرامية من فولتير إلى ابنة أخته (باريس ١٩٥٧) وترجمة انجليزية (لندن ١٩٥٨) . وكل الرسائل ، فيما عدا أربعا من بين ١٤٢ رسالة بخط فولتير ، وبعضها مكتوب بالايطالية التى كانت مدام دنيس ملمة بها . وكتبت هذه الرسائل فيما بين عامى ١٧٤٢ — ١٧٤٥ . وثلاث منها مؤرخة على وجه التحديد . ومن ثم لا يمكن أن يكون تسلسلها التاريخى مؤكدا . والتواريخ التى أوردناها هنا هى التى حددها دكتور بسترمان .

يوليه ١٧٤٨ كتب يقول : « سأحضر إلى باريس من أجلك أنت إذا سمحت ظروفى السيئة . وسألقى بنفسى عند قدميك ، وأقبل كل مفاتنك . وفى نفس الوقت أطبع ألف قبلة على كل موضع فى جسمك الذى غمرنى بفيض من اللذة والبهجة » [٩٧] .

فى عمر الرجال ، مثلما هو فى عمر النساء ، فترة خطيرة ، وهى عندهم أطول ، ويرتكبون فيها حماقات لا تصدق . وكان فولتير ألمع شخصية فى القرن الذى عاش فيه ، ولكن لا يجدر بنا أن نعده من بين الفضلاء الحكماء ، فكثيراً ما اقترف هذه السخافات والأعمال الطائشة وتردى فى هذه التصرفات المتطرفة ونوبات الغضب الصبيانية ، مما سر أعداءه وأزعج أصدقاءه . إنه وضع نفسه تحت رحمة ابنة أخته التى كان واضحا أنها مغرمة به ، ولكنها أحبت نقوده حبا متزايدا . إننا نجدها تستغل سيطرتها عليه لتزيد من ثروتها ، حتى يوم وفاته . إنها لم تكن امرأة رديئة بمقاييس العصر . ولكنها ربما جاوزت حدود عمرها باتخاذها سلسلة من العشاق — باكولار دارنو ، مارمونتيل ، مركيز دى اكسيمين — لتستكمل رعاية خالها . [٩٨] ووصفها مارمونتيل مادحا فى ١٧٤٧ « إن هذه السيدة مقبولة بكل ما فيها من قبح . إن شخصيتها البسيطة غير المتكلفة تشربت مسحة من شخصية خالها . وكان فيها كثير من ذوقه ومن مرحه وأدبه الجم ، ومن هنا كان السعى إلى الاجتماع بها والتودد إليها » [٩٩] .

وفى يوم وفاة مدام دى شاتيليه كتب فولتير إلى ابنة أخته :

« ابنتى العزيزة ، فقدت اليوم صديقة عشرين عاما . ولوقت غير قصير — كما تعرفين . لم أكن أنظر إلى مدام دى شاتيليه على أنها امرأة (هكذا) . وأنا واثق أنك ستشاطريننى الحزن الشديد عليها . إنه من المؤسف حقاً أن أراها تفارق الحياة فى مثل هذه الظروف ولمثل هذا السبب ، وأنا لا أتخلى عن المركيز دى شاتيليه فى هذه المحنة المتبادلة . . . . سأحضر من سيرى إلى باريس لأحتضنك بين ذراعى ، والتمس فيك عزائى وأملى الوحيد فى الحياة [١٠٠] .

وطوال الشهور الثمانية التى قضاها فى العاصمـــة ، تلقى فولتير من فرردريك الأكبر رسائل كثيرة يستحثه فيها على الحضور ، وكان هو يميل إلى قبول الدعوة . وعرض عليه فردريك أن يشغل وظيفة كبيرة فى البلاط ، مع دار خاصة بالمجان براتب قدره ٥٠٠٠ تالر فى العام .[١٠١] ولكن فولتير الذى كان من رجال المال مثلما كان فيلسوفا ، طلب إلى ملك بروسيا أن يقرضه بعض المال لتسديد نفقات الرحلة : ووافق الملك فى تأنيب ماكر ، حيث شبه الشاعر بهوراس الذى رأى من الحكمة أن يمزج النافع بالمقبول[١٠٢] . وطلب فولتير الاذن بالرحيل من ملك فرنسا ، ووافق لويس على الفور ، قائلا لخلصائه المقربين : « هذا سيزيد من جنون رجل مجنون فى بلاط بروسيا وسيخفف من جنون رجل فى فرساى[١٠٣] . وفى ١٠ يونيه ١٧٥٠ غادر فولتير باريس إلى برلين .

المراجع

CHAPTER VII

1. Sée, H., *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 87.
2. *Ibid.*, 84.
3. Sumner, W. G., *Folkways*, 165.
4. Sée, 104; Goodwin, A., *The European Nobility in the 18th Century*, 36.
5. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 107.
6. Ducros, L., *French Society in the 18th Century*, 158, 207; Wolf, A., *History of Science . . . and Philosophy in the 18th Century*, 558.
7. Palmer, R. R., *Catholics and Unbelievers in 18th-Century France*, 13n.
8. Lacroix, P., *Eighteenth Century*, 138.
9. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
10. Lacroix, 138.
11. Ducros, 24; Herbert, S., *Fall of Feudalism in France*, xvii.
12. Taine, *Ancient Regime*, 130.
13. Goodwin, *European Nobility*, 31.
14. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 32.
15. Sée, 61.
16. Taine, *Ancient Regime*, 20, 41.
17. Tocqueville, 34.
18. Taine, 15.
19. *Camb. Mod. History*, VIII, 53.
20. *Ibid.*, 51, Sée, 3.
21. Palmer, R. R., 25; Lacroix, 157.
22. Taine, 42 f.
23. Voltaire, *Works*, XVIa, 261.
24. Martin, H., XV, 439.
25. *Ibid.*, 439-40.
26. Lacroix, 157.
27. *Ibid.*, 269.
28. Taine, 34.
29. *Ibid.*, 119-20.
30. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 10, 15, Montalembert, *Monks of the West*, II, 86.
31. Martin, Kingsley, *Rise of French Liberal Thought*, 79.
32. Taine, 62, Michelet, *Histoire de France*, V, 288
33. Martin, H., XV, 441.
34. *Ibid.*, 442.
35. Taine, 63
36. Lecky, *History of England*, V, 329.
37. Desnoiresterres, VIII, 248.
38. Lacroix, 270
39. Guizot, *History of France*, V, 48.
40. Sée, 4.
41. Herbert, *Fall of Feudalism*, 56.
42. Taine, 23-24, Ducros, 256-57.
43. Herbert, 37.
44. See, 15.
45. Herbert, 4-5.
46. Sée, 28.
47. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 395 (Oct. 10, 1718).
48. Taine, 330.
49. Martin, H., XV, 216.
50. Sée, 38
51. Voltaire, *Works*, XIXa, 94.
52. *Philosophical Dictionary*, article "Lent."
53. Cobban, *History of Modern France*, 42.
54. Sée, 181.
55. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 193.
56. Mantoux, *Industrial Revolution*, 409.
57. Sée, 165.
58. Taine, 334.
59. Mornet, *Origines intellectuelles de la Revolution française*, 28.
60. Parton, II, 184
61. Lacroix, 228
62. *Ibid.*, 311.
63. Nussbaum, *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 124.
64. Jaurès, *Histoire socialiste*, I, 67.
65. Sée, 151-53.
66. Martin, H., XV, 213.
67. *Ibid.*, 305.
68. Sée, 93.
69. Ducros, 160.
70. Toth, *Woman and Rococo in France*, 179.
71. Lacroix, 206
72. *Ibid.*

73. Goncourts, *Madame de Pompadour*, 5-7.
74. Desnoiresterres, III, 241
75. Grimm, *Correspondance*, VIII, 231-33, in Buckle, I, 539.
76. Saint-Simon in Lacroix, 302.
77. Lacroix, 209.
78. Ducros, 53.
79. Stryienski, *Eighteenth Century*, 57
80. Lanfrey, *L'Eglise et les philosophes au xviiie siecle*, 129
81. Michelet, V, 277, Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 445
82. Voltaire, *Works*, XVIa, 157
83. Stryienski, 79
84. *Works*, XVIa, 158.
85. Martin, H., XV, 256n.
86. Stryienski, 85
87. Desnoiresterres, II, 336
88. Martin, H., XV, 251.
89. Saint-Simon, *Memoirs*, III, 283.
90. *Michelet*, V, 248
91. Martin, H., XV, 116n., Ercole, *Gay Court Life*, 88.
92. Bearne, *Court Painter*, 85
93. Guizot, *History of France*, V, 78
94. Goncourts, *Pompadour*, 9.
95. Michelet, V, 325
96. Ercole, 167
97. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 42
98. Stryienski, 140-41
99. *Webster's Biographical Dictionary*, 833.
100. Brandes, I, 224
101. Voltaire, *Works*, XVIb, 224.
102. Carlyle, Thos., *History of Friedrich II*, IV, 438, *Enc Brit.*, IX, 454a.
103. Voltaire, XVIb, 238, Martin, H., XV, 282, Stryienski, 148
104. Voltaire, XVIb, 239
105. Stryienski, 149.
106. Martin, H., XV, 431n.
107. Lichtenberger in Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 238
108. Martin, H., XV, 356-58.
109. Lecky, *England*, V, 327.
110. Goncourts, *Pompadour*, 12
111. Michelet, V, 349.
112. Ercole, 197
113. Goncourts, 117.
114. Ercole, 203.
115. Lewis, *Four Favorites*, 48
116. Taine, *Ancient Regime*, 82
117. Goncourts, 71
118. *Ibid.*, 348.
119. Sainte-Beuve, I, 450.
120. *Ibid.*, 451
121. Michelet, V, 354
122. Martin, H., XV, 436
123. Goncourts, 131
124. Lewis, 50.
125. Ercole, 209.
126. Toth, 165.
127. Goncourts, 127.
128. Du Hausset, Mme., *Memoirs of Mme de Pompadour*, 65.
129. Ercole, 220.
130. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 249

CHAPTER VIII

1. See, *Economic and Social Conditions*, 48 f
2. Funck-Brentano, *L'Ancien Régime*, 422
3. La Fontainerie, *French Liberalism and Education*, 6.
4. Lacroix, 252.
5. *Ibid.*, 151
6. 242.
7. 244.
8. Desnoiresterres, III, 133
9. Crequi, *Souvenirs*, 57, 121.
10. Ducros, *French Society*, 83.
11. Chesterfield, *Letters*, I, 348.
12. Brandes, I, 147.
13. *Ibid.*, 141.
14. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 187.
15. *Ibid.*, 188.
16. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 53
17. Funck-Brentano, 50.
18. Ducros, 61
19. Quoted in Funck-Brentano, 60
20. Taine, *Ancient Regime*, 134
21. Walpole, *Letters*, I, 309 (Oct. 28, 1752)
22. Toth, 135.
23. Frederick the Great, *Memoires*, I, 25.
24. D'Argenson, *Mémoires*, in Martin, H., XV, 341.
25. Ducros, 342.
26. Mossner, *Hume*, 92.
27. Kohler, Carl, *History of Costume*, 340.
28. Créqui, 123.
29. Lacroix, 370
30. Ducros, 35.
31. *Philosophical Dictionary*, art. "Lent," in *Works*, VIa, 108.
32. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 166.
33. Michelet, V, 189.
34. Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 441
35. Burney, C., *General History of Music*, II, 965, 969.
36. *Grove's Dictionary of Music and Musicians*, IV, 320d
37. Burney, II, 970.
38. Diderot, *Le Neveu de Rameau*.
39. Duclos, C., *Considérations sur les moeurs*, 13

40. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 430.
41. Mme. Vigée-Lebrun, *Mémoires*, I, 156, in Taine, *Ancient Regime*, 141n.
42. Goncourts, *Woman*, 317.
43. Marmontel, *Memoirs*, I, 181.
44. Batiffol, *Great Literary Salons*, 131.
45. Walpole to Gray, Jan 25, 1766.
46 Batiffol, 208.
47 Kavanagh, *Woman in France during the 18th Century*, I, 168
48 Diderot, "On Women," in *Dialogues*, 196

CHAPTER IX

1. Faniel, S, *French Art of the 18th Century*, 36
2. *Ibid*, 91.
3. Funck-Brentano, 180
4 Louvre
5 See the great commode in the Wallace Collection
6 Dilke, Lady E., *French Architects and Sculptors of the 18th Century*, 77
7 *Ibid.*, 81
8 Louvre.
9 Turner and Baker, *Stories of the French Artists*, 181
10. Dijon Museum.
11 Versailles Museum.
12 Louvre
13 Bearne, *Court Painter*, 164.
14. Diderot, *Salons*, I, 9, 114-19.
15. Bearne, 43.
16. Turner, 193.
17. Goncourts, *French 18th-Century Painters*, 61.
18 Turner, 197
19 Louvre.
20. Block, *François Boucher and the Beauvais Tapestries*, 26.
21. Goncourts, *French Painters*, 69.
Seven are in the Huntington Library and Gallery at San Marino, Calif
23 *Ibid.*
24. Wallace Collection.
25 Goncourts, *French Painters*, 91
26 *Ibid* 84.
27 Block, 21.
28. Ridder, *Chardin* 8, Goncourts, *French Painters*, 117
29. Louvre
30 Louvre.
31 Louvre
32. Goncourts, 141-42, Havens, *Age of Ideas*, 321.
33. Diderot, *Salons*, III, 4.
34 Goncourts, 177n.
35 *Ibid.*
36 *Ibid.*
37. *Ibid.*, 164n.
38. Louvre
39. St-Quentin Museum.
40. Dresden.
41. St.-Quentin.

CHAPTER X

1. Duclos, *Considérations*, 217
2. Grimm, *Correspondance*, III, 73
3 Parton, I, 509.
4. Voltaire, essay "Ancient and Modern Tragedy," in *Works*, XIXa, 134.
5 "Discourse on Tragedy," in *Works*, XIXb, 181 f.
6. Parton, II, 325.
7 Brandes, I, 72.
8 Edwards, H. S., *Idols of the French Stage*, 83, Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, I, 170.
9. Michelet, V, 303.
10 Sainte-Beuve, I, 180.
11. Michelet, V, 304.
12 Mitford, N, *Madame de Pompadour*, 126
13 Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 260.
14 Marivaux, *Vie de Marianne*, 3.
15 Crebillon *fils*, *Le Sopha*, introd.
16 *Le Sopha*, 65
17 Palache, *Four Novelists of the Old Regime*, 4, 49.
18 Crebillon, *Le Sopha*, introd.
19. Saintsbury, G., introd. to Prévost's *Manon Lescaut*, xliii.
20. *Manon Lescaut*, 220.
21. *Ibid.*, 10.
22. 57
23 Faguet, E., *Literary History of France*, 489.
24 Saintsbury, introd to *Manon Lescaut*, ix-xii
25 Bury, J., *History of the Idea of Progress*, 135-36 Martin, K, 280.
26. Lichtenberger, A, *Le Socialisme et la Revolution française*, 73, Martin, H., XV, 335; Martin, K, 62, Hazard, 197.
27 In Martin, K, 61
28. In Crocker *Age of Crisis*, 426-29
29 Duclos, *Considerations*, 11-12.
30 *Ibid*, 17, 21
31 27.
32. 25.
33. Torh, 38
34 La Bruyere and Vauvenargues, *Selections* 189
35 Vauvenargues *Oeuvres choisies*, cxv iv.
36. La Bruyere and Vauvenargues, 179.
37. Vauvenargues, clxxxvii
38 *Ibid*, clxxxii.

39. Crocker, *Age of Crisis*, 138-39.
40 *Ibid*, 30.
41. Vauvenargues, CLXIX.
42. La Bruyère and Vauvenargues, 173.
43. Vauvenargues. CL
44. *Ibid*, LVII.
45. CLXXX.
46. CLVII.
47. P. 158.
48. P. 173.
49. *Ibid*
50. 310.
51. Voltaire, letter of Apr. 4, 1744. in Martin, H, XV, 407n.
52. Voltaire, XIXa. 43
53. Sorel, A, *Montesquieu*, 125
54. *Ibid*, 9.
55. 23
56 Montesquieu, *Spirit of Laws*, Book V Ch. xix.
57. *Persian Letters*, xxiv.
58 In Sorel, 43
59 Herodotus, *History*, IV, 183.
60 Aristotle, *Historia animalium*, viii, 12
61 *Persian Letters*, xii
62. Letter xxiv
63 xxix.
64 cxviii.
65. cxiii
66 cxviii.
67. xxxv.
68. LXXXVI.
69. Sorel, 49
70 *Grandeur et décadence des Romains*, introd., *vi*.
71 *Ibid.*, Ch. xviii.
72. Ch. xii.
73 Ch. xviii.
74. Ch. vi.
75 Ch. xv.
76. Quoted in Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 195.
77. *Spirit of Laws*, preface.
78. *Ibid.*
79. Palache, 35.
80. Martin, K., 151.
81 *Spirit of Laws*, Book I, Ch. iii.
82 *Ibid*, XIV, i-x.
83. XVI, i-iii.
84. *Ibid.*, x
85. *Ibid.*
86. XIV, v.
87. VIII, xvi-xix.
88. Explanatory notes prefixed by Montesquieu to the second edition.
89. IV, vi.
90. In Sée, H., *Idées politiques en France au xviii[e] siècle*, 46.
91. *Spirit of Laws*, VIII, ii.
92 V, xiii.
93. V, x.
94 XI, vi
95 *Ibid.*
96 *Ibid.*
97. XI, iii.
98 *Grandeur et décadence*, Ch. vii.
99. *Spirit of Laws*, XXIII, xxviii.
100. XV, v.
101. X, ii.
102. XIII, xvii.
103. *Pensées diverses*, in Hearnshaw, *Great Thinkers of the Age of Reason*, 116.
104 Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 173.
105 *Spirit of Laws*, XXIV, x.
106 I, i.
107 XII, xxix
108 In Havens, *Age of Ideas*, 121
109 *Spirit of Laws*, XXIV, ii.
110. *Ibid.*, iii and xxvi.
111 XXIV, v.
112 XXV, v
113. *Ibid.*, xiii.
114 *Ibid.*, x.
115 Quoted in Faguet, 195.
116 Sorel, 166.
117. Pappas, *Berthier's* Journal de Trévoux, 78 f., Martin, K, 153
118. Sorel, 163.
119. Martin, K., 168.
120. Sorel,
121 Voltaire, XIXa, 238-39
122. *Philosophical Dictionary*, art. "Climate," in *Works*, IVa, 204-9.
123. *Ibid.*
124. Art. "Laws," in *Works*, VIa, 104.
125. Art. "Laws, Spirit of," in *Works*, VIa, 106-8.
126. Morley, *Life of Voltaire*, 9.
127 *Cf.* Macaulay, *Critical Essays and Poems*, I, 226, Dunning, *History of Political Theories*, III, 428-31, Flint, *History of the Philosophy of History*, 272-76, Brunetière, 301, Stephen, L., *English Thought in the 18th Century*, II, 188, Sorel, 139-41.
128. *Spirit of Laws*, VII, iii.
129. Spencer, *Principles of Sociology* (3v., London, 1876-96).
130. Laski, H., *Political Thought in England*, 109,
131. Taine, *Ancient Regime*, 213.
132. Walpole, *Letters*, II, 187 (Jan. 10, 1750)
133 Sainte-Beuve, *Portraits*, I, 146.
134. Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 116.
135. Havens, *Age of Ideas*, 127.
136. Sorel, 169.
137 Grimm, *Correspondance*, II, 491.
138. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire* (1779 ed), II, 142.
139. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 91.

140. Sorel, 171.
131. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 188.

CHAPTER XI

1 Desnoiresterres, I, 410.
2 Bain, R N., in Voltaire, *Charles XII*, introd. xxii.
3. E.g. Buckle, I, 577
4. Voltaire, *Charles XII*, p 11
5. *Ibid*, 334.
6. Letter of Aug 25, 1732, in *Works*, XXIa, 216
7. *Zaire*, I, i, in *Works*, Xa, 27
8 *Zaire*, II, iii
9. Desnoiresterres, II, 2
10. Créqui, *Souvenirs*, 35.
11 Brandes, I, 256.
12. *Ibid*, 34-.
13. *Letters on the English*, Letter i, in *Works*, XIXb, 193-98.
14 Letter v.
15 *Ibid*
16 Letter viii, translation in Havens, *Age of Ideas*, 168.
17 *Ibid.*, 169.
18 Letter x.
19. Letter viii, Hearnshaw, *French Thinkers of the Age of Reason*, 151
20. *Works*, XIXb, 29.
21. Brandes, I, 203
22 Voltaire, XIb, 212
23. *Ibid.*, 219.
24 235
25. Buckle, I, 517.
26 Parton, I, 225
27. *Ibid.*, 303.
28 343.
29 Desnoiresterres, II, 139.
30. Parton, I, 384.
31. Desnoiresterres, II, 239.
32. *Ibid.*, III, 113-15.
33. Françoise de Graffigny, *Vie privée de Voltaire et Mme du Châtelet à Cirey* (Paris, 1820), in Brandes, I, 400.
34. Brandes, I, 354.
35 Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 190
36 Parton, I, 391
37 Créqui, 35.
38 Parton, I, 389.
39 Wade, Ira, *Voltaire and Mme. du Châtelet*, 14
40 *Ibid.*
41 37.
42 Brandes, I, 388.
43 Voltaire, XXIa, 197-201.
44 Desnoiresterres, III, 330.
45 Voltaire, XXIa, 193, 209.
46 Letter of Apr. 15, 1741, in Gay, *Voltaire's Politics*, 26.
47 Brandes, I, 365, Desnoiresterres, II, 53
48 Voltaire, XXIb, 107.
49. Ia, 299
50 Voltaire, *Traité de métaphysique* (*Oeuvres complètes*, XLIII), end of Ch. i.
51. *Ibid.*, p 187.
52 Taine, *Ancient Regime*, 258.
53 *La Pucelle*, Canto ii, in *Works*, XXa, 83 f.
54. Voltaire, *Alzire*, I, i
55. Brandes, I, 361
56 Parton, I, 445.
57 Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 474
58 *Mahomet*, III, vi, in *Works*, VIIIb, 55
59 Brandes, II, 8
60 Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, p 101
61 Gibbon, E., *Journal*, 130.
62. Parton, I, 462.
63 Brandes, I, 405.
64 *Ibid.*
65. Mitford, N., *Voltaire in Love*, 75.
66. Parton, I, 542-45.
67. Martin, H., XV, 402.
68. Voltaire, XXIb, 98
69. XXIa, 190, 193.
70 *Ibid.*, 195.
71 Parton, I, 575.
72 *Ibid.*, 352.
73. Voltaire, VIIIb, 12.
74. *Ibid*, 14.
75. Voltaire, IIa, 282
76. Ib, 6.
77 IIb, 41
78 IIa, 63.
79. IIa, 26.
80 IIa, 44-45
81 Parton, I 581-82.
82 Voltaire and Frederick, *Letters*, 138, 191
83. Longchamp in Parton, I, 553 f.
84 Longchamp in Desnoiresterres, III 246 and Parton, I, 556.
85 Parton, I, 562.
86. Voltaire and Frederick, *Letters*, 197
87 Desnoiresterres, III, 390.
88 Parton, I, 571.
89. Voltaire-Frederick *Letters*, 33.
90 Voltaire, *Lettres d'amour à sa nièce*, 53
91 Voltaire, *Love Letters to His Niece*, 46 Dr. Besterman translates *cazzo* as "prick."
92 *Lettres d'amour*, 57, *Love Letters*, 48
93. *Lettres d'amour*, 69, *Love Letters*, 54
94 *Lettres d'amour*, 77 *Love Letters* 57
95 *Lettres d'amour*, 77, *Love Letters* 58
96 *Lettres d'amour*, 146
97. *Love Letters*, 103
98 *Lettres d'amour*, 15.
99 Marmontel, *Memoirs*, I, 121
100 Mitford, N, *Voltaire in Love*, 303

01. Nicolson, *Age of Reason*, 110.
02. Voltaire-Frederick *Letters*, 212; Gay, *Voltaire's Politics*, 150
03. Gay, 151.

CHAPTER XII

1. Mossner, *Hume*, 110.
2. Richard, E., *History of German Civilization*, 326, de Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 27, Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 483
3. Taine, *Ancient Regime*, 28
4. See Muhlhausen as described in Spitta *J. S. Bach*, I, 344
5. Lang, *Music in Western Civilization*, 608
6. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 255 (Nov 21, 1716).
7. Tietze *Treasures of the Great National Galleries*, 137.
8. Burney, C., *General History of Music*, II, 943
9. Desnoiresterres, IV, 160.
10. In Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 334.
11. Francke, *History of German Literature*, 223.
12. Ausubel, *Superman: The Life of Frederick the Great*, 756.
13. Wolf, *History of Science . . . and Philosophy*, 778.
14. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 40.
15. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 108
16. *Enc. Brit.*, XXIII, 697c.
17. *Enc. of Religion and Ethics*, VIII, 838b.
18. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 283.
19. *Ibid.*, 298
20. Text in Smith, P., *History of Modern Culture* II, 601.
21. Chesterfield, *Letters*, Sept. 5, 1748
22. Goldsmith, O., *Inquiry into the Present State of Polite Learning in Europe*, in *Miscellaneous Works*, 426.
23. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 63
24. Montagu, Lady Mary, letter of Dec. 17, 1716
25. Dillon, F., *Glass*, 5.
26. Bock, E., *Geschichte der Graphischen Kunst*, 477-84.
27. Berlin
28. Baroekmuseum, Vienna.
29. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 94.
30. *Oxford History of Music*, IV, 4.
31. Lang, 450
32. Spitta *Bach*, II, 46, *Enc. Brit.*, XVII, 896b.
33. Spitta, III, 18
34. Rolland, *Musical Tour*, 84
35. *Ibid.*, 211.
36. 207-8.
37. *Grove's Dictionary of Music*, II, 556.
38. Rolland, 211n
39. *Grove's*, V, 297.
40. Ebeling in Rolland, 119.
41. E.g., Concerto in D for trumpet, Suite in A Minor for flute, Don Quixote Suite.
42. Schweitzer, A., *J. S. Bach*, I, 103-4.
43. Spitta, I, 373.
44. *Grove's*, I, 158. On the Vivaldi transcriptions, see Pincherle, Marc, *Vivaldi*, 230-31.
45. Spitta, II, 147
46. Lang, 493.
47. *Grove's*, I, 161.
48. Schweitzer, I, 115.
49. Spitta, III, 261-64.
50. *Grove's*, I, 165.
51. Pratt, *History of Music*, 257.
52. Schweitzer, I, 338.
53. *Ibid.*, 321.
54. Spitta, II, 55.
55. Forkel in Schweitzer, I, 323
56. *Ibid.*, 404.
57. 292.
58. Lang, 499.
59. Davison, A., *Bach and Handel*, 56.
60. Schweitzer, I, 180.
61. Spitta, III, 252.
62. *Ibid.*
63. 263.
64. Weinstock, *Handel*, 4.
65. *Grove's*, I, 167
66. Rolland, 71
67. Spitta, II, 147.
68. McKinney and Anderson, *Music in History*, 407.
69. Words of the preacher at Bach's funeral, Spitta, III, 275
70. Letter of Karl Zelter in Schweitzer, I, 231
71. *Ibid.*, 230, Rolland, 219; Davison, 11.
72. Schweitzer, I, 238.
73. *Ibid.*, 242
74. 234

CHAPTER XIII

1. Carlyle, T., *Friedrich the Second*, IV, 171
2. Goodwin, *European Nobility*, 129.
3. Montagu, Lady Mary, *Letters*, I, 245.
4. Goodwin, 112
5. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 264, *New Camb Mod History* VII, 402.
6. In 1714-34.
7. 1726-33.

8. 1715–56
9. 1722–32.
10. 1729–32.
11. Nawrath, *Austria*, 15. The church was built in 1733.
12. Sitwell, *German Baroque Art*, 37; *cf.* Baedeker, *Austria*, 46.
13. Barockmuseum, Vienna.
14. *Ibid.*
15. Montagu, Lady M., I, 238.
16. Burney, C., II, 942.
17. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 315.
18. Frederick, *Mémoires*, I, 14.
19. *Enc. Brit.*, X, 274b.
20. Coxe, Wm., *History of the House of Austria*, III, 241.
21. *Ibid.*, 242.
22. *New Camb. Mod. History*, VII, 407.
23. Monroe, Paul, *History of Education*, 435.
24. Macaulay, *Essays*, II. 121; Acton, *Lectures on Modern History*, 288.
25. *Camb. Mod. History*, VI, 210.
26. *Ibid.*, 213.
27. 214.
28. Carlyle, *Friedrich*, I, 335.
29. Wilhelmine, Margravine, *Memoirs*, 31, 34, 52, 204.
30. *Ibid.*, 13, 63.
31. Carlyle, I, 377.
32. Wilhelmine, 91.
33. *Ibid.*, 84, 91.
34. Carlyle, II, 95.
35. *Camb. Mod. History*, VI, 211.
36. Wilhelmine, 109.
37. *Ibid*, 164.
38. Carlyle, II, 327.
39. *Ibid.*, 339.
40. 349.
41. Wilhelmine, 230.
42. Carlyle, III, 64-66.
43. *Ibid.*, 66-68.
44. Voltaire-Frederick *Letters*, Nov. 4, 1736.
45. Apr. 7, 1737.
46. Jan. 20, 1737.
47. Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.
48. Dec. 3, 1736.
49. Dec. 25, 1737.
50. June, 1738.
51. Dec. 25, 1737.
52. Mar 28, 1738.
53. Carlyle, III, 98.
54. Parton, I, 240.
55. Frederick, quoted in Villari, P., *Life and Times of Niccolo Machiavelli*, II, 201.
56. In Francke, *History of German Literature*, 230.
57. Carlyle, III, 142.
58. Valori in Ausubel, 435.
59. Frederick to Voltaire, June 6, 1740.
60. June 27, 1740.
61. Lea, H. C., *Superstition and Force*, 575.
62. Carlyle, III, 161
63. *Ibid.*, 163.
64. Smith, P., *History of Modern Culture*, II, 571
65. Carlyle, III, 175.
66. Goldsmith, O., *Miscellaneous Works*, 427.
67. Carlyle, III, 233.
68. *Ibid.*; Desnoiresterres, II, 290.
69. Voltaire-Frederick *Letters*, 143.
70. Fleury to Voltaire, Nov. 14, 1740, in Parton, I, 438.
71. *Ibid.*
72. Carlyle, III, 278.
73. Ausubel, 443.
74. Lutzow, Count von, *Bohemia*, 317.
75. Frederick, *Mémoires*, I, 94.
76. *Ibid.*, 103.
77. Coxe, *House of Austria*, III, 270; Macaulay, *Essays*, II, 126.
78. *Enc. Brit.*, XIV, 881d.
79. Carlyle, IV, 70.
80. Coxe, III, 309.
81. Carlyle, V, 36.
82. Voltaire to Frederick, March, 1742, in Voltaire-Frederick *Letters*, 159.
83. Frederick to Voltaire, Feb. 12, 1742.
84. Frederick, *Mémoires*, I, 5.
85. *Enc. Brit*, IX, 718c.
86. In Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 313.
87. Carlyle, V, 201.
88. *Ibid.*, III, 260.
89. Carlyle, V, 197, hotly repudiates any sodomitic implications.
90. *Enc. Brit.*, IX, 718c.
91. Carlyle, V, 65.
92. *Ibid.*, VII, 462; Mowat, *Age of Reason*, 101.
93. Letter of Aug. 31, 1750, in Parton, I, 611.
94. Desnoiresterres, IV, 108.
95. Taine, *Ancient Regime*, 281n.
96. Voltaire, *Works*, XXIa, 221.
97. Parton, I, 610.
98. *Ibid.*
99. Carlyle, V, 137.
100. *Ibid*, 146.
101. Gay, *Voltaire's Politics*, 154.
102. Voltaire, XXIa, 213.
103. Lanson, *Voltaire*, 112-13.
104. Parton, I, 340.
105. Chesterfield, letter of Apr. 13, 1752.
106. Parton, II, 59.
107. *Ibid*, 59-60, Desnoiresterres, IV, 196.
108. Morley, *Life of Voltaire*, 184.
109. Carlyle, V, 182.
110. *Ibid.*, 180.
111. 209.

112. 113.
113. 114, Strachey. *Books and Characters*, 191.
4. Voltaire, XIXa, 184f.
115. *Ibid.*
116. Parton, II, 126.
117. *Ibid.*, 103.
118. Carlyle, V, 223.
119. Parton, II, 108.
120. *Ibid.*, 138.
121. Voltaire, *Lettres d'Alsace*, 135-36 (Dec. 14, 1753).
122. Parton, II, 167-69.
123. Montesquieu, letter of Sept. 28, 1753, in Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 162.
124. *Philosophical Dictionary*, article "Quakers."
125. Bertrand, J. *D'Alembert*, 91.

CHAPTER XIV

1. Letter of May 27, 1756, in Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 18.
2. Épinay, Mme. d', *Memoirs and Correspondence*, III, 178.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 317.
4. Morley, *Life of Voltaire*, 200.
5. Boswell, *Life of Samuel Johnson*, 87.
6. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 260.
7. *Ibid.*, 272.
8. In Herold, *The Swiss without Halos*, 161.
9. Oechsli, 164.
10. Coxe, *Travels in Switzerland*, II, 225.
11. *Ibid.*, 179.
12. Oechsli, 265.
13. Coxe, *Travels*, I, 304.
14. Oechsli, 243.
15. *Ibid.*, 245.
16. Coxe, II, 262.
17. Casanova, *Memoirs*, I, 392, 407.
18. Coxe, II, 292.
19. *Ibid.*
20. Francke, *History of German Literature*, 220.
21. Lough, J., *The Encyclopédie*, 50.
22. Épinay, *Memoirs*, III, 199.
23. Coxe, II, 357.
24. Épinay, III, 173-75.
25. Masson, P., *La Religion de Rousseau*, I, 10-11.
26. In Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 148.
27. *Ibid.*, 39.
28. 40.
29. Lough, 94.
30. Desnoiresterres, V, 179-81.
31. Lough, 92.
32. Geneva, Musée d'Art et d'Histoire.
33. Jean Gaberel in Parton, II, 228.
34. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, Ch. lxviii.
35. Morley, 184.
36. *Ibid.*, 290.
37. Flint, *History of the Philosophy of History*, 254
38. Letter to Thieriot, Oct. 31, 1738.
39. Parton, I, 465.
40. Buckle, I, 580.
41. *Phil. Dict.*, art. "History," in *Works*, Vb, 64.
42. *Ibid.*
43. Voltaire, *Works*, XVIa, 137.
44. XIVa, 230.
45. *Essai sur les moeurs*, Ch. xx.
46. *Ibid.*, Ch. cxxxix.
47. Lanson, *Voltaire*, 123-24.
48. Robertson, Wm., *History of the Reign of Charles V*, I, 290.
49. "Observations on History," in *Works*, XIXa, 269.
50. *Essai*, Ch. cxcvii.
51. Ch. lxviii.
52. *Works*, XVIa, 133-36, 144.
53. Chateaubriand, *The Genius of Christianity*, III, iii, 6, p. 430.
54. Voltaire, XVIa, 250-51
55. Michelet, V, 274.

CHAPTER XV

1. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 307 f.
2. Smith, P., *Modern Culture*, II, 543; Nicolson, *Age of Reason*, 294.
3. Frederick to Voltaire, June 29, 1771.
4. Voltaire, *Works*, VIIb, 143.
5. Lecky, *History of Rationalism*, 145.
6. Blackstone, *Commentaries* (Oxford, 1775), IV, 60, in Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, IV, 247.
7. Clark, G. N., *The 17th Century*, 246.
8. Voltaire's estimate, in *Works*, XXIa, 250.
9. Mark xvi, 16.
10. Smith, P., *Modern Culture*, II, 553.
11. *Ibid.*, 556.
12. 550.
13. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 255.
14. Wilson, A., *Diderot*, 121-22.
15. Brandes, II, 107.
16. Bertrand, *D'Alembert*, 92.
17. Brandes, II, 50.
18. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 258.
19. *Cf. Catholic Enc.*, III, 189.
20. Voltaire, *Notebooks*, II, 351.
21. Faguet, *Literary History of France*, 361.
– 516
22. Smith, P., II, 268.

23. Schweitzer, A., *Quest of the Historical Jesus*, 23.
24. Quoted in Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 103.
25. *Ibid.*, 103 f.
26. Hsin-hai Chang, in private correspondence with the authors.
27. In Lovejoy, *Essays*, 105.
28. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 455.
29. In Lovejoy, 105-6.
30. Maverick, L. A., *China, a Model for Europe*, 126.
31. Fulop-Miller, R., *Power and Secret of the Jesuits*, 485.
32. Reichwin, A., *China and Europe*, 124.
33. Voltaire, *Works*, VIIIa, 176.
34. Pinot, V., *La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France*, 425.
35. *Ibid.*, 315, 281.
36. Maverick, 242.
37. *Ibid.*, 113.
38. *Philosophical Dictionary*, art. "Glory," in *Works*, Va, 208.
39. *Works*, XVIa, 119; XVIIIb, 278.
40. XIIIa, 29.
41. Montesquieu, *Persian Letters*, XLVI.

CHAPTER XVI

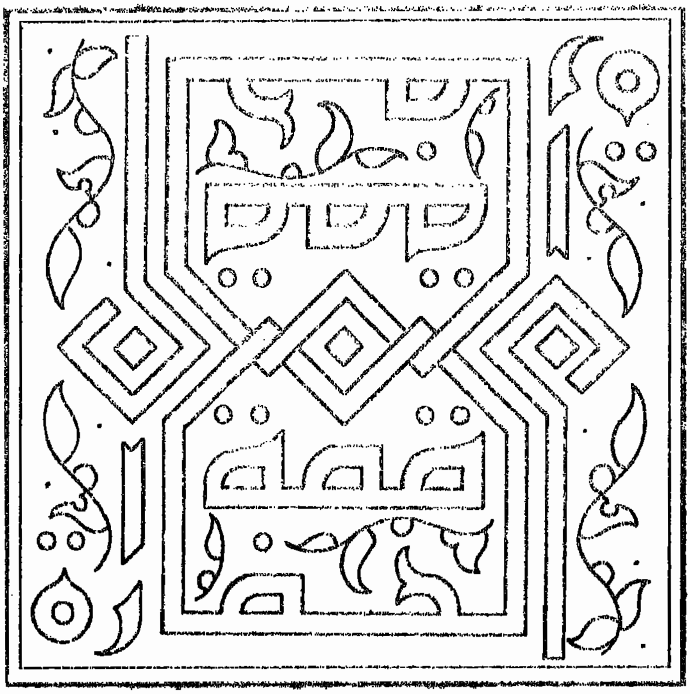
1. Buckle, I, 660n.
2. Fuss, N., in Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 522.
3. Bell, E. T., *Men of Mathematics* 148.
4. *Ibid.*, 156.
5. 159.
6. Wolf, *History of Science*, 70.
7. Whitehead, A. N., *Science and the Modern World*, 91.
8. Bell, 170.
9. *Ibid.*
10. 171.
11. 185.
12. Whitehead, 90.
13. In Crocker, *Age of Crisis*, 8.
14. Bertrand, *D'Alembert*, 32.
15. Morley, J., *Diderot*, I, 123.
16. Bertrand, 143, 153, 164; Ségur, *Julie de Lespinasse*, 113-14.
17. Wolf, 217.
18. Williams, *History of Science*, II, 275.
19. Smith, P., *Modern Culture*, II, 73.
20. Williams, II, 286.
21. *Ibid.*, 289.
22. 290.
23. 295; Wolf, 232.
24. Gibbon, *Essai sur l'étude de la littérature*, in *Miscellaneous Writings*, 2.
25. Williams, IV, 11.
26. Scheele, *Treatise on Fire and Air*, in Wolf, 358.
27. *Ibid.*, 350.
28. *Enc. Brit.*, XX, 62c.
29. *Ibid.*, 62h.
30. Moore, F. J., *History of Chemistry*, 37-38.
31. French, S. J., *Torch and Crucible: The Life and Death of Antoine Lavoisier*, 80.
32. In Wolf, 353.
33. Moore, 44.
34. *Ibid.*, 42.
35. Huxley, T. H., *Science and Education*, 23.
36. In Willey, *Eighteenth-Century Background*, 177.
37. Priestley, Jos., *Essay on the First Principles of Government*, in Willey, 195.
38. Priestley, *History of the Corruptions of Christianity*, in Willey, 170.
39. *Essay on the First Principles of Government*, in Huxley, 27.
40. *Ibid.*, in Willey, 197.
41. Schuster, M. Lincoln, *Treasury of the World's Great Letters*, 187.
42. French, S. J., 215.
43. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime in France*, 166.
44. Moore, 49.
45. McKie, *Antoine Lavoisier*, 225.
46. *Ibid.*, 293.
47. 325.
48. 319.
49. 412 f.
50. 404.
51. 407.
52. French, 267.
53. Williams, III, 11.
54. Langer, W. L., *Encyclopedia of World History*, 435.
55. Berry, *Short History of Astronomy*, 325.
56. Burney, Fanny, *Diary*, 161 (Dec. 30, 1786).
57. Williams, III, 21.
58. *Enc. Brit.*, XI, 520d.
59. Bertrand, *D'Alembert*, 45.
60. Martin, H., XV, 397.
61. Bell, *Men of Mathematics*, 173.
62. *Ibid.*
63. 172.
64. Laplace, *Système du monde*, V, vi, in Berry, 322.
65. Laplace, *Théorie analytique des probabilités*, preface, in Nagel, *Structure of Science*, 281.
66. Quoted by Cajori in Newton, *Mathematical Principles of Natural Philosophy*, 677.
67. Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, 332.
68. Mousnier and Labrousse, *Dix-huitième Siècle*, 31.

69 In Bell, 182.
70 Berry, 307.
71. Wolf, 299.
72. Buffon, *Oeuvres*, IX, 455.
73 *Ibid.*, 388.
74. XI, 454.
75. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 269
76 Buffon, *Oeuvres*, IX, 454.
77 Trattner, *Architects of Ideas*, 66.
78. Gourlie, *Prince of Botanists: Carl Linnaeus*, 3.
79. *Ibid.*, 34.
80. In Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 354.
81 Locy, *Biology and Its Makers*, 122.
82. Sainte-Beuve, II, 263
83. Lecky, *History of . . . Rationalism*, II, 16
84 Osborn, H. F., *From the Greeks to Darwin*, 130
85 Bearne, *A Court Painter and his Circle*, 272
86 Rousseau, letter of Sept. 21, 1771.
87 Gourlie, 270
88 Wolf, 455
89 *Ibid.*, 456
90 457.
91 *Enc Brit.*, XVIII 32.
92 Locy, 199
93 Wolf, 349
94 *Ibid.*, 450
95 Jardine, Wm., *The Naturalist's Library*, 24
96 *Ibid.*, 321
97 Sainte-Beuve II, 264
98 Osborn 136
99 In Butterfield, *Origins of Modern Science*, 175
100 Buffon, *Discours sur la nature des animaux*, in Martin, H., XVI, 37.
101 Goncourts, *Madame de Pompadour*, 145
102 Osborn, H. F., *Men of the Old Stone Age* 3.
103 Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 134, and Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 99-100.
104 In Smith, P., II, 518.
105 In Buffon, *Oeuvres complètes*, I, introd *xxii.*
106. Rousseau, letter of Nov 4, 1764.
107. Sainte-Beuve, II, 208.
108 Buffon, I, introd., *xxiii.*
109. *Ibid.*, XII, 324-30
110. *Ibid* 324n
111. Hazard, 144
112. Voltaire, letter to Helvetius, Oct. 27, 1740
113. Sainte-Beuve, II, 254
114 Jardine, 32.
115. *Ibid.*, 29.
116. In Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 588n.
117. Garrison, F., *History of Medicine*, 334.
118. Lovejoy, A., *The Great Chain of Being*, 233.
119. Réaumur, *Mémoires*, in Smith, P., *Modern Culture*, II, 101.
120. Vartanian, A., *Diderot and Descartes*, 176.
121. Osborn, *From the Greeks to Darwin*, 118.
122. Maupertuis in Crocker, *Age of Crisis* 81.
123. Osborn, 114-15.
124. *Ibid.*, 122.
125. Lovejoy, *Essays in the History of Ideas*, 147.
126. Turberville, A. S., ed., *Johnson's England*, II, 245.
127. Osborn, 119.
128. *Ibid.*, 145.
129. 146
130. *Ibid.*
131 149.
132 Brett, G. S., *History of Psychology* 423.
133. Condillac, *Traité des sensations*, 38
134. *Ibid.*
135. *Ibid.*, 70.
136. Wolf, 689.

CHAPTER XVII

1. Osler, *Evolution of Modern Medicine*, 187
2. Sigerist, *Great Doctors*, 235.
3 Castiglioni, A., *History of Medicine*, 602
4. Williams, H S., *History of Science* IV, 78.
5 Garrison, *History of Medicine*, 346.
6. *Ibid*
7 Vartanian, *Diderot and Descartes*, 270.
8 Wolf, 263.
9 Locy, *Growth of Biology*, 443.
10. Castiglioni, 613.
11. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Good."
12. Garrison, 402.
13 Besant, *London*, 380.
14. Himes, *Medical History of Contraception*, 187.
15. *Ibid.*, 191
16 198.
17. Chesterfield, *Letters*, Feb. 5, 1750.
18 Voltaire, *Works*, XIXb, 24.
19. Goncourts, *The Woman of the 18th Century*, 11.

20. Sée, *Economic and Social Conditions in France in the 18th Century*, 42.
21. Garrison, 321.
22. Traill, *Social England*, V, 425.
23. Chamousset in Lacroix, *Eighteenth Century in France*, 272.
24. *Ibid.*
25. Garrison, 400.
26. *Ibid.*
27. Castiglioni, 657.
28. Ducros, *French Society in the 18th Century*, 179.
29. Ercole, *Gay Court Life*, 421.
30. Harding, T. S., *Fads, Frauds, and Physicians*, 151.
31. Castiglioni, 641.
32. Traill, V, 51.
33. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 308.
34. Halsband, *Life of Lady Mary Wortley Montagu*, 111.
35. White, A. D., *Warfare of Science with Theology*, II, 55.
36. *Ibid.*, 57; Garrison, 373.
37. Voltaire, *Works*, XIXb, 20.
38. Garrison, 351.
39. Besant, 377-78.
40. Garrison, 343.
41. *Ibid.*, 110.
42. La Mettrie, *Man a Machine*, dedication.
43. *Phil. Dict.*, art. "Physicians."
44. Ford, Boris, ed., *From Dryden to Johnson*, 211.
45. Havens, *The Age of Ideas*, 345.
46. Garrison, 353; Sigerist, 237.
47. Aldis, *Madame Geoffrin*, 191; Herold, *The Swiss without Halos*, 85.
48. Brandes, *Voltaire*, II, 111.
49. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, III, 200.



لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

